الجوانب العاطفية

في

حياة الأنبياء

يعقوب

كشف وتأملات نفسية

مالك بدري

İstanbul Sabahattin Zaim Üniversitesi

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT

الجوانب العاطفية في حياة الأنبياء

كشف وتأملات نفسية

الجوانب العاطفية في حياة الأنبياء يعقوب

كشف وتأملات نفسية

مالك بدري

İstanbul Sabahattin Zaim Üniversitesi

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT

© المعهد العالمي للفكر الإسلامي –هرندن – فرجينيا – الولايات المتحدة الأمريكية

الطبعة الأولى 1442هـ/ 2021م

الجَوانِبُ العَاطِفِيَّةُ فِي حَيَاةِ الأَنْبِيَاءِ: كَشْفٌ وَتَأَمُّلاتٌ نَفْسِيَّةٌ

تأليف: مالك بدري

موضوع الكتاب:

١ – الجوانب العاطفية للأنبياء
٢ – الدراسات النفسية والعصبية الحديثة
٣ – التأملات النفسية
٤ – البيئة والوراثة
٥ – تأصيل علم النفس
٦ – الداسات النفسية والانفعالات

ردمك (ISBN) (978- 605- 06675- 6- 1)

Seri: İstanbul Sabahattin Zaim Üniversitesi Yayınları ; No. 56

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات. سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع. دون إذن خطي مسبق من المعهد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669 Hemdon, VA 20172 - USA
Tel.: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org / iiit@iiit.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبّر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

فهرس المحتويات

تقديم المعهد العالمي للفكر الإسلامي	٩
تقديم جامعة إسطنبول صباح الدين زعيم	١١
تمهيد	١٥
مقدمة	١٩
الفصل الأول: هل يَصْلُح علم النفس الحديث لدراسة شمائل الأنبياء؟	٢٣
الفصل الثاني: الانفعال بالعاطفة في الدراسات النفسية والعصبية الحديثة	٤٣
الفصل الثالث: هل يَكْمُل إيمان المسلم بالاكتفاء بعبادة الله بالجانب المعرفي للإسلام من دون أن يتعبّده بعاطفته؟	٦٣
الفصل الرابع: تأمُّلات نفسية حول استجابات الأنبياء العاطفية من حيث كونهم بشراً، أو من منظور شأوهم العظيم أنبياء معصومين	٧٧
الفصل الخامس: تأمُّلات حول اختيار الله للبيئة والوراثة المناسبة لكل نبي	٩٩
الفصل السادس: تأمُّلات حول دقائق حكمة الله في تدبير البيئة والوراثة لموسى عليه السلام	١١٣
الفصل السابع: تأمُّلات حول دقائق حكمة الله في تدبير البيئة والوراثة ليوسف عليه السلام	١٢٣
خاتمة	١٦٣
المراجع	١٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المعهد العالمي للفكر الإسلامي

يسرّ المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع جامعة إسطنبول صباح الدين زعيم أن يهدي العالم الإسلامي هذا السِّفر المعرفي الموسوم بـ "الجوانب العاطفية في حياة الأنبياء: كشفٌ وتأملات نفسية" للعالِم الأستاذ الدكتور مالك بدري رحمه الله. ولعلنا في هذه التقدمة نستذكر الكتاب القيّم الذي نشره المعهد للدكتور بدري وكان بعنوان: "التفكُّر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية"؛ إذ مثّل هذا الكتاب نموذجاً في منهجية التعامل مع النظريات الغربية في علم النفس، ومحاولة استكشاف المكنز الإسلامي في هذا العلم. وهي محاولة علمية جادّة كان المعهد بحاجة إليها لكي يبلور تصوراته المعرفية في منهجية التعامل مع الأصول التأسيسية والتراث والفكر الغربي. وها نحن نستثمر عِلْم الدكتور بدري وإِرْثَه المعرفي تارة أخرى في الكشف عن مكنونات الروح الإسلامية في تبيّن معالم نفسية الأنبياء صلوات الله عليهم، ومحاورة الأفكار الغربية بالنقد لا النقض؛ إذ يتفق هذا ومنهج المعهد العالمي للفكر الإسلامي الماثل في البحث عن الحكمة أينما كانت، فهي ضالة المؤمن، والنظر إلى العلوم والمعارف الإنسانية ضمن المعايير والرؤية القرآنية للوجود وهي ما تمثل الرؤية الكلية.

ولعل هذا الكتاب الذي نُقدِّم له يتطرق إلى مفردة وفكرة مهمة قلّما يتناولها الباحثون في الدائرة الإسلامية، وهي التأمُّل. ونحن نعي ما لهذه المفردة من سَبْرٍ عميق في النفس الإنسانية، لتنتقل من مرحلة الكمون والقوة إلى مرحلة التجلي والفعل، فالتأمُّل في المفهوم البَدْريّ مرحلة متقدمة جداً في النظر إلى مجريات الأحداث بالوصول إلى النتائج، متجاوزين سؤال (كيف ولماذا وما إلخ) من تلكم الأسئلة التي تحتاج إلى حفر معرفي؛ ذلك لأن التأمُّل كيمياءٌ من العلم والخبرة والعطاء الرباني. ولكن الدكتور (مالك) لا ينزع عنه لباس الباحث العلمي الصارم عندما يناقش النظريات والتحليلات الغربية للظاهرة مناط الحديث؛ فيبحث في أصل الفكرة وتشكلاتها وامتداداتها ومآلاتها، بوعي تام وبمحاورة لأصحابها ومتلقيها من الغربيين والمسلمين. ومن هنا بدا لنا منهج الدكتور مالك بدري في التحليل؛ فهو بين البحث والتفكّر

في مجريات أحداث الأنبياء، وحواراتهم وطبائعهم كما أبانها القرآن الكريم. وهذا منهج لافت ينبغي النظر إليه في إحداث التوازن بين القواعد والمعطيات العقلية، والمشاعر والتأمُّلات بكل تجلياتها ومنطلقاتها، لتغدو جزءاً من مصادر المعرفة الإنسانية، فجوانية الإنسان عالم كامل بذاته، وهو يستحق دراسة مستفيضة بناء على الرؤية الكلية الإسلامية.

لقد دأب المعهد على إقامة نشاطاته الفكرية والعلمية والبحثية بالتعاون مع المؤسسات الأكاديمية والبحثية، لما لهذه المؤسسات من صلة واضحة بالبحث العلمي. وقد كان للمعهد مؤتمرات وندوات وأيام علمية ونشاطات بحثية مع عدد من الجامعات التركية المرموقة، ولا سيما في مجال علوم الشريعة والعلوم الاجتماعية والإنسانية. وها نحن في هذا الكتاب القيّم نكشف عن حلقة أخرى من حلقات التعاون العلمي المشترك، من خلال نشر هذا الكتاب. سائلين المولى أن يعيننا على أداء واجبنا الحضاري في خدمة البشرية جمعاء.

وإذ ننوّه في ختام هذا التقديم بأن هذا الكتاب صُنع على عين المرحوم الدكتور بدري، وقد كانت بينه وبين المعهد مراسلات كثيرة أسهمت في تطوير الكتاب بالصورة المعرفية التي تُمكّن الطلبة والأكاديميين من الإفادة منه في دراساتهم وبحوثهم. وقدّر الله أن يأتي خبر وفاة الدكتور مالك بدري والكتابُ في طريقه إلى المطبعة، مما استدعى هذا التنويه والإضافة. سائلين الله عزّ وجلّ أن يرحمه ويغفر له، وأن يجعل هذا العمل في ميزان حسناته.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدكتور هشام الطالب
رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي

تقديم جامعة إسطنبول صباح الدين زعيم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ورسوله وصفيّه محمد (عليه وعلى آله الصلاة والسلام) المبعوث بالرسالة الهادية والرتبة العالية وعلى آله الطيبين الميامين وبعد:

مرّ علم النفس الحديث بتطورات عديدةٍ، و تشكَّل في كلٍ منها و تأثر بمدرسةٍ مختلفة، ثم ما يلبث أن يضيق بها، فينزع عنه لبوسها حين يرى أنها لا تلبّي تطلعاته واحتياجاته، ولا تشمل عوالم الإنسان الممتدة والمتشعّبة، وتنقَّل الدارسون والباحثون من مدرسة إلى أخرى باحثين مذبذبين؛ فتعددت مدارس علم النَّفس وتشعبت؛ ومنها المدرسة السلوكية وأبرز مؤسسيها "واطسن" و"بافلوف"؛ ومدرسة التحليل النفسي ويتزعمها "فرويد "، وغيرها من المدارس كالترابطية والغرضية.

وما فتئت هذه المدارس تحاول تطبيق مناهجها التجريبية وأقيستها العقلية على النَّفس الإنسانية، محاولة حلَّ مشاكلها وفق ما تتبناه من مناهج لتفسير النَّفس البشرية والسلوك الإنساني. ولكن هذه المدارس –وإن افترقت بها السُّبل والمناهج– إلا أنها تلتقي جميعها في قصر النظر على الجانب المادي للإنسان، بعيداً عن ولوج عالم الروح وصلاتها العلوية.

وقد اغترَّ كثيرٌ من الباحثين المسلمين بهذه المدارس، فقبلوا ما صدر عنها من نظريات وأفكار دون تمحيص أو تأصيل أو نقد أو مراجعة، وما زال كثير منهم تابعاً مقلداً لتلك المناهج إلى يومنا هذا.

ثم ما لبثت أن ظهرت في منتصف القرن العشرين محاولاتٌ جادةٌ لفهم النَّفس الإنسانية فهماً جديداً، مؤسَّساً على القرآن الكريم ومستظِلّاً بتوجيهات السُّنة النبوية، مع نظرة نقدية شاملة لعلم النَّفس الحديث ونظرياته، فكان ذلك إيذاناً بولادة علم نفس من منظور إسلامي على يد نخبة من خيرة علماء النَّفس المسلمين، كان في مقدمتهم الأستاذ الدكتور مالك بدري رحمه الله، والذي ترأَّس الجمعية الدولية لعلماء النفس المسلمين، وحمل راية تطوير علم النَّفس

في سياق إسلامي في كثير من الجامعات حول العالم، مما أهَّله لنيل جوائز عالمية تشهد بجهوده العظيمة في هذا الميدان. وما لبث رحمه الله تعالىٰ أن حطَّ رحاله في جامعة "إسطنبول صباح الدين زعيم" فزادها شرفاً وأصبح منارة علمية ومنهلاً للعلم والتجربة لأساتذتها قبل طلبتها، ونثر رحمه الله وطيَّب ثراه بذور مدرسته الطيبة في ربوع جامعتنا وأفنيتها، ونسأل الله أن يجني من ثمارها إلىٰ يوم الدين.

وانتقد مالك بدري رحمه الله استنساخ وتطبيق المقاييس النفسية والتربوية القائمة علىٰ النظرة المادية للإنسان، والتي لا تصلح لدراسة العاطفة عند الأنبياء، وهو بذلك يشير إلىٰ خصوصية علم النَّفس في سياق إسلامي؛ إذ يمكن للمسلم أن يفيد من تلك التجارب ولكن يؤصلها ويوظفها توظيفاً يتواءم مع الروح الإسلامية وعوالم الوحي.

ويرىٰ الأستاذ الدكتور مالك بدري رحمه الله أن النَّفس الإنسانية تُدرَّس وفق التصوُّر الإسلامي للإنسان، لربط العالَمَين؛ المادي والروحي، وهو بذلك يمدُّ الجسور بين الدراسات السيكولوجية المهتمة بسلوك الانسان وعوالم النَّفس ومقاماتها في الخطاب القرآني والفكر الإسلامي للوصول إلىٰ ماهية النَّفس وعلاقاتها بالعقل البشري والموجودات، ومن ثمَّ معرفة أشمل لما يؤثّر علىٰ الإنسان داخلياً وخارجياً ومادياً ومعنوياً وروحياً. وقد سلَّط رحمه الله الضوء علىٰ الآثار الإيجابية للتديُّن والإيمان والتجربة الروحية علىٰ السلوك الإنساني والصحة النَّفسية.

وبين أيدينا اليوم ثمرةٌ جديدةٌ قد أينعت من قطاف أستاذنا بعنوان " الجوانب العاطفية في حياة الأنبياء: كشفٌ وتأمُّلات نفسية"، وقد عاجلته -رحمه الله- المنية قبل أن يقدمها للقارئ الكريم، وكان رحمه الله يفضّل مصطلح "العاطفة" بحق الأنبياء علىٰ "الانفعال"، لما تحمله من دلالاتٍ إيجابيةٍ تليق بصفوة البشر صلوات الله تعالىٰ عليهم أجمعين.

ومن بديع ما أورده المؤلف رحمه الله مسألة التكامل بين المعرفة والعاطفة لكمال الإيمان بالله والقرب منه، وكيف تجلَّى هذا التكامل في أبهىٰ صوره في نموذج الأنبياء عليهم السلام؛ صفوة البشر وخيرتهم، وهو من دقيق العناية الإلهية في تكوين هؤلاء الأنبياء، فيتجلىٰ مزيج البيئة والوراثة مع العوامل المادية والمعنوية والروحية، وأثرها جميعاً في تعزيز العاطفة الإيمانية

عند الأنبياء الذين اجتمعت فيهم البشرية والعصمة الربانية والجذوة الإيمانية للقيام بمهامهم في التبليغ عن الحق سبحانه وتعالىٰ علىٰ أكمل وجه.

ومن نافلة القول إنَّ هذا الكتاب يُعدُّ إضافةً قيِّمةً إلىٰ مكتبة التربية الإسلامية، ولَبِنةً أساسية في صرح علم النَّفس من منظور إسلامي، ومرجعاً لا يستغني عنه الطلاب والباحثون في هذا المجال الحيوي.

وختاماً أتوجه إلىٰ المولىٰ الكريم سبحانه وتعالىٰ أن يجزي أستاذنا مالك بدري رحمه الله خيراً كثيراً علىٰ هذا الجهد الكبير، وعلىٰ بصماته الفارقة في علم التربية وعلم النَّفس الإسلامي من منظور إسلامي، وأن يجزيه عن العلم وأهله خيراً كثيراً، وأن ينفع بعلمه وكتبه مَنْ بعده، ويجعلها صدقة جارية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأستاذ الدكتور محمد بولوط

رئيس جامعة إسطنبول صباح الدين زعيم، تركيا

تمهيد

بدأ اهتمامي بالتأصيل الإسلامي لعلم النفس منذ الستينات من القرن الماضي، فقد قدمت أول محاضرةٍ عامة لي عن هذا الموضوع عام ١٩٦٣ م ، عندما كنت رئيساً لقسم علم النفس في الجامعة الأردنية . قوبلت المحاضرة بالتأييد بل الحماس من قبل الطلاب وعامة من استمع إليها من غير المتخصصين في علم النفس والدراسات الاجتماعية، أمّا زملائي من الأساتذة فقد أوسعوني نقداً وتسفيهاً بزعمهم أنّ علم النفس علم تجريبي كالفيزياء والكيمياء، وأنّه حرّر نفسه من الفلسفة والدين.

فأذكر أنّ قائلهم انتهرني بقوله: "هل تريد أن ترجع بنا القهقرى؟ هل تتحدث عن فيزياء مؤمنة أو كيمياء كافرة؟ فلماذا إذن تتحدث عن العالِم فرويد ومدرسته التحليلية من منظور ديني إسلامي؟ " وبالرغم من تكرار هذا المشهد بحذافيره بعد محاضرة قدمتها في جامعة الرياض في أواسط السبعينات من القرن الماضي، إلا أنّ حماسي للتأصيل الإسلامي لعلم النفس لم تزده الأيام إلا اشتداداً، لا سيما بعد انضمامي للجامعة الإسلامية العالمية التي اتخذت من التأصيل الإسلامي للعلوم منهجاً لها.

كنت أدرب طلابي على التفريق بين ما يقدمه علم النفس الغربي من مواد اختلط فيها ما أثبته العلم التجريبي ونقلته المعرفة البشريّة السويّة، وبين ما لا سند له غير تصورات مؤسسي مدارسه من أفكارٍ علمانية وعقائد منحرفة وتصورات شاذة عن طبيعة الإنسان وحياته من وجهة نظر حضارتهم المادية، أو حتى أحياناً من وجهة نظرهم الخاصة. كنت أحدّثهم عن تفوق الفكر الإسلامي النفسي، وأضرب لهم الأمثال من سيرة المصطفى ﷺ وشمائله، وحياة أصحابه الأبرار ومما وصلنا من كتب علمائنا القدامى؛ فلخّصتُ بعض هذه الأفكار في الثمانينات من القرن الماضي في كتابي "التفكُّر من المشاهدة إلى الشهود" الذي طبع في القاهرة.

حتى إذا طويت صفحة القرن الماضي تملكتني رغبة ملحّة لتأليف كتاب عن شمائل الحبيب ﷺ من منظور نفسيّ إسلامي، أركّز فيه على الجانب العاطفي من حياته الشريفة، لما فيه من دروس وعِبَر نفسيةٍ وروحيّة إضافية.

وضعت لكتابي عنواناً جذّاباً هو "العاطفة والحنين في حياة سيد المرسلين". فلما جمعت أهمّ مصادر السيرة النبوية والشمائل، وبدأت الكتابة، وبعد أن أكملتُ الفصول الأولىٰ عن ماهية العاطفة والانفعالات ودخلت في صلب الموضوع، وجدت أنّه لا بدّ لي من تعزيز أفكاري وتأملاتي عن عواطف الرسول ﷺ بما ورد عن غيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام، لا سيما أولئك الذين وردت قصصهم بشيءٍ من التفصيل في القرآن الكريم من مثل موسىٰ ويوسف عليهما السلام.

لذلك قررت أن أجعل كتابي شاملاً للحياة العاطفية للأنبياء بشكل عام، لكي يمثّل الجزء الأول، ومن ثمّ يأتي بعده إن شاء الله الجزء الثاني المختصر عن الحياة العاطفية للمصطفىٰ ﷺ. و بما أنني قد ألّفتُ هذا الكتاب ليكون مرجعاً في علم النفس الإسلامي يستفيد منه طلّابي، فقد حرصت علىٰ أن أكتبه ببساطة أسلوبي في تقديم محاضراتي لهم، وأن أتخلّص فيما أكتب من تعقيد وتضييق أسلوب كتابات الأبحاث الأكاديميّة الجافة، لذلك سمحت لنفسي أن أعبّر عن أحاسيسي وتأملاتي، وأعلنت ذلك منذ البداية في عنوان الكتاب، و لعل ذلك يجعل محتوىٰ الكتاب مناسباً للقارئ العادي ولغير المتخصصين في العلوم النفسيّة. كما حرصتُ في سردي لحياة المرسلين أن أبيّن بعض ما خطر علىٰ بالي عن حكمة الله تعالىٰ في تكوينهم العضوي والنفسي والروحي منذ طفولتهم، بالشكل الذي يناسب ما سوف يلقيه تعالىٰ عليهم من ابتلاءات النبوة.

بقي عليّ في هذا التمهيد أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدني في إنجاز هذه الدراسة؛ فأبدأ شكري للأستاذة الدكتوره زليخة قمر الدين؛ المديرة السابقة للجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، ولمجلس جامعتها علىٰ اختياري للإشراف علىٰ كرسي ابن خلدون للبحث العلمي؛ فقد ساعدني هذا الاختيار علىٰ التفرغ لكتابة عدة بحوث كان لها أهمية كبيرة لي في كتابة الفصول الأولىٰ للكتاب، وعن تصوّر علم النفس الغربي للانفعال.

أثنّي بشكري وامتناني العظيم للأستاذ الدكتور محمد بولوط Professor Mehmet Bulut رئيس جامعة إسطنبول صباح الدين زعيم Sabahattin Zaim University Istanbul لزيارته الكريمة لي في مكتبي في الجامعة الإسلامية في ماليزيا، وقد كنت وقتها أجمع كتبي ومتاعي للعودة للسودان بعد انتهاء مهمتي في الجامعة الإسلامية. وأشكره أيضاً علىٰ دعوته لي للانضمام

إلى جامعته المباركة، وبوعده لي بأن يخفف من أعبائي حتى أُكمِلَ تأليف هذا الكتاب الذي بين أيديكم، ثمّ أكرر الشكر له بأن تبنّى طباعته وترجمته إلى الإنجليزية والتركية.

كما أتقدم بامتناني للأستاذ الدكتور حسن كامل يلماز Yilmaz عميد كلية الدراسات الإسلامية في جامعة الزعيم الذي كتب مشكوراً تقديم الجامعة لهذا الكتاب.

ولا أنسى في هذا المقام أن أتقدم بالشكر لصديقي العزيز الأستاذ الدكتور سليمان درين أستاذ التصوف في جامعة مرمرة التركية، فقد كان يطلب مني أن أقدم حلقات تلفازية عن كتابي، ويقوم بترجمتها إلى اللغة التركية لنشرها في الإنترنت؛ إذ ساعدتني هذه الحلقات في ترتيب أفكاري وتبسيط لغتها بضرب الأمثلة.

أمّا أخي العزيز الدكتور خالد الدغيم فله منّي خالص الامتنان والعرفان، فبالإضافة إلى دقة تصحيحه اللغوي للكتاب، كانت لنصائحه وفكره وتشجيعه الأثر العميق في نفسي، فلا غرو في ذلك؛ إذ بالإضافة إلى تخصصه في اللغة العربية والبلاغة قد تخصص الدكتور خالد في التربية الإسلامية وأصول التربية الدينية، مما أهّله لتدريس علم النفس الإسلامي، فكانت إرشاداته لي منبثقة من جميع هذه المعارف.

وأثني كذلك على مساعدي في قسم علم النفس الباحث عيسى شاكر، فقد قام نيابةً عنّي بالعديد من المهام الإدارية والتدريسية التي كانت سوف تستغرق مني وقتاً وجهداً كبيرين.

وأخيراً أجزي الفضل الجزيل للمعهد العالمي للفكر الإسلامي عامة على إسهامهم الكبير في تحرير الكتاب تحريراً علمياً ومنهجياً، والإضافات المعرفية التي كانت تحاور النصوص والأفكار بصورة معرفية عهدناها على المعهد ونتاجاته ومشروعاته الفكرية، فلهم الشكر من قبلُ ومن بعدُ.

وألتمس العذر مِنْ كل من ساعدني ولم يتسع وقتي لذكره وأجره على الله.

ولله الأمر من قبل ومن بعد وصلى الله على سيدنا محمد.

مالك بدري

إسطنبول حزيران/ يونيو ٢٠٢٠

مقدمة

العواطف أم الانفعالات: ما المصطلح المناسب لهذه الدراسة؟

بالرغم من أنَّ مصطلح "الانفعال" قد أصبح الآن الكلمة التي أجمع عليها علماء النفس العرب لترجمة كلمة Emotion إلّا أننا فضلنا استعمال كلمة "العاطفة" عندما نتحدث عن الأنبياء، وذلك لأسباب ثلاثة: أولها أن كلمة "انفعال" صار لها ظلال سلبية، بسبب تركيز علم النفس الحديث على النواحي المَرَضيّة في الإنسان، كما أنَّ الاستعمال الشائع بين الناس للكلمة أضحى مرادفاً لحالة الغضب الجانح. فإذا قلت: "إنّ فلاناً مُنفعِل" فهم الناس أنه في حالة من الغضب والاضطراب، ولم يعد يستمع لنصح الناصحين ولا لصوت العقل والتروّي، ولا يُفهم من ذلك أنّه مُنفَعل بالحب أو الرحمة أو الشفقة أو غير ذلك من الاستجابات المحمودة المثيرة للعاطفة. لذلك رأينا أنّ هذا المصطلح رغم قبول النفسانيين به لا يليق استخدامه وصفاً لعواطف الأنبياء وسيدهم خير البريّة محمد ﷺ.

والسبب الثاني: هو عدم دقة المصطلح في اللغة العربية؛ فمشاعر الخوف أو القلق أو الغضب أو السعادة وغيرها من العواطف تصحبها تغيرات جسدية وهورمونية وعصبية مختلفة. فالانفعال: حالة معقدة من المشاعر يصاحبها تغيرات جسدية تنتاب الفرد نتيجة لاستجابته لمثير ما، فمنها ما هو انفعال إيجابي أو انفعال سلبي. والأصل في كلمة "انفعال" أنها مشتقة من الفعل الماضي "فـعَلَ" والفِعل-كما يقول ابن منظور في "لسان العرب"-[1] كناية عن كل عمل متعدٍّ أو غير متعدٍّ، وليس بالضرورة أن يكون العمل مرتبطاً بالناحية العاطفية والنزوعية. فقد ورد في القرآن الكريم قول الله تعالى في مدح إبراهيم وآله عليهم السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وفي وصف المؤمنين قال الله تعالى فيما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] وعلى لسان فرعون لموسى قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩] والمُفتَعَل من

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (توفي ٧١١هـ). **لسان العرب**، بيروت: دار صادر. (د.ت) ج١١، ص ٥٢٨ - ٥٢٩.

الأشياء هو المُختَرَع، أو المبالغ فيه الذي يحدث على غير مثالٍ تَقَدمه، كأن تقول: شعرٌ مُفتعل، إذا أتى الشاعر بقصيدة فريدة لا تشبه ما سبقها من الشعر.

أمّا السبب الثالث: فإننا وجدنا لكلمة "العاطفة" معاني مختلفة تؤهلها لتكون ترجمةً وافيةً لما يطلق عليه علماء النفس بالانفعال. فبالرغم من أن كلمة العاطفة قد أصبحت مرادفة للرحمة وللشفقة في تطورها الدلالي الحديث، إلا أنّ مصدرها الأساسي يأتي من الفعل عطف، بمعني لوى أو ثنى. ويضرب ابن منظور في لسان العرب مثلاً لذلك بقوله: "عَطَفْتُ رأس الخشبة فانعطفَ أي حنيته فانحنى". ويقول بأنّ "منعطف الوادي هو مُنعَرَجه ومنحناه."[1] وفي التنزيل الكريم يقول سبحانه وتعالى في وصف الكافر المتكبر: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أي لاوياً عنقه تكبراً وإعراضاً. ويبدو لي أنّه لقدرة اللغة العربية التي لا تضاهيها لغة في المرونة والتعميم والاشتقاق، فقد عمّمَ العرب هذا الانحناء والالتواء على الناحية النفسية للإنسان.

وفي حقيقة الأمر ما الانفعال بمفهوم علم النفس الحديث إلّا التواء عام في سلوك الفرد النفسي والعضوي والعملي. فهو أولاً: التواء في الشعور بالغضب أو الحزن أو الخوف أو القلق، وثانياً: التواء في الناحية العضوية والجسمية، كتغيّر ملامح الوجه واستثارة الجهاز العصبي والهرموني، وثالثاً: التواء في تصرفات الفرد وسلوكه الخارجي، كالصراخ في وجه من أغضبه أو سبّه أو ضربه، أو الهرب مما أخافه، أو النواح والبكاء عند الحزن والاكتئاب. ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أنَّ ابن منظور عمم في تعريفه لكلمة "عَطَفَ" على النواحي التي يحبها المعطوف أو التي يكرهها. فقال: "وعَطَف عليه يَعطِف عَطفاً" أي رجع إليه بما يكره أو له بما يريد".[2] لذلك فإننا سوف نستخدم في بحثنا هذا اصطلاح "العاطفة" ترجمةً لكلمة Emotion عندما نتحدث عن عاطفة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولكننا سوف نستخدم اصطلاح "الانفعال" كمرادفٍ للعاطفة عندما يكون الحديث في سياق علم النفس الحديث بشكل عام، أو يكون موجهاً للنفسانيين. ومن المصطلحات التي

---

(١) ابن منظور. **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٩، ص٢٤٨ – ٢٥٣.

(٢) المرجع السابق، ج٩، ص٢٤٩.

تدور حول مفهوم العاطفة كلمتا "وجدان" و"حنين". لكن كلا المصطلحين يقتصران على جوانبَ محدودةٍ من العواطف. فكلمة "وجدان" تستخدم عادة للتعبير عن الغضب والحزن والحب. فكما يقول الفيروز آبادي في قاموسه المحيط وابن منظور في لسان العرب: إنّ كلمة وَجَدَ ومشتقاتها قد تأتي بمعنى وجد المطلوب، كأن تقول: "وجدتُ ضالّتي" أو بمعنى الغنى والاستغناء والسَعَةِ، كما في الآية الكريمة: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] والواجِدُ هو الذي يأتي بالأشياء من العدم، فهو من أسماء الله تبارك وتعالى، كما أنَّ الواجِد من الناس هو من يجد ما يقضي به دينه وأوجَدَ الرجل أي أغناه، أما في الناحية العاطفية فقولك: "وَجَدتُ عليه" أي أنّك أغضبته، أمّا إن قلت: "تَوجَّدْتُ لفلان" فمعناها أنّكَ حزنت له، ووجَدَ به وجداً أي أحبّه حباً شديداً.(١)

أمّا الحنين فله معانٍ متداخلةٌ تدور كلها حول الرحمة ورقّة القلب والشوق والطرب وشدة البكاء والعطف بمعناه المتداول، وكلها جوانب رقيقة مستحبة من العواطف والانفعالات. فمن منظور الرحمة نجد أنّ الحنّان من أسماء الله عزّ وجلّ، فهو سبحانه الرحيم بعباده. فقد قال سبحانه في قرآنه الكريم أنه وهب يحيى ابناً لزكريا رحمة وتعطفاً فقال: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].(٢)

وكثيراً ما يرتبط الحنين بما يصاحبه من أصواتٍ تعبر عن شدة لوعة المشتاق والطروب والمشفق. فحنين المرأة والناقة لولدها يكون بصوت يهزُّ القلوب. لذلك سميت الناقة بالحانّة، وقيل: إنّ أصل الحنين ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها، ومن ذلك حنين الجذع إلى رسول الله ﷺ، حيث كان النبي إذا خطب يقوم إلى ذلك الجذع المبارك، فلمّا صُنع له منبر وصعد إليه حنّ الجذع ومال نحوه ﷺ، وسَمِع له الصحابة أنيناً كحنين الإبلِ، وما سكت حتى نزل الرسول ﷺ من المنبر واحتضنه بينما كان مسجده ﷺ يضجّ ببكاء الصحابة ونحيبهم. فالحنين إذن عاطفة ربّانية خيّرة تليق بالرحماء وذوي القلوب الرقيقة، وليس له مفهوم عام يؤهله ليقوم مقام "الانفعالات" في علم النفس. لذلك آثرنا أن نستخدم لهذا الغرض مصطلح "العاطفة" الذي يجمع بين دفتيه جميع أصناف الانفعالات.

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٣، ص٤٤٥.

(٢) المرجع السابق، ج١٣، ص١٢٨.

أسلوب الكتاب: ما بين صرامة كتابة البحوث الأكاديمية والتأمُّل العاطفي

بعد تبيين أسباب اختياري لمصطلح العاطفة، أرجو أن أصارح القارئ منذ البداية بأنني قد اتّبعتُ في هذا الكتاب أسلوباً مغايراً لما عُهد عليّ من تقيّد أكاديمي وصرامة علمية، حتى وإن كان الحديث عن موضوعي المفضل -التأصيل الإسلامي لعلم النفس-؛ إذ جعلتُ جزءاً من محاورات الأفكار تنبع من ذاتية وخبرة شخصية ونفحات متصلة بتأمُّلي للنص والحادثة، انطلاقاً من أن طبيعة الموضوع حددت هذا الخط المنهجي في تناول الأفكار والحوادث. ووفقاً لذلك بادرت بتسجيل عبارة "**تأمُّلات نفسية**" في عنوان هذا الكتاب، في محاولة للموازنة بين الذاتية والموضوعية، وما بين العلم والحِكمة، وما بين القواعد والتأمُّلات.

وقد أردت بهذه الدراسة أن أساعد في تصحيح بعض المفاهيم عن صلة علم النفس بمثل هذه التخصصات الإسلامية التي تناقش مسائل دينية أساسية في العقيدة وفي سيرة الأنبياء، كما حاولت أن أظهر حكمة الله تعالى في اصطفاء أنبيائه؛ باختيار البيئة الملائمة، والوراثة المناسبة لتربيتهم حتى يقوموا بمهمتهم التي تنوء من ثقلها الجبال. فعلم النفس حريٌّ بأن يكشف لنا بعض خبايا الحكمة الإلهية بالنسبة لهذا الاصطفاء. وأرجو أن يكون هذا البحث مفيداً لطلاب علم النفس.

وبما أنَّ هذه الدراسة تأمُّلات عن عواطف الأنبياء من منظور نفسي إسلامي، فهي لا تتحدث عن أحكام الدين، وعن الأمور الفقهية، بل تندرج تحت ما اصطلح على تسميته بالشمائل وبفضائل الأعمال والرقائق. لذلك، وإن كنت أفضل الاكتفاء بالاستشهاد بالأحاديث الصحيحة إلّا أني سمحت لنفسي بأن أستشهد بالأحاديث الضعيفة. فقد رُوِيَ عن الإمام أحمد بن حنبل وغيره أنّهم كانوا يقولون لمن ينتقدهم في استخدام الأحاديث الضعيفة: "إِذَا رَوَيْنَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَلالِ وَالْحَرَامِ شَدَّدْنَا فِي الأَسَانِيدِ. وَإِذَا رَوَيْنَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي فَضَائِلِ الأَعْمَالِ، وَمَا لا يَضَعُ حُكْماً وَلا يَرْفَعُهُ تَسَاهَلْنَا فِي الأَسَانِيدِ."[1]

وفي حقيقة الأمر فإنّ ما اصطلح بتسميته بالحديث الضعيف لا يقصد به أنّه باطل أو موضوع، بل إنّه لم يستوف جميع الشروط الدقيقة الصارمة التي وضعها علماء الحديث.

---

(١) انظر: الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (توفي ٤٦٣هـ). **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٩م، ج٢، ص١٢٢، رقم الفقرة (١٣٠١)، وقد وردت هذه العبارة عن الإمام أحمد بن حنبل وعن غيره، مثل عبدالرحمن بن مهدي، وابن المبارك، وهي هنا عند الخطيب من كلام عبدالرحمن بن مهدي.

الفصل الأول

هل يَصْلُح علم النفس الحديث لدراسة شمائل الأنبياء؟

لقد أطلق بعض علماء الغرب تسمية القرن العشرين بقرن علم النفس، لما له من تأثير كبير في تشكيل مفاهيم الغربيين العلمانية، ونظرتهم لأنفسهم ولبيئتهم ولمستقبل حياتهم. وقال آخرون: إنّ علم النفس قد أصبح كالدين الجديد للغرب الأوروبي، فحلّ محلَّ الكنيسة، وصار علماؤه مثل الكهنة والقساوسة في معابد العلمانية وعبادة الفرد لنفسه.[1] ذلك بأنّ علم النفس كغيره من العلوم في الغرب قد تبنّى الفكر العلماني المادي للإنسان، لكنّه كان وما زال أكثرهم قدرة في إقناع الغربيين على تقبّل هذا التصوّر، حتى أضحى عقيدةً ملأت الفراغ الذي أحدثه تراجع الكنيسة والتخلّي عن تعاليم الدين. فعلم النفس بتخصصه في دراسة طبيعة الإنسان وسلوكه قد زوّد الفكر العلماني بكل مبررات ثورته اللادينية. لذلك لم تجد الإنسانية العلمانية بعد ذلك صعوبةً في تتويج الفرد ملكاً على نفسه، وأنعمت عليه بكل السلطات الأخلاقية والقانونية التي كانت للكنيسة، فتنكّر لتعاليم دينه حتى أباح كثيراً مما يناقض الفطرة. فهل يصلح مثل هذا التخصص لدراسة شمائل الأنبياء؟ الإجابة على هذا السؤال قد تكون بالنفي أو بالإيجاب اعتماداً على ذلك الفرع النفسي الذي اختاره المسؤول أو السائل.

أهم نظريّات علم النفس وممارساته التي لا تصلح أو تلك التي تحتاج إلى تمحيص وتأصيل قبل الاستفادة منها في دراسة عواطف الأنبياء

إنَّ علم النفس الغربي تخصص فريد، يختلف عن جميع العلوم الاجتماعية ذات الطبيعة الأكثر تحديداً كالتاريخ مثلاً، فهو خليط علماني مُتَفَرِّد، يجمع بين بعض الجوانب التي تسندها العلوم التجريبية الحديثة، وأفكار وتصورات مختلفة لا يستند أكثرها على أدلة علمية حقيقية، بل إنّ بعضها ليتسم بالمبالغة والتخرصات المادية الشاذة، وهذا الجانب هو الذي يكوّن الغالبية العظمى في محتوى مقررات هذا التخصص. فنظريّات علم النفس وممارساته وأبحاثه التي تسود أكثر صفحات كتبهم تقوم على آراء وتصورات روَّاد مدارسه المختلفة عن طبيعة الإنسان.

---

(1) Vitz, P. (1977) *Psychology as a religion: The cult of self worship*. London: William Eerdmans Publishing. (بول فيتز: علم النفس بوصفه ديناً)

فهؤلاء الروّاد رغم ادّعائهم للعلمية لم يعتكفوا في مختبرات تجريبية وميدانية قاموا فيها بشتى التجارب ليخرجوا لنا باكتشافاتٍ محددةٍ عن طبيعة الإنسان، فجُلّ ما يقولون به لا يعدو أن يكون من بنات أفكارهم، ومن تأثير حضارتهم أو حياتهم الشخصية، أو من تأثير تربية آبائهم لهم، أو حتى نتيجةً لمشاكلهم النفسية. لكن هذه التصورات المادية لطبيعة الإنسان التي يَنأى بعضها عن المنطق السليم، ومكارم الأخلاق، تصبح المصدر الأساسي للأبحاث الكثيرة التي يتنافس في إنجازها أتباع كل اتجاه، ليحاول كل فريق إثبات ما قال به مؤسس مدرسته النفسية. إذ إنّ كل تصور من هذه التصورات يقوم مقام الأساس الذي يُشادُّ عليه البناء النفسي النظري والعملي لذلك التصوّر. لذلك أدّى كل انحراف في ماهية طبيعة الإنسان إلى تصدُّعٍ في البناء النفسي الذي شُيّد عليه، وأصبحت نظريّاته وممارساته علماً مزيّفاً، وإن ادّعى أصحابها بأنها علم تجريبي صحيح.

عندما أكمل علم النفس قرناً من الزمان منذ تأسيسه كلفت رابطة علماء النفس الأمريكية أحد أعظم النفسانيين والمفكرين الأمريكيين ليقوّم هذا التخصص بالنسبة لمكانته العلمية وإنتاجه الفكري. العالِم الذي تمّ اختياره هو البروفيسور سيجموند كوخ Sigmund Koch[1] من جامعة بوستن. هذا العالم اشتهر بتخصصه في علم النفس بالإضافة إلى الفلسفة والتفكير النقدي. أكمل هذا العالم مهمته وكتب تقريراً وافياً. ويَسُرني أن أترجم بدقةٍ ملخصاً لأهم ما ورد فيه، يقول: "بالرغم من مرور مئة عام كاملة منذ أن تضافرت الجهود لتأسيس علم النفس فإننا لم نجد منه سوى قليل من الحقائق والأفكار المبتكرة، ذلك لأنّ هذا التخصص قد سيطرت عليه المعلومات التي تدّعي العلمية وما هي بعلمية، بل هي معلومات زائفة pseudo knowledge."[2] هذه العلوم الزائفة التي سيطرت على علم النفس لها تأثير كبير على الناس. فعلم النفس يزخر بتصورات ساذجة مختلفة عن طبيعة الإنسان، تنسج حولها كثير من النظريّات ومناهج البحث التي تسعى جاهدةً لتأكيد صحتها. فإذا اقتنع مُنَظّرٌ ما بأنّ الإنسان ما هو إلا صرصور أو فأر أو كلب، فإنّ ذلك سيؤدي به حتماً إلى تنظيرٍ وتطبيقاتٍ تتسق مع

(1) Koch, Sigmund in Brown, S.C. ed. (1979) *Philosophy of psychology.* London: The Macmillan Press Ltd. (فلسفة علم النفس)

(2) Ibid

هذا التصور الغريب للإنسان. كذلك عندما يقتنع روّاد المدارس المختلفة بأنّ الإنسان ما هو إلا محوّل مكالمات تلفونية (كما يعتقد أصحاب التصور البيولوجي)، أو متعطش للثناء والمكافأة أو هو "شرطة" توضع بين المثير والاستجابة (كما يزعم السلوكيّون)، أو هو كمبيوتر أو حاسب إلكتروني (كما يقول أتباع التصوّر المعرفي)، أو هو محوّل للطاقة الجنسية (كما يزعم أتباع التحليل النفسي)، فإنّ ذلك سيمهد حتماً لنظريّات زائفة ولتطبيقاتها.

تعددت هذه التصورات والمدارس الفكرية وما أسفرت عنها من نظريّات وممارسات مختلفة تزخر بالعلوم الزائفة، لكننا نكتفي في هذه المقدمة بالحديث عن ثلاثةٍ منها كان لها أكبر الأثر في صياغة علم النفس، وهي التي استولت على نصيب الأسد في مقررات علم النفس في جامعات الدول العربية والآسيوية، وسوف نُبَسِّط طرحنا لفائدة غير المتخصصين في هذا الفرع من المعرفة. هذه الفروع أو المدارس النفسية هي التحليل النفسي الفرويدي والسلوكية وعلم النفس البيولوجي.

التحليل النفسي الفرويدي

لنبدأ بأقدم هذه التصورات وأعظمها أثراً في صياغة علم النفس الحديث، ذلك هو التصور الذي أتى به فرويد مؤسس نظريّات التحليل النفسي وممارساتها. ففي تصور فرويد ومن تبعه من التحليليين ما الإنسان إلا حيوان أناني بطبعه، تتحكم فيه غرائزه الجنسية والعدوانية اللاواعية. وبتأكيده على هذه الطبيعة الحيوانية للإنسان قلب فرويد العقيدة المسيحية رأساً على عقب، ففي المسيحية يولد الإنسان وارثاً لخطيئة آدم الأولى بسبب أكله من الشجرة المحرّمة، فالدين يأمره بغسل هذه الخطيئة الموروثة، وغسل ما ارتكبه من ذنوب، بالسعي لعمل الخير والاستغفار والندم على ما فات، والنظر إلى الجنس وكأنّه رأس الخطيئة.

فجاء فرويد ليقول للناس: أنتم بفطرتكم أنانيون، تدفعكم نزواتكم الجنسية والعدوانية، وليس هناك سبيل لتغيير هذه الطبيعة الحيوانية الداروينية، فإذا استمتعتم بالجنس بما يروق ويسمح به لكم، فأنتم في ذلك تستجيبون لطبيعتكم الحيوانية فلا تثريب عليكم، أما إن أبيتم فلن تترككم هذه الطاقة الجنسية المكبوتة التي تكافح للخروج إلى دنيا الوعي. فأنتم بهذا

الرفض تخدعون أنفسكم بأنفسكم. فبما أوتيتم به من وسائل دفاعية سوف تتحكم فيكم الطاقة الجنسية بطرق رمزية ملتوية في أنشطتكم الشعورية واللاشعورية، وفي أحلامكم المنامية، وقد تُعرِّضون أنفسكم بسبب هذا الحرمان أو بسبب الكبت الجنسي إلى شتى الاضطرابات النفسية التي لا يتمّ الشفاء منها إلا بعد علاج نفسي تحليلي، يُخرج ما أخفيتم من ظلمات اللاشعور إلى نور الوعي.[1]

سيطر هذا التصور المنحرف للإنسان على علم النفس والعلوم الاجتماعية والفنون وغيرها من التخصصات لسنوات طويلة، لكنّه أحكم استحواذه بشكلٍ خاص على العلاج النفسي لفترة زادت على الستين عاماً، كان فرويد ومن معه يصولون ويجولون من دون منازع أو منافس في تفسيرات تحليلية شاذة لكل أوجه الحياة البشرية، فكل نشاطات الإنسان من المهد إلى القبر ألبسوها أزياء جنسية تشف عن تفسيرات شاذة مُتكلَّفة، ولم يكتف فرويد خلال هذه السنوات الطويلة بما يحدث في وقته، بل قام بصياغة تاريخ البشرية بما راق له. من ذلك تحليله لحياة بعض العظماء في تاريخ البشرية من خلال تصوراته الجنسية، بل تعدى ذلك بتدنيس حياة الأنبياء ودياناتهم. اقرأ إن شئت كتابه المشهور عن الفنان النابغة ليوناردو دافينشي صاحب الموناليزا أو الجيوكاندا التي يعدّها كثير من الفنانين أشهرَ لوحة فنية في العالم.

يقول فرويد بأنّه وبعد تحليله النفسي للدوافع اللاشعورية التي استقاها من تحليله النفسي للأعمال الفنية لهذا الفنان، إنه كان يكبت في لاشعوره أحاسيسه الجنسية المثلية، وأنّه كان يميل إلى الشذوذ الجنسي، وتفضيل الصلة الجنسية مع الذكور، رغم أنّ هذا الفنان قد مات قبل ولادة فرويد بأكثر من ٣٥٠ سنة! أما تحليله النفسي للأنبياء فيظهر في كتابه الأخير المعنون "موسى وعقيدة التوحيد" Moses and Monotheism. إذ يقول فيه بأنّ موسى لم يكن إسرائيليّاً بل مصريّاً، وأنّه لم يأت بعقيدة التوحيد، بل إنّها كانت من عقائد قدماء المصريين! هذه الجرأة على العظماء والأنبياء هي التي أغرت عدداً من النفسانيين العرب والمسلمين بأن يحذوا حذوه.

---

(١) انظر بنحوه ما جاء في مجلة التجديد، المجلد العشرون، العدد التاسع والثلاثون، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م. المقال للمؤلف نفسه، بعنوان: من قضايا التأصيل الإسلامي لمناهج علم النفس في الجامعات الإسلامية ووقفات مع أبي زيد البلخي، وعزاه إلى:

- Thornton, Elizabeth M., *Freud and Cocaine: The Freudian Fallacy* (London: Blond & Briggs Publishers, 1983). (إليزابيث ثورنتون: فرويد والكوكايين: مغالطة فرويد)

بعد وفاته أتى من ورثه من التحليليين بنظريّات وتصورات اختلفت في ظاهرها عمّا جاء به، لكنها في جوهرها لا تختلف كثيراً عن تصوراته، لذلك ظلّ التحليل النفسي الفرويدي هو المسيطر على الفكر النفسي الدينامي، لا سيما في بلدان ما يسمى بالعالم الثالث. أمّا في الغرب الأوروبي فقد قلَّ تأثيره كثيراً بسبب ما واجهه من نقد من قبل الباحثين الذين أخضعوا نظريّاته وممارساته العلاجية للتقويم التجريبي والعملي، كما سنبيّن في الفقرة التالية عن الثورة السلوكية.

الثورة السلوكية

لقد جاءت السلوكية بثورةٍ كاسحة خضع لها علم النفس الغربي لنصف قرنٍ من الزمان، بل ما زال يخضع لكثير من نظريّاتها وممارساتها، غايتها أن تجعل من علم النفس تخصصاً تجريبيّاً، فسَخِرت من نظريّات التحليل الفرويدي، وتركيزها الجامح على اللاشعور وغرائزه الجنسية والعدوانية، لكنها قامت هي الأخرى على تصور لطبيعة الإنسان لا يقل في علمانيته عن تلك التي جاء بها فرويد؛ إذ دعم السلوكيون العقيدة اللادينية الغربية بأسلوب مختلف. قالوا: بأنّ الإنسان حيوانٌ لا طبيعة له على الإطلاق، إنما تتشكل طبيعته فقط بما يتعرض له في بيئته، فهو كالريشة في مهبّ رياح البيئة التي يعيش فيها. فلا يوجد في تصورهم أيّ دور للفطرة أو السلوك الموروث في تشكيل طبيعة الإنسان، فليس هناك أخلاق ثابتة، بل الأمر يعود للتنشئة التي ينشأ فيها الإنسان، لذلك لا يمكن الاحتكام لمعايير أخلاقية أو دينية في الحكم على سلوك الأفراد والجماعات، فليس هناك صالح وطالح، أو حلال وحرام. فكل مجتمع يضع قوانينه بما يروق له ويناسب حضارته.[1] من البديهي أنّ هذا الاعتقاد المصاب "بالعمى" الأخلاقي لا يصلح لدراسة العواطف الإنسانية دع عنك عواطف الأنبياء.

على أننا نحمد لهؤلاء السلوكيين –رغم خلل فلسفتهم– نجاحهم الباهر في تطوير العلاج السلوكي الذي جاء بثورة أطاحت بالتحليل النفسي وعلاجاته ونظريّاته القائمة على الدوافع اللاشعورية الجنسية والعدوانية، فقد رجعوا إلى منطق التدريب في تعلم السلوك المفيد، والتخلص من العادات الضارة والمرضية. هذا الأسلوب هو الذي عرفته البشرية، ومارسته

(١) انظر على سبيل المثال:

– فلوجل، جون كارل. **الإنسان والأخلاق والمجتمع: دراسة نفسية تحليلية**، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٦٦.

منذ القدم في تربية الأطفال، وفي تدريب الكلاب والطير على القنص والصيد. ولأضرب للقارئ غير المتخصص مثالاً مبسطاً:

إنّ العلاج السلوكي يقوم على تطبيق نظريّات التعلُّم. فكما يتعوّد الشخص السليم على استخدام المصعد للوصول إلى سكنه في الطابق العشرين، والاستمتاع بالنظر إلى حركة الناس والسيّارات من شرفة منزله، يشعر الشخص المضطرب نفسياً بالخوف الشديد من الأماكن العالية، فيرفض ركوب المصعد والارتقاء إلى مكان ينظر فيه إلى الأرض من مكان مرتفع، وإذا فعل ذلك سيطر عليه الإحساس بالخطر المحدق والخوف المُقعِد.

يدّعي فرويد ومن تابعه بأنّ هذا الخوف من الأماكن العالية ينبع من صراع لاشعوري قد تكون أسبابه جنسية الطابع، أو قد يكون بسبب خبرات في الطفولة طواها النسيان بسبب الكبت. فيُخضَع المريض إلى جلسات طويلة قد تمتد إلى شهور بل إلى سنوات لاستخراج الذكريات الطِّفْلية أو الصراع اللاشعوري المزعوم. فجاء العلاج السلوكي ليقول بأنّه ليس هناك صراع لاشعوري، ولا تخرصات جنسية الطابع، بل إنّ الخوف من الأماكن العالية هو المرض نفسه، وعلاجه باستثارة الشعور بالأمن والاسترخاء لدى المريض بالتزامن مع التدرج في صعود الأماكن العالية حتى يعوّد الشخص نفسه بالتدريج على التغلب على هذا الخوف المرضي. فكانت نتائج تطبيق هذا العلاج السلوكي مذهلة، إذ شفيت جميع الحالات المشابهة التي عالجها ولبي Wolpe رائد العلاج السلوكي في أسابيع قليلة، وكان بعضهم قد قضى من قبل سنوات من التحليل النفسي الفاشل.[1]

نجح العلاج السلوكي نجاحاً باهراً في علاج الاضطرابات الانفعالية البسيطة التي يمكن صياغتها في شكل مثير يحدث في بيئة الفرد واستجابته له، كالخوف المرضي "الفوبيا" فهو علاج يقوم على التدريب التدريجي بالاضافة الى طرق علاجه المبتكرة. لكنه لم يلاق مثل هذا النجاح في علاج المشاكل الانفعالية المعقدة التي تنشأ من تفكير المريض وتصوراته الخاطئة المعلولة التي تؤدي إلى إصابته باضطرابات كالاكتئاب. فالعلاج المعرفي إذن يهدف إلى تبديل فكر المريض وتصوراته عن نفسه وبيئته التي يعيشها في حاضره، وبتعاون الأسلوبين

(1) Wolpe, J. (1958). *Psychotherapy by reciprocal inhibition*.Stanford: Stanford Univ. Press. (العلاج النفسي عن طريق التثبيط المتبادل)

العلاجيين أصبح العلاج السلوكي المعرفي هو المفضّل والمعمول به الآن في جميع عيادات العالم الغربي وفي دول العالم التي تخلصت من تسلط التحليل النفسي.

إذن فقد قلب السلوكيّون على التحليل النفسي ظهر المجن، وكشفوا عن تهافت أفكاره وفشل أساليبه العلاجية. فلمّا وقع جمل فرويد كثرت سكاكينه، فانبرى المنقبون النفسانيّون والمؤرخون باستخراج مساوئه وعدم جدواه كعلاج نفسي، فمثلاً كشفت الدراسة التي أجراها النفساني البريطاني المشهور هانز أيزنك على أكثر من (٧٠٠٠) مريض نفسيّ أمريكيّ، قارن فيها بين الذين عولجوا بالتحليل النفسي وأولئك الذين لم يتلقوا علاجاً على الإطلاق، فوجد أنّ (٧٢ ٪) من الذين لم يتلقوا علاجاً قد تحسنت حالتهم النفسية بعد مرور سنة من التجربة، في حين كان تحسُّن الذين تلقوا العلاج التحليلي لا يزيد على (٤٤٪) من المرضى،[١] وعُدّت هذه التجربة بمثابة القنبلة التي انفجرت في وجه التحليل النفسي . فعلى أقل تقدير ظهر أن التحليل النفسي لا فائدة فيه بوصفه علاجاً نفسياً. لكن دراسات أخرى أجريت فيما بعد أظهرت أنّ بعض من طبق عليهم العلاج التحليلي قد ازدادت حالتهم سوءاً.[٢]

وفي الثمانينات من القرن الماضي نُشرت أبحاث أكثر دقة، شكّكت في مصداقية فرويد نفسه، كما أكدت على عدم جدوى التحليل النفسي بصورته التقليدية. منها تلك الدراسات القيّمة التي جمعتها الباحثةُ الأوروبية Thornton والتي أثبتت فيها أنّ فرويد حين كتب نظرياته الغريبة التي أرجع فيها جميع نشاطات البشر للدوافع الجنسية والعدوانية اللاشعورية لم يكن في حالة نفسية وعقلية سليمة؛ إذ كان يرزح تحت تأثير إدمانه على مخدر الكوكايين الذي أدمن عليه بسبب استخدامه لتخفيف ألم سرطان الفم الذي لم يعد يصبر على آلامه، فانتحر بأخذ كمية كبيرة منه.

كذلك أثبتت هذه الباحثة بدراسات تاريخية مستفيضة لمرضى نفسيين ادّعى فرويد بأنه نجح في علاجهم بأنّهم في حقيقة الأمر لم يتم شفاؤهم، وأنّ بعضهم كان يشكو من أمراض جسمية وليست نفسية، فأثبتت بأنّ كلَّ ما كتبه عن نجاحاته "الباهرة" لم يكن إلا كذباً وادّعاءً.

---

(1) Eysenck (1952). The effects of psychotherapy: an evaluation, *Journal of Consult. Psychol*. 16, 319-24. (آثار العلاج النفسي: تقويم)

(2) Schmiderberg, Melitta. (1970). Psychotherapy with failures of psychoanalysis.*British Journal of psychiatry*. 116. 195-200. (العلاج النفسي مع فشل التحليل النفسي)

وقد جمعت هذه المؤلفة أبحاثها في كتاب عنونته: Freud and Cocaine "فرويد والكوكايين".[1] هذه الأبحاث وما تلتها من دراسات في زماننا الحالي أهبطت فرويد ونظريّاته في كثير من الجامعات الغربية من علياء التربع على عرش العلاج النفسي إلى دراسة تاريخ علم النفس.

استطردنا في نقد التحليل النفسي الفرويدي لنوضح للقارئ الكريم أنَّ لعلم النفس جوانب لا تصلح لتفسير عواطف الأنبياء، ولا حتى للسلوك البشري العادي، كما أسهبنا القول في هذا الأمر؛ لننبّه القارئ إلى ممارسات قوم تُبَّع من بعض النفسانيين العرب والمسلمين. فجميع هذه الأبحاث والأدلة لم تؤثر في ممارساتهم النفسية. فما زال التحليل النفسي الفرويدي التقليدي يطبق بحذافيره في عيادات بعض الدول العربية والإسلامية، ولا يقبل العديد من النفسانيين في هذه البلاد أيّ نقد للتحليل النفسي الفرويدي، بل استعانوا بنظريّاته في تقديم ما أسموه حلولاً لمشاكل بلدانهم الاجتماعية. اقرأ إن شئت بعض كتابات المحللين النفسيين العرب في تمجيد فرويد؛ إذ يعدّ أحدهم فرويد ثالث ثلاثة بدّلوا نظرة البشر لأنفسهم وغيّروا تصورهم للعالم الذي يعيشون فيه. مثال ذلك ما كتبه نفساني في مقالته التي نشرت في المجلة الإلكترونية للشبكة النفسية العربية في عددها التاسع عشر في عام ٢٠٠٨م، بعنوان: "التحليل النفسي والذات العربية: من التنظير إلى الممارسات" يقول الدكتور عبد الهادي الفقير في هذه المقالة ما نصه: "ثورات فكرية ثلاث هزت الإنسانية هزّاً، وأسدت ضربات قاسية لتجبُّرها وتعنُّتها النرجسيين: فتلك أولاً الثورة الكوبيرنيكية التي أنزلت الأرض درجات من مقام المركز بين السماوات. وبعدها ثانياً الثورة الداروينية التي نزعت عن الإنسان تفوقه المزعوم والمفترى على سائر المخلوقات. وثالثاً يأتي دور الثورة الفرويدية التي زعزعت ثقة الأنا العظامية بنفسه، (أي زعزعت اعتقاد الإنسان بأنّه خلْقٌ مكرمٌ). هذا الأنا الذي شدّ ما ادّعى ويدّعي بسيادتة الواعية والمتعالية على كل أنماط وأشكال العطاءات الفكرية. فها هو ذا رقٌّ (أي عبد) للاشعور ذاك السيد الأجل والأعظم في دار الأفكار والأفعال الإنسانية؛ الطيب منها والخسيس، الرفيع منها والمتدني، الشاذ منها والقويم. إنّ اكتشاف فرويد لآليات اللاشعور والقوانين التي تحركها

(1) Thornton, Elizabeth M., *Freud and Cocaine: The Freudian Fallacy* London: Blond & Briggs Publishers, 1983

وتنظم سيرها فتح أبواباً ونوافذ جلية أمام الإنسانية مكّنتها وما زالت تمكنها من استجلاء أدق وأعمق لمكوناتها الأنتروبولوجية، ومن إدراك أفسح لإمكانياتها العقلية والإبداعية."[1] ثم يمضي ليقول بأنّ الحاجة لفرويد في أوطاننا العربية الآن أكثر من حاجة الأوروبيين في الماضي لإسهاماته.

أما في العيادات النفسية لمثل هؤلاء التحليليين فإنهم لا يتورعون عن إقناع مرضاهم من الشباب المسلم بأنّ الأسباب الحقيقية لاضطراباتهم النفسية تقبع في دياجير اللاشعور لديهم، بسبب كبتهم الجنسي فيُخضَعون لجلسات طويلة من التحليل لاستخراج ما خفي عنهم من دوافعهم اللاشعورية الجنسية المزعومة، فساءت أحوال بعضهم حتىٰ دخلوا في أزمةٍ روحيةٍ دينية كانت أشدّ علىٰ بعضهم من اضطرابهم الذي أرادوا أن يجدوا له علاجاً. ولي في هذا الموضوع خبرات مؤلمة في علاج مثل هؤلاء الشبان من تأثير ما أصابهم بسبب ما تلقّوه من هذا التحليل الآفك.

ليس هذا فحسب، بل إنّ بعض المتأثرين بالفكر الفرويدي من المسلمين قد حذا حذو فرويد وحذو من شايعه، فألفوا كُتباً ومقالات يحللون فيها شخصيّات عظماء التاريخ، وحتىٰ الأنبياء من منظور التحليل النفسي. أضرب للقارئ مثلاً بكتاب "التحليل النفسي للأنبياء" الذي ألّفه الكاتب المصري عبد الله كمال، فأغضب نشره كثيراً من القرّاء، حتىٰ اتّهمه بعضهم كما قال في كتابه "بالمروق والتعدي علىٰ ذات الأنبياء"،[2] وقد مجّد المؤلف فرويد وحاول تطبيق بعض نظريّاته علىٰ الأنبياء وعلىٰ الشعوب التي أرسل إليها هؤلاء الأنبياء. ففي حديثه عن القلق ردَّد تعريف فرويد بأنّ القلق قد يأتي بسبب خطر حقيقي وهو القلق الموضوعي، ثمّ القلق العصابي، وهو "**ردّ فعلٍ لخطر غريزي داخلي**" كما زعم فرويد وردّده المؤلف. ولكنه تجنب اطّلاع القرّاء علىٰ تعريف فرويد عن حقيقة هذا الخطر الغريزي رغم استخدامه له في تحليله النفسي. يقول فرويد بأنّ هذا القلق العصابي ينبع من صراع نفسي لا شعوري

---

(١) المجلة الإلكترونية للشبكة النفسية العربية في عددها التاسع عشر، في عام ٢٠٠٨م، للكاتب عبدالهادي الفقير، بعنوان "التحليل النفسي والذات العربية: من التنظير إلىٰ الممارسات". انظر موقع:
http//:elfakir-arab-nafs.blogspot.com/p/blog-page.25_html

(٢) كمال، عبد الله. **التحليل النفسي للأنبياء**، القاهرة: مطبوعات دار الخيال، ١٩٩٦م، ص١٢.

بين الدوافع الجنسية المكبوتة في اللاشعور التي تكافح للتعبير عن نفسها، وتفريغ طاقتها، وبين الوعي الذي يعيش في واقع الناس وقد تشرّب أخلاق مجتمعه وكوّن ضميراً يحاسبه على أفعاله اللاأخلاقية. كيف كان سيكون شعور من اتهمه بالتعدي على ذوات الأنبياء لو فسّر لهم الاصطلاحات الفرويدية الجنسية والعدوانية التي استخدمها في كتابه في وصف ما يصيب الأنبياء من قلق؟

ومن جرأته على الأنبياء قوله بأنّ النبيّ يحاربه قومه لأنّه سوف يأتيهم بنظام سياسي بديل. ثم يكتب بما نقلته عنه بأنّ هذا الأمر يدعو النبي "ليتحول إلى زعيم سياسي وتتحول رسالته إلى مشروع سياسي بل إنّ بعضهم (يعني بعض الأنبياء) كان دوماً ما يلجأ إلى حيل السياسة وتكتيكاتها. وأبرز هؤلاء نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي لجأ لأن يقول شيئاً آخر غير الحقيقة في بعض المواقف، والنبي محمد ﷺ الذي قال: "الحرب خدعة."[1]

ثم يستمر مع نبي الله إبراهيم ويصفه بأنّه هو المتمرد الأول وأنّه هو الأب لهذا التمرد. ثمّ يقول: "...هذا الأب كان تمرده في الأساس ضد الأب...ضد سلطة الوالد."[2] وكأنّه يلمح إلى نظرية فرويد الأوديبية التي يقول فيها بأنّ الابن في طفولته ينجذب إلى أمه ويميل نحوها ميلاً جنسياً مع كرهه للأب والغيرة منه. وإذا لم يجد الفرد حلاً نفسيّاً لهذا الصراع فسيكون من أسباب إصابته بالاضطرابات النفسية عند بلوغه. ومن الغريب أنّ عبد الله كمال كتب هذا الكتاب في عام ١٩٩٦م، أيّ بعد أفول نجم التحليل النفسي في أوروبا. فالمتخصصون النفسانيون في كثير من أقطارنا يكتفون بترجمات عربية ومحلية لمصادر نفسية غربية عفا عليها الزمان، ولا يتابعون ما استُحدِث في ميادين تخصصهم بسبب ضعفهم في اللغات الأوروبية أو بسبب خلو مكتباتهم من المصادر الحديثة.

تطرُّف تصوّرات الفكر البيولوجي النفسي عن طبيعة الإنسان

لقد بسّطنا القول عن تصوّرالتحليليين والسلوكيين عن طبيعة الإنسان وما أحدثتاهما من تنظير وممارسات، ونختم هذا الطرح المبسّط بثالثة الأثافي، التي لم تر في طبيعة الإنسان غير

(١) المرجع السابق، ص١٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤٣.

الجانب البيولوجي العضوي. فقد اتخذ مؤسسو هذا التصور نظرية دارون التطورية وكأنها دين أو فكر لا شك في صحته، ثم بنوا على هذا الأساس الواهي تصوراً لطبيعة الإنسان يسلب منه حرية الاختيار كما سلبها التحليليّون والسلوكيّون من قبل. فكما اعتقد التحليليّون بأنّ الإنسان عبدٌ لدوافع لاشعورية ولا حيلة له في اللاانعتاق منها، وكما جعل السلوكيّون الإنسان عبداً لتقلبات بيئته، تبنّى أصحاب هذا التصور البيولوجي الاعتقاد بأنّ الإنسان بطبيعته مسيّر بجهازه العصبي والهورموني وما ورثه من جينات من آبائه وأسلافه وغير ذلك من العوامل البيولوجية، حتى قال قائلهم إنّ وراء كل فكرةٍ تخطر على الفرد هناك تغيّر في جزيئات خلايا دماغه تحدث دون اختياره.

وزعموا بأنّه لو تطورت العلوم البيولوجية والكيميائية لاستطاع العلماء التحكم في الجوانب النفسية والاجتماعية للبشر من خلال التحكم البيوكيميائي عليهم. وقد شجّع هؤلاء وجرّأهم على هذا الموقف -الذي يقوم على نفس الحتميةِ المتطرفة Determinism التي قال بها أسلافهم- الاكتشافاتُ الحديثة في الطب التي أثبتت تأثير الجينات والكروموزومات والمكونات البيولوجية الوراثية في تكوين بعض الأمراض والإعاقات مثل التخلف العقلي وبعض الإعاقـات الجسمية، كمرض الرعاش Parkinsonism، كما أنّ أبحاث التصوير بالأشعة المقطعية لدماغ الإنسان أتت بنتائج مدهشة أحدثت تغيراً كبيراً في تقدُّم العلوم العصبية والنفسية، فقام أصحاب التعصب لفكرهم بتعميم هذه النجاحات البيولوجية المادية على طبيعة الإنسان بكل جوانبها النفسية والاجتماعية. وتمثل كتابات ويليام جيمس مثالاً واضحاً لما تقدم ذكره. وقد نشرت سلسلة عالم المعرفة كتاباً مهماً في هذا السياق عنوانه "الإنسان وعلم النفس"، يمكن الرجوع إليه لما فيه من مناقشات علمية.[1]

نكتفي بهذه الفقرة عن الناحية البيولوجية، لأننا سنفرد لها عدداً من الصفحات في الفصل القادم.

---

(١) إبراهيم، عبد الستار. **الإنسان وعلم النفس**، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٨٦، فبراير ١٩٨٥.

النظريّات والممارسات النفسية التي يمكن الاستفادة منها في دراسة عواطف الأنبياء

لقد ذكرنا من قبل أنّ علم النفس خليط علماني يجمع في تخصصه المتفرد بين شتىٰ الموضوعات التي ربما لا يكون هناك رابط ظاهر بينها. ذلك لأنّ كلَّ واحد من روّاد مدارسه المختلفة ومن شايعه يركز علىٰ موضوع اهتمامه المحدود، ويحاول تفسير كل جوانب السلوك الإنساني من خلاله، وكأنه شخص ينظر إلىٰ فسيح ما حوله من خلال أنبوب ضيق، أو كأنه مصاب بالجلوكوما النفسية. أدىٰ ذلك إلىٰ جعل علم النفس خليطاً لشتىٰ الأفكار والتصورات. هذا ما جعل علماء النفس في الغرب يقولون بأنّ تخصصنا عبارة عن سلطة salad تجمع بين شتىٰ الخضروات، لكنني أراه كالسوق العام غير المنظّم. فقد نجد في السلطة بعض الخصائص التي تجمع بين مكوناتها كطعمها وفوائدها، وكغناها بالفيتامينات، لكنك تجد في السوق العام أشياء لا رابط بينها. الساعات بجوار اللحمة، والملابس بجوار أقراص الكومبيوتر!

لذلك تجد اختلافاً بين المؤلفين لكتب علم النفس العام في ترتيب فصول كتبهم، فتجد أحدهم بعد وصفه العام للتخصص يبدأ بفصل عن التعلُّم، يتلوه فصل عن الإحصاء، ثم فصل عن الإدراك الحسّي، وتجد آخر يبدأ بعلم النفس البيولوجي، ثم علم نفس الطفل وهكذا. ويمكن للدارس أن يأخذ أيّ فصل في أول الكتاب أو أواخره، ويقرأه ويفهمه دون الاعتماد علىٰ من سبقه من الفصول. لذلك تجد أساتذة علم النفس العام لا يتقيدون بترتيب المؤلف للكتب التي يدرسونها، فلكل أستاذ أسلوبه الخاص في ترتيب المادة. وما هذا بدأب العلوم الدقيقة، بل هو بسبب تراكم المعلومات الزائفة التي نقلناها آنفاً عن العالم كوخ Koch.

ففي العلوم الدقيقة تجد كل فصل في الكتاب يؤدي إلىٰ الذي يليه. فمثلاً تجد كل كتب وظائف الأعضاء أو الفسيولوجيا تبدأ بدراسة الخلية، ثم دراسة الأنسجة التي تكوّنها مجموعة من الخلايا المتشابهة، ثمّ الأعضاء المؤلفة من الأنسجة المختلفة، ثم الأجهزة، كالجهاز الهضمي، أو العصبي الذي تكوّنه أعضاء مختلفة. فلا يستطيع الدارس فهم فصل إلّا إذا أتقن ما قبله.

لعل الدارس المثابر صاحب التفكير الإبداعي أن يجد في ركام هذه "السَّلَطة النفسية" ما يمكن غسله ومزجه بالتوابل "الإسلامية" المفيدة، حتىٰ يتسنّىٰ له استخدامه في دراسات مفيدة عن العواطف الإنسانية بشكل عام، وعواطف الأنبياء بشكلٍ خاص. ذلك بأنّ هناك

اختلافات كبيرة بين مختلف التخصصات والميادين النفسية، فكلما اعتمدت المادة النفسية على أصول علمية تجريبية كان تأصيلها سهلاً ومفيداً، والعكس بالعكس.

ربما يتبادر إلى ذهن القارئ فيما كتبناه حتى الآن أنّ جميع فروع علم النفس لا تستند إلى أدلة علمية، ولا إلى فكر مستنبط من العلوم التي أثبتت جدارتها كالعلوم التجريبية. فإن كان ذلك كذلك فهل يصلح مثل هذا التخصص في دراسة شمائل الأنبياء؟ نعم يمكنه ذلك، لأننا نجد في خضم هذا الخليط طائفةً من علماء النفس نأوا بأنفسهم عن ضيق أفق المناهج والمدارس النفسية المختلفة، وانصرفوا إلى أبحاث ودراسات تجريبية وميدانية يستخدمون فيها الوسائل القياسية والإحصائية المعتمدة ليكشفوا لنا خبايا العوامل والدوافع وراء سلوك الإنسان خلال أطوار حياته المختلفة، والإجابة على تساؤلات الأجيال المتعاقبة عن تأثير هذه العوامل في تشكل سلوكه. من ذلك على سبيل المثال، تلك الدراسات الميدانية التي أجريت للكشف عن تأثير الوراثة بالمقارنة بتأثير البيئة في إصابة الأفراد بالاضطرابات النفسية والعقلية. أضرب هذا المثال بطريقة مبسطة لغير المتخصصين في علم النفس لأوضح ما أردت تبيينه:

استخدم العلماء التوائم المتطابقة مقارنةً بالتوائم المختلفة للإجابة بدقة عن هذا التساؤل بالنسبة للإصابة بمرض الفصام العقلي. فكما هو معلوم فإنّ بويضة الزوجة إذا انقسمت بعد تلقيحها بحي الزوج المنوي إلى خليتين، فإنها سوف تلد توأمين متطابقين يحملان نفس الخصائص الوراثية. أمّا إذا أفرزت المرأة بويضتين في وقت واحد وتـمّ تلقيحهما بحيين منويّن مختلفين، فإنها ستلد توأمين مختلفين، التشابه بينهما كالتشابه بين الأشقّاء. استخدم الأخصائيون هذه الطريقة الذكية فوجدوا أن الإصابة بهذا المرض العقلي بين التوائم المتطابقة أكثر بشكل واضح بالمقارنة مع التوائم المختلفة، مما يؤكد على دور الوراثة الكبير في الإصابة بالفصام العقلي. فهذه الدراسات وما شابهها لا تقوم على فكر فلسفي ظاهر ولا تصور منحرفٍ عن طبيعة الإنسان. فباستخدام هذه الأساليب العلمية والإحصائية المبتكرة وتطبيقاتها العملية، استطاع مثل هؤلاء العلماء أن يكشفوا لنا عن أفضل طرق التعلم والتدريس والحفظ والاستظهار والآثار السلبية للضغوط النفسية وسبل علاجها، وما شابه ذلك من النشاطات النفسية الإنسانية الصحية منها والمَرَضية.

كذلك استفاد هؤلاء العلماء –كما سنبيّن بالتفصيل في الفصل القادم– من التزاوج بين علم النفس والعلوم التجريبية الدقيقة، كعلم الكيمياء الحيوية ودراسات الدماغ والجهاز العصبي وعلم الوراثة وعلم العقاقير الطبية وغيرها من دقائق العلوم التجريبية الحديثة، ليميطوا اللثام عمّا خفي عنّا خلال القرون الماضية. من ذلك الأبحاث التجريبية في ميدان التعلم ودقائق التشابك بين النشاط النفسي والعصبي في السمع والبصر والذاكرة وغيرها من الجوانب التي تتفاعل فيها العوامل النفسية مع العضوية الجسمية، فمثل هذه الدراسات تدعونا دعّاً للتفكر في خلق الله ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ومما يدعو للتفاؤل بالنسبة لمستقبل علم النفس أنّه بدأ في الآونة الأخيرة بتصحيح مساره العلماني المُـفرِط، وبتخفيف الجفوة نحو الجانب الروحي والديني بعد أن ثبتت فائدتها في تخفيف الضغوط النفسية وعلاج الاضطرابات. ومن ثمّ فُتِح باب استيراد الأفكار والممارسات الدينية التي أثبتت الأبحاث التجريبية جدارتها كالتأمل الارتقائي الذي أخذوه من البوذية بعد أن جردوه من محتواه الديني. كما نجد فيما يسمى بالموجة الثالثة للعلاج المعرفي السلوكي الاستفادة من هذا التفكُّر البوذي، لمساعدة أصحاب المشاكل في القبول بواقع حياتهم mindfulness and acceptance therapy.

لكنّ أعظم الفروع أثراً في تبديل مفاهيم علم النفس الغربي سوف يأتي في السنين القادمة من علم النفس الإيجابي، الذي جاء بثورة ضدّ تركيز علم النفس الحالي على النواحي السلبية والمَرَضية للإنسان وعلاجها وإهماله للنواحي الإيجابية للفرد، والاستعانة بها في التغلب على مشكلاته النفسية بدلاً عن التركيز على علاج أعراضه النفسية بعد ظهورها. فكثيراً ما يُشفَى المريض من أعراضه النفسية، ولكنه لا يجد الإحساس بالسعادة والرضا والثقة بنفسه في مواجهة مشاكل مستقبل حياته. فعلم النفس الإيجابي إذن يحاول أن يستكشف جوانب القوة في شخصية الفرد، حتى تساعده في إيجاد الحلول لمشاكله وعلاج اضطراباته النفسية.

و بظهور هذا التخصص في نهايات القرن الماضي، أصبحنا نسمع باصطلاحات ومفاهيم كالسعادة والرضا ومساعدة الآخرين التي أهملها علم النفس، لأنّ لها ظلالاً دينية أو لأنها لا تتسق مع التصور الحيواني الأناني لطبيعة الإنسان، فإذا تفحصت قائمة فهارس كتب علم

النفس الحديثة لا تجد ذكراً لاصطلاحات كالسعادة happiness أو القناعة. ومما يناقض هذا الفكر النفسي العلماني أنّ دراسات علم النفس الإيجابي التجريبية أظهرت بأنّ تقديم يد العون للمحتاجين من قبل المرضى النفسيين له تأثير واضح في تخفيف اضطراباتهم وكأنهم يؤكدون لنا نحن المسلمين أهمية الصدقة في دفع البلاء. إذن فليس هناك ما يمنعنا من الاستفادة من مثل هذه الدراسات النفسية الميدانية، وتلك التي استفادت من التكامل بينها وبين العلوم التجريبية الدقيقة في دراسة حياة الأنبياء، والكشف عن حكمة الله تعالى في تكليفهم واختيار البيئة الطيبة التي ينشؤون فيها حتى يقوموا بأعباء الرسالة الربّانية التي كُلّفوا بها.

لقد تحدثنا من قبل عن أولئك الذين شرحوا صدورهم لنظريّات علم النفس الزائفة، وفكره القائم على تصورات منحرفة عن طبيعة الإنسان، في التجرؤ على الكتابة عن نفسيّات الأنبياء، وضربنا على ذلك مثالاً بكتاب عبد الله كمال الذي عنونه بالتحليل النفسي للأنبياء. ونتساءل الآن هل قام علماء مسلمون بالاعتماد على ما جاء به الشق الآخر من علم النفس الذي أثبتته الدراسات التجريبية والإحصائية، أو حتى على الخبرات البشرية النفسية العامة لدراسة عواطف الأنبياء؟ الإجابة على هذا التساؤل بالإيجاب بالرغم من أنّ أكثرها لا تعدو من أن تكون فقرات مختصرة في كتب التفسير والسيرة والشمائل النبوية. أستثني من هؤلاء البحث القيّم الذي كتبه الدكتور إبراهيم عبد الرحيم مصطفى بعنوان "الانفعالات النفسية عند الأنبياء"[1] لنيل درجة الدكتوراه من جامعة النجاح.

استطاع هذا الباحث المدقق من الاستفادة من دراسات علم النفس في ميدان الانفعالات مع التزامه بمبادئ الإسلام وتوقير الأنبياء، كما تجنب التأويلات النفسية العلمانية التي لايسندها العلم ولا المنطق السليم. التزم الدكتور إبراهيم بدراسة انفعالات الأنبياء التي وردت بوضوح في القرآن الكريم وهي الخوف والغضب والحزن والندم واليأس والتبسم والعبوس. لكنّ التزامه الشديد بالكلمات القرآنية التي تحدثت عن بعض هذه الانفعالات بشكل ظاهر واضح قد حرم القراء من تلك التي ذكرها القرآن الكريم ضمناً في سياق آيات

(١) مصطفى، إبراهيم عبد الرحيم. **الانفعالات النفسية عند الأنبياء في القرآن الكريم**، رسالة دكتوراه، قدمت لجامعة النجاح الوطنية، نابلس/ فلسطين، عام ٢٠٠٩م.

الوعظ أو قصص الأنبياء. فقد خلت دراسته من بعض أهم الانفعالات والعواطف كالحب والرحمة والقلق. كما خلت من ذكر الخشوع الذي يجمع بين انفعال الخوف من الله ومحبته تعالىٰ والاستسلام والخضوع له، وكلها انفعالات وعواطف تحدث عنها القرآن في سياق مدح الأتقياء وخشيتهم.

كذلك أجد التزامه بالنص القرآني الذي ورد في وصف تعبيرات الوجه كالتبسم والعبوس لا يمكن عدّها انفعالات بشكل دقيق، بل هي تعبيرات عن انفعالات كالغضب الذي يؤدي للعبوس والابتسام الذي يفصح عن السرور والفرح. غير أنّي أهنّئ الدكتور إبراهيم علىٰ جهده المضني في جمع النصوص والأحاديث النبوية التي تناولت موضوعه وعلىٰ قدرته علىٰ استخراج الأمثلة المناسبة في سيرة الأنبياء الانفعالية.

لكنّ الحديث عن انفعالات الأنبياء وبالأخص سيدهم ﷺ، لا يمكن أن يسرد هكذا دون أحاسيس وانفعالات من قبل المؤلف نفسه. لكننا نجد للدكتور إبراهيم العذر في "جفاف" أسلوبه؛ لأنه يكتب أطروحة لنيل درجة علمية لها أعرافها وتقاليدها التي استقيناها من الغرب الأوروبي، والتي تزعم بأنّ إظهار عواطف الباحث قد يكون دليلاً علىٰ ضعف حجته. فالكُتّاب الغربيون قد برعوا في الوصول لأهدافهم بإخفاء انفعالاتهم من وراء ما يُسمىٰ بالحياد العلمي. لذلك تعمدت في كتابي هذا كما ذكرت من قبل أن أوضح للقارئ منذ البداية أنّه كتاب تأملاتٍ نفسية، أردت به أن يشاركني القارئ أحاسيس التقدير لنبل عاطفة الأنبياء وعلىٰ رأسهم من سادهم وخُتمت به رسالاتهم، وأن يدركوا طرفاً من حكمة الله تعالىٰ في اختيارهم واصطناعهم.

ومن الأبحاث الإسلامية المنشورة التي كُتبت عن التعبير النفسي والعاطفي من منظور إسلامي ذلك السِّفْر القيّم الذي ألّفه الدكتور السّر أحمد سليمان بعنوان "الأبعاد النفسية للتعبير عن الوجه في القرآن الكريم."[1] لقد شرفني المؤلف بكتابة المقدمة لبحثه فقلت: إنّ هذا الكتاب "يجمع بين الأصالة ودقة البحث والتفسير النفسي العميق لآيات الذكر الحكيم". فأنصح ألّا تخلو مكتبة نفساني من مثل هذا الكتاب وبحث الدكتور إبراهيم عبد الرحيم مصطفىٰ.

(١) سليمان، السر أحمد. **الأبعاد النفسية للتعبير بالوجه في القرآن الكريم**، الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠١٧م.

لا أريد أن أختتم هذا الموضوع دون أن أذكر أنّ الحديث عن عواطف الأنبياء من منظور نفسي وإن كان مختصراً لم يأتنا من المتخصصين في علم النفس، إنما من أدباء وعلماء ليس لهم معرفة تخصصية بهذا العلم، وفي سياق هذا الحديث نجد الأستاذ سيد قطب من السبّاقين في هذا الأمر. فقد استفاد من موهبته الأدبية وعمق إيمانه في صياغة تفسيره الموضوعي للقرآن الكريم "في ظلال القرآن" حيث يجد القارئ له كثيراً من الإشارات عن الجوانب النفسية والعاطفية للإنسان. لكن موهبته هذه تجلت في كتابه "التصوير الفني في القرآن الكريم"؛ إذ تحدث في إحد فصوله بوضوح عن الناحية النفسية والعاطفية في حياة بعض الأنبياء، كموسىٰ ويوسف وإبراهيم عليهم السلام. استمع إليه وهو يحدثك حديث النفساني المسلم عن شخصية موسىٰ عليه السلام. اخترنا هذا المقطع الذي كتبه بعنوان "رسم الشخصيات في القصة"[1] لكي نبرز موهبته وبراعته في انسياب الآيات القرآنية مع سرده في وصف شخصية النبي الذي اختاره، يقول الأستاذ سيد قطب: "إنّه نموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج، فها هو ذا قد رُبّي في قصر فرعون وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتىً قويّاً.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾ [القصص: ١٥] وهنا يبدو التعصب القومي، كما يبدو الانفعال العصبي. وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلىٰ نفسه شأن العصبيين: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: ١٥ - ١٧].

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وهو تعبير مصور لهيئة معروفة، هيئة المتفزع المتلفت المتوقع للشر في كل حركة، وهي سمة العصبيين أيضاً، ومع هذا ومع أنّه قد وعد بأنه لن يكون ظهيراً للمجرمين. فلننظر ما يصنع. إنه ينظر...﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ مرةً أخرىٰ علىٰ رجل آخر، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] لكنه يهم بالرجل الآخر كما همّ بالأمس وينسيه التعصب والاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه لولا أن يذكره

(١) قطب، سيد. **خصائص التصور الإسلامي**، بيروت: دار الشروق، ط١٩، ٢٠٠٠م، ص٢٥ وما بعدها.

من يهمّ به بفعلته، فيتذكر ويخشى: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]."[1]

بالرغم من تقديرنا الكبير لقلم صاحب الظلال، لكنّ لي بعض المآخذ عليه خصوصاً بالنسبة لحديثه عن الأنبياء وكأنهم أشخاص عاديون، فيتحدث عنهم وكأنهم زملاء أو أتراب. فإليك بعض ما ذكرت بهذا الخصوص بالنسبة لحديثه آنف الذكر عن رسول الله موسىٰ عليه السلام ، فقد وصفه بأنّه مندفع وعصبي وشديد التعصب لقوميته. فوصف ما فعله موسىٰ بوكزه للمصري استجابةً لاستغاثة الإسرائيلي بأنّها خليطٌ من التعصب العرقي و"الانفعال العصبي". فلعل حديثنا عن الأنبياء اليوم وكأنهم من أترابنا ومعارفنا العاديين ليدخل في باب نهي الصحابة عن الكلام مع رسول الله ﷺ كما يفعلون مع بعضهم بعضاً كما نهاهم الله تعالىٰ حتىٰ عن رفع أصواتهم في الحديث معه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]

لذلك يجدر بالمفسّر أو المعلق علىٰ هذه الحادثة (وما شابهها فيما ورد عن الأنبياء) أن يسأل: "هل قصد موسىٰ قتل المصري بوكزة أم جاءت الوكزة في مكان أودىٰ بحياته؟ أم أنّه أراد دفعه كما قال الأستاذ سيد في مكان آخر من ظلاله، أم إنّ الموضوع برمّته كان من تدبير إلهي لإخراج موسىٰ من بؤرة الحياة في قصر فرعون إلىٰ ما سيكلف به من رسالة وأمانة أشفقت الأرض والجبال من تحمّلها؟ وهل كان غضب موسىٰ بهذه الشدة بسبب دافع قومي عرقي كما ذكر الأستاذ سيد، أم لأنّ الإسرائيلي كان قد تعرض إلىٰ إهانة واستفزاز وربما إلىٰ أذىٰ جسمي فاستغاث بموسىٰ عليه السلام؟ ثمّ كيف يتهم نبي من أنبياء الله بالتعصب القومي وقومه يتعرضون لأبشع السلوك الإجرامي والأخلاقي حيث يقتل الأطفال وتستباح النساء؟

(١) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، تفسير الآيات من (١٥-١٩) من سورة القصص، ج٥، ص٢٨٨٣، وما بعدها.

من الممكن أن يوصف رسول الله موسى بأنّ الله تعالى كما ورد في القرآن اصطنعه لنفسه (الآية ٤١ في سورة طه) وهيّأه للوقوف أمام فرعون بأن خلق فيه جهازاً عصبياً ونفسياً يمنعه من الوقوف مكتوف اليدين أمام أيّ ظالم مهما علت رتبته. فموسى لا يحتمل أن يرى شخصاً يُظلم أمام عينيه. فهو كما وصف نفسه في القرآن يضيق صدره ولا ينطلق لسانه، ولكن تتحرك جوارحه بقوة لنصرة المظلوم، حتى لو تكرر المشهد وختم باستغاثةٍ جديدة.

لقد تحدثتُ في هذا الفصل عن عواطف الأنبياء واستجاباتهم لها بشكل عام، وسوف أركز في كتابي القادم إن شاء الله على عواطف نبيّنا محمد ﷺ بشكلٍ خاص، ذلك بأنّه الوحيد من أنبياء الله عليهم السلام الذي سجلت سيرته العاطفية بتفصيلٍ دقيق لم يحدث لإنسان قبله أوبعده. بالإضافة إلى ذلك فإنّ سيرته العاطفية هي من أعظم المعجزات الدالّة على نبوته، فهي في نظري أكبر من المعجزات الماديّة التي ركّز عليها مؤلفو كتب دلائل النبوة، هذا بالرغم من أهمية هذه المعجزات الماديّة التي قلل من شأنها بعض من تأثروا بفكر المعتزلة الجدد. بهذا نختم تقديم هذا الفصل لنقدم للقارئ في الفصل القادم تعريفاً للانفعالات النفسية من وجهة نظر علم النفس الحديث.

الفصل الثاني

الانفعال بالعاطفة في الدراسات النفسية والعصبية الحديثة

عالمية التعبير عن الانفعالات

رغم الاختلافات البيّنة بين النفسانيين حول ماهية الانفعالات ونشاطها إلا أنّ الباحث المدقق لدراساتهم النفسية يجد فيها إسهامات إيجابية مفيدة، كما يجد فيها نظريّات واستنباطات متهافتة غريبة انبثقت من فكر علماء تمسكوا بتصورات مدارسهم النفسية وطبقوها في ميدان الانفعالات. فمن الإسهامات المهمة أنّ الدراسات الميدانية، قد أثبتت بأنّ التغيرات الخارجية في ملامح الوجه المصاحبة للانفعالات المختلفة، هي تغيرات فطرية موروثة، يمكن التعرف عليها من قبل الأفراد في مختلف البلدان والحضارات، فحتى سكان القبائل البدائية في أدغال بعض المناطق أو السكان الأصليين في صحاري أستراليا يمكنهم التعرف على نوع الانفعال من الصور والأفلام التي تعرض عليهم.

فانتفاخ الأوداج واحمرار العينين في الغضب، وشحوب الوجه وارتجاف الأطراف والتلعثم وتغير الصوت في الخوف والفزع، وارتفاع الحاجبين واتساع العينين عند الدهشة والتعجب، وليّ الشفة العليا وشدّها إلى أعلى مع انكماشٍ خفيفٍ في الأنف، مما يقلص من حجم العينين مما يدل على الإحساس بالقرف والتقزّز من الروائح والأطعمة الكريهة أو لرؤية فعلٍ مستنكرٍ أو حتى الاستماع إلى شيءٍ من ذلك.

أهمّ إسهامات علم النفس الحديث

ومن أهم إسهامات علم النفس أنّه دمج بين كل الانفعالات -المحمودة منها والمذمومة- في تصنيف واحد جمع شمل تفرقها. ففي الماضي كان الدارسون للعواطف الإنسانية يتحدثون عن كل عاطفةٍ وانفعالٍ على حدة؛ فمثلاً يبدو أنّه في اللغة العربية في عهودها القديمة -بالرغم من دقتها التي لا تُبارى في وصف كل عاطفة بمفردها-، لا توجد فيها كلمة واحدة تجمع بين كل حالات الانفعال العاطفي. لقد أسهم هذا الجمع بين العواطف والانفعال بها في تصنيفٍ واحدٍ بالكشف عمّا بينها من تشابه نفسيٍّ وعضويٍّ عظيمين في تهييج الشعور واختلال فسيولوجية الجسم وتغيير السلوك الخارجي تبعاً لذلك.

فقد كشفت الأبحاث بأنّ بعض الانفعالات المختلفة مثل الغضب والخوف، قد تثير شعور الفرد وتغير ملامح وجهه بشكل مختلف، كما تصاحبها تغيرات معرفية وشعورية مختلفة، لكنها قد تثير تغيرات عضوية متشابهة، كازدياد ضربات القلب.

كذلك أسهم علم النفس في التأكيد على هذه الثلاثية للنشاط الانفعالي، فالانفعال كما يراه الناس وتؤكده الأبحاث العلمية يجمع بين الإحساس الذاتي، كالشعور بالخوف أو الغضب أو البهجة والسرور وغيرها من العواطف، وتتبعها مباشرةً التغيرات الجسمية الخارجية والداخلية، كتغير ملامح الوجه والنشاط العصبي والهورموني الذي يصاحب هذا الشعور، وثالثها أن يقوم المُنْفَعِل بسبب هذه المثيرات النفسية والجسمية العضوية بالاستجابة الخارجية، كالهروب مما أخافه أو قتال من أغضبه، أو احتضان من أحبّه، أو السرور والانشراح والضحك مما أفرحه.

أهمّ نظريّات علم النفس الحديث في ميدان الانفعالات

هذا التسلسل الثلاثي هو الذي يتبنّاه الناس بشكل عام لأنّه يبدو متناسقاً مع المنطق، وقد تبنّاه بعض الدارسين مثل لازاروس Lazarus وأيّدته أبحاث في ميدان علم النفس المعرفي. لكنّ العالم كانون Cannon جاء بدراسات حاول أن يثبت بها أن الجانب الشعوري المعرفي والاستجابة الجسمية يحدثان في الوقت نفسه. أمّا الأمريكي وليم جيمس William James الذي يُنْظر إليه بأنّه أعظم النفسانيين على وجه الإطلاق، فقد جاءنا بتصور غريب بالغ فيه بتأييد الفكر السلوكي الذي يقلل من أهمية التفكير والناحية المعرفية، ويبالغ في التركيز على المثيرات واستجاباتها الفورية.

يقول جيمس إنّ الناس يعتقدون بأنّ العواطف والانفعالات يحدثها إدراك الشخص العقلي لشيءٍ مثيرٍ لحالته الوجدانية، وينشأ عن ذلك إدراك ما نسميه بالانفعال، وهذا مفهوم خاطئ في نظره لأنّ العكس هو الصحيح! أي إنّ اعتقادك بأنّ الشخص يدرك أوّلاً بأنّ الحيوان الذي يجلس على مقربة منه هو أسد مفترس، فيتملكه الخوف ممّا رأى، فيطلق ساقيه للريح طلباً للنجاة هو ترتيب خاطئ للأمور، والصحيح حسب نظريته الشهيرة التي تحمس لها السلوكيّون هو أنك ترى الأسد فيستجيب الجسد مباشرةً بالحركات الجسدية كالجري أو

الارتجاف، وبالتغيرات العصبية والكيميائية الهورمونية، وبالأحاسيس الحشوية الداخلية كسرعة ضربات القلب، ثمّ تؤدي هذه التغييرات بعد ذلك إلى شعورك بالخوف! لا تقل بأنني سمعت بوفاة صديقٍ حميم فحزنت حزناً شديداً فبكيت، بل قل-حسب رأي جيمس- إنني سمعت الخبر المشؤوم فبكيت فنشأت من ذلك عاطفة الحزن. لا تقل: أغضبني فلان بإساءته لي فضربته، بل قل: أساءني فضربته فتملّكني الغضب.[1]

لعلي أسارع بذكر الأبحاث التي فنّدت هذه النظرية قبل الحديث عن نقد الجوانب الانفعالية الأكثر خطورة، والتي انبثقت وتشعبت من هذه النظرية. لم يكن في الحسبان أن يتم تفنيد نظرية جيمس من قبل التقدم في ميدان الدراسات العضوية التي وُضِعت هذه النظريّة للانتصار لها. فإذا كانت تغيرات الجسم الداخلية تأتي بالإحساس بانفعالات محددةٍ لكان لكل عاطفةٍ ينفعل بها الإنسان تغييراتها الداخلية الخاصة بها. لكن كما هو معلوم بالتجربة، فإنّ الشعور بازدياد ضربات القلب مثلاً لا يرتبط بانفعالٍ واحد، بل يشعر به الفرد عند الغضب والخوف والعشق، كما لا يحدث انفعالٌ على الإطلاق عندما يمارس الشخص الرياضة البدنية. كما اتضح بأنّ بعض الانفعالات المختلفة قد تستثير نفس الهورمونات والتغيرات العصبية.

وأخيراً أثبتت التجارب بأنّه إذا حُقِن أفراد -دون علمهم- بهرمون الأدرينالين أو النورأدرينالين الذي يفرزه الإنسان عند إحساسه بالخوف أو الغضب، فإنّهم لا يشعرون لا بالخوف ولا بالغضب بل ينتابهم إحساس مبهم بالإثارة، فإذا وُضعوا بين جماعةٍ غاضبة اشتد غضبهم، وإذا واجهوا أمراً مخيفاً استجابوا بخوف شديد. إذن فلا التغيرات الحشوية ولا الحركات الجسمية ولا التغييرات الكيميائية، هي التي تأتي تلقائياً بالإحساس بالانفعال، من دون الجانب الإدراكي والمعرفي للموقف المثير الذي يقرر للمرء الطبيعة المحددة للانفعال، ثم يثير التغيرات الكيميائية والحشوية التي تصاحبه. ولا تصلح هذه النظرية وما شابهها من التصورات إلا في تفسير قليلٍ من الاستجابات المفاجئة لمواقف انفعالية عنيفة، مثل ما يحدث للمصابين باضطراب الذعر Panic Attacks، أو الاستجابة العاطفية الشديدة لمثيراتٍ موروثة مباغتة، يختلط فيها الإدراك المعرفي بالاستجابات الفطرية السريعة، كاستجابة خوف الفأر من القط أو الإنسان من الزلازل.

(1) James ,William. *The Varieties of Religious Experience: a study in Human Nature,* Penguin American Library,1982 (أصناف التجربة الدينية: دراسة في الطبيعة البشرية).

ماذا أراد جيمس بوضع هذه النظرية؟ كل هذا ليحاول اصطياد أربعة عصافير بحجرٍ واحد، أوّلها: محاولة إثبات الاعتقاد بأنّ الاستجابات العاطفية هي التي تتبع الجسد وليس العكس، وفي هذا تأييد للمذهب المادي، وثانيها: ليربط بين الاستجابات الانفعالية للإنسان والحيوان الذي لا يتمتع بقدرات الإنسان العقلية دعماً لنظرية التطور لدارون عن الانفعالات، والتي فصّلها في كتابه الأخير بعنوان التعبير عن الانفعالات لدىٰ الإنسان والحيوان.[1]

ما من شك في أنّ هناك تشابهاً بيننا وبين الحيوان في أجهزتنا العصبية والهضمية، وفي خلق قلوبنا ودورة دمائنا وغيرها من الأعضاء الداخلية وفي بعض انفعالاتنا، فهذا التشابه هو الذي جعل الأقدمين يعرّفون الإنسان بأنّه "الحيوان الناطق". وما من شك في صدق ظاهرة الانتخاب الطبيعي التي يتم بها البقاء للأصلح، والتي يتوافق بها الخلق مع بيئته، والتي أساء دارون استخدامها.

ذلك بأنّ الإقرار بالتشابه بيننا وبين الحيوانات والقبول بمبدأ التوافق والتأقلم مع البيئة لا يدعو عاقلاً ليقول بأنّ السلحفاة سوف تصبح طائراً، ولا القرد أن يمسي بشراً. ومن المفارقات أنّ التقدم العلمي المذهل في ميادين الكيمياء الحيوية وعلم الأحياء الجزيئي Molecular biology وعلم الوراثة الذي تمّ في الخمسين سنة الماضية هو الذي هزّ عرش نظرية التطور وكشف عن عيوبها، وليس في هذا المقام مكان لتفصيل القول عن هذا الأمر، إنّما نريد أن نختم هذا الحديث بقولنا: إنّ التشابه بيننا وبين الحيوانات العليا لَأَمرٌ يدعونا إلىٰ التفكر في خلق الله لقدراتنا الفكرية والعاطفية التي صرنا بها بشراً، كما يدعونا إلىٰ توحيد الله سبحانه وتعالىٰ، حيث يدل تشابه هذا الخلق بأن فاطره واحد لا إله إلّا هو، تماماً كما تدعونا معرفتنا بأنّ كل ما في عالمنا من بشر وشجر وجبال وأنهار مكوّنة من نفس الجزيئات والذرّات، فسبحان الذي أعطىٰ كل شيءٍ خلقه ثمّ هدىٰ.

وثالث العصافير التي أراد جيمس اصطيادها بنظريته هو الانتصار للتصور الميكانيكي الآلي لطبيعة الإنسان، أو ما يعرف بمنظور المثير والاستجابة السلوكي الذي تحدثنا عنه من

(1) Charles Darwin (9 April 1998). *The Expression of the Emotions in Man and Animals*. Oxford University Press. Retrieved 4 August 2013.

(التعبير عن الانفعالات لدىٰ الإنسان والحيوان)

قبل. فهذا التصور يقلل من أهمية التفكير الداخلي ويركز على المثيرات واستجاباتها التي يمكن مشاهدتها وقياسها، مما يزيد الاهتمام بالاستجابات الجسمية لسهولة ملاحظتها وقياسها. ورابعها: دعم الفكر الفلسفي الذي تبنّاه علم النفس الحديث، الذي لا يعترف بخيرية الإنسان أو شرّه أو مسؤوليته عمّا تقترفه يداه من أعمال قام بها بمحض اختياره، إذ ما هو إلا حيوان مسيّر بعوامل بيئته ووراثته، ولا حرية حقيقية له فيما يفعله، ويعضد ذلك التصور العلمي الساذج الذي تبناه علم النفس ليدخل تحت مظلة "العلمانية".

ما بين العقل والدماغ

وهذا التصوّر إذن هو الذي يضع التصور الديني لطبيعة الإنسان في مواجهة أبدية مع الخلفية الفلسفية المادية الإلحادية التي يقوم عليها البناء النفسي الغربي. إذ ينظر الدين للعقل – كما هو معلوم – بأنّه مناط التكليف والتروي الذي يحث الانسان على اختيار ما ينفعه وتجنب ما يضره، بالرغم من أنّ هذا الاختيار قد يكون مخالفاً لهواه. فخلافاً للحيوان يكظم الإنسان بعض انفعالاته، ويؤجل الاستمتاع بما يشتهيه حتى تتوفر لديه الظروف المناسبة لذلك الاستمتاع. فإن لم يفعل كان هو المسؤول عمّا سيصيبه من أضرار.

ما الذي يمنع الإنسان من التصرف كالحيوان في سلوكه الانفعالي؟ أهو دماغه الذي تطوّر من القرود؟ أم هو العقل ذو الطبيعة الروحية الذي لا تحكمه القوانين المادية، وهو الذي يتحكم في الدماغ؟ هذا الخلاف حول طبيعة الإنسان هو عمود الأمر الذي تدور حوله جميع الأفكار والنظريّات النفسية وما يتمخض عنها من ممارسات. لذلك وجب علينا أن نقف معها قليلاً ولا نمر عليها مرور الكرام، وسوف نُبسِّط عرضنا للقراء غير المتخصصين وليصبر المتخصصون على تبسيطنا لمسائل يعرفون طبيعتها الأكثر تعقيداً.

نبدأ بقولنا إنّه من الطبيعي ألّا تقبل الماديّة اللادينية بوجود عقلٍ أو قلب ذي طبيعةٍ روحانية لا تخضع كليّاً لقوانين المادة، لأنّ ذلك سوف يهدم البناء المادي اللاديني والبناء الداروينى من أساسه، ذلك لأنّ دعامة هذا البناء تؤكد بأنّه ليس هناك فرق بين الإنسان والحيوان إلّا بما يتمتع به الإنسان من دماغ متطوّر. هذه هي العقيدة التي اعتنقها العلم الغربي الحديث وكأنها دين مرسل وتبعه في ذلك علم النفس الغربي.

من هذا التصور نفهم مبالغة السلوكيين والماديين بالنسبة "لحيونة" الإنسان، وقول غلاتهم بأنّ مصطلح "العقل" لا يمكن قبوله، إلّا إذا كانت هذه الكلمة تعني فقط الدماغ المادي الذي نحمله في رؤوسنا. فالنفس الإنسانية أو الروح أو القلب أو أي شيء غير مادي بالنسبة لهم ليس له وجود حقيقي إنما هوعَرَض من أعراض الجسد، ويستدلون على هذا الفهم الضيّـق بأنّ انفعالات الإنسان بل وشخصيته بالكامل قد تتبدل إذا تعرّض لحادثٍ أو جرثومة أو جلطة أتلفت جزءاً من دماغه.

فقد يتغيّر سلوكه الانفعالي فيصبح حاد المزاج، ينفجر غضباً لأتفه الأسباب بعد أن كان صاحب شخصية هادئة، أو قد يصاب بالشلل أو يفقد القدرة على الكلام أو أي عاهة أخرى. إذن فقد توّج هذا التصور المادي الدماغ بقشرته الرمادية مَلِكاً مسيطراً على كل النشاط الجسمي والعقلي للإنسان، فإذا كان الأمر كذلك -كما يؤكدون- فما الداعي لافتراض وجود كائنٍ "هولاميّ" أو روحانيٍّ آخر يتحكم في نشاط الإنسان النفسي والجسمي؟

وممّا يدعو للابتهاج حقاً أنّ الدراسات الحديثة التي جاءت بها الثورة المعرفية والأبحاث المعاصرة في علم الأعصاب، من علماء رفضوا الانقياد الأعمى وراء التعصب الفكري الإلحادي، بالإضافة إلى الدراسات المقننة في علم نفس ما وراء الحواس، أو ما يسمى بالباراسيكولوجي، قد تصدت لمبالغة الفكر المادي وتصوره الآحادي لطبيعة الإنسان وانفعالاته. فبتعاون الثورة المعرفية في علم النفس مع الباحثين في علم الأعصاب، أعيد التركيز على دورالعقل وأهمية الشعور والوعي الإنساني في تشكيل سلوكه الانفعالي، حيث يؤكد العالم جون إكلز John Eccles الحائز على جائزة نوبل على أبحاثه في الجهاز العصبي، أنّ للإنسان عقلاً غير ماديٍّ أو "نفساً مدركة" وبأنّه لا يمكن تفسير عمل الجهاز العصبي ووعي الإنسان بنفسه إلا بوجود عقلٍ أو كائنٍ يتحكّم في دماغه ، [1] مما يقربه ومن معه من العلماء بقبول الطبيعة الروحية للإنسان.

يشبّه هؤلاء العلماء الدماغ بجهاز التلفاز والعقل بمحطّة الإرسال، فإذا تعطل جهاز التلفاز أو تشوهت الصور المنقولة فيه ، فإنّ صاحبه لا يتصل بمحطة الإرسال ليبلّغ شكواه،

(1) Eccles, J. *Evolution of the brain: Creation of the self*. London: Routledge Publishers ,1991.
(تطور الدماغ: خلق الذات)

بل يأخذ جهازه للفنيّ المتخصص لإصلاحه، وذلك لتأكده من سلامة الموجات المرسلة. فالعقل يعمل كجهاز الإرسال، فهو الذي يقرر للدماغ ما يقوم به من خلال بث رسائله غير المرئية. فإذا أصيب الدماغ بتلفٍ ما فتعطلت وظائفه وعجز عن استقبال ما يبثه العقل الروحي، أصبح كالتلفاز المعطل في عدم قدرته على تلقـي إشارات محطة الإرسال.

إذن فتغير الحالات العاطفية أو الجسمية للإنسان بسبب تلف دماغه، لا يمكن قبوله كدليلٍ على إنكار وجود العقل والجوانب الروحية غير المادية في تشكيل سلوكه، بل إنّ مثل من ينكر وجود العقل وينساق وراء فكر الماديين القائل بأنّ الدماغ هو صاحب الشأن الوحيد، هو في سذاجة الطفل الصغير الذي يعتقد بأن الأشخاص والحيوانات التي يراها في التلفاز لها وجود حقيقي داخل صندوقه! وبالرغم من أنّ العالِم إكلز Eccles ومن سانده من الباحثين لم يقوموا بهذه البحوث لتأييد الفكر الديني، إلّا أن نتائج أبحاثهم جاءت لتفند مبالغات الماديين، وتؤيد وجود الجانب الروحي في كيان الإنسان، وهذا أمر له أهميته في دراستنا للانفعالات والعواطف من هذه الزاوية الإسلامية.

لم يكتف هؤلاء بالحجج الدامغة، بل دعموا ذلك بأبحاثهم التجريبية التي فنّدت مفهوم سيطرة الدماغ المطلقة على السلوك، من ذلك تلك التجارب الذكية التي استخدموا فيها الإثارة الكهربائية للدماغ؛ إذ برهنوا بأنّ الدماغ قد يأمر بحركة في الجسم، كرفع الذراع مثلاً وصاحب الذراع لا يريد رفعها. أي هناك دماغ، وهناك وعي إنساني أو عقل لا يقبل بما يملي به الدماغ. فإن كان الدماغ هو المسيطر الوحيد على سلوك الإنسان وفكره وعواطفه، فمن المستحيل أن يأمر بشيءٍ، ويخالفه وعي الإنسان بأن يريد شيئاً آخر. وقد برهنوا على هذه الفرضية بتجربةٍ طريفة؛ إذ استخدموا أقطاباً كهربائية لتثير منطقةً معينةً في دماغ أحد المرضى المتطوعين، الذين كانوا يخضعون لجراحةٍ في الدماغ، جعلته يرفع ذراعه بشدّة. فتلك المنطقة من القشرة الدماغية التي استثيرت هي التي تأمر العضلات برفع الذراع. فعند ذلك أُمِرَ الشخص بعدم رفع ذراعه ووافق على ذلك، لكن عندما أعيدت الاستثارة لتلك المنطقة من الدماغ ارتفع الذراع مرةً أخرى. يسأله الباحث، "لِمَ رفعت ذراعك بعد أن وافقت على عدم رفعها؟"، فيجيب بقوله: "أنا لم أرفعها". فيقال له: "إن لم ترفعها أنت فمن الذي رفعها؟".

إذن فالدماغ يريد الرفع ووعي المتطوع أو عقله لا يريد ذلك. فإذا كررت العملية يقوم هذا الشخص تلقائياً باستخدام يده الأخرىٰ ليمنع الذراع من الارتفاع. أي إنّ العقل حاول أن يمنع الدماغ من رفع الذراع! إذن فالدماغ ليس هو السيد المطاع.

ومن الأدلة الدامغة علىٰ أن الدماغ ليس هو الوحيد الذي يشكل فكر الإنسان وعواطفه وشخصيته، تلك الظاهرة التي لا يلتفت إليها كثير من العلماء، حتىٰ أولئك الذين يقولون بتحكُّم العقل علىٰ الدماغ. تلك هي ظاهرة التوائم المتطابقة والسيامية. فالتوائم المتطابقة، كما ذكرنا من قبل، تأتي من بويضة واحدة من الأم لقّحها حيّ منوي من الأب، ثمّ انشطرت إلىٰ خليتين، فتنمو كل خلية وقد أوتيت نفس المورثات الجينية لتصبح أحد التوأمين، فكأنّ التوأمين في هذا الشأن يعيشان بنفس خصائص دماغ واحد.

تؤكد الدراسات التي أجريت علىٰ هؤلاء التوائم أنهما يتشابهان تماماً في الجوانب العضوية كملامح الوجه والطول وفي بعض الصفات النفسية كالذكاء، لكنهما كثيراً ما يختلفان في شخصيتهما، فقد يصبح أحدهما تقيّاً ورعاً ويكون الآخر مجرماً عاتياً. فتشابه البيئة وتطابق الوراثة لا يكفي لإحداث تشابه في الشخصية والأخلاق، إذ كيف لدماغين متطابقين أن يأتيا بمثل هذه الفوارق؟

أمّا الدليل الأكثر إقناعاً فقد أتانا من التوائم السيامية. هؤلاء التوائم يولدون وهم ملتصقون ببعضهم البعض. في بعض الحالات ينجح الجرّاحون في فصلهم وفي أحيانٍ كثيرة لا يمكن فصلهم، لأنّ الجراحة قد تقضي علىٰ حياة أحدهم أو كليهما. ولأضرب للقارئ مثلاً بحالة واحدة لشهرتها. فقد ولد في عام ١٩٦١م توأمان أمريكيّان بجسمين مختلفين ورأسين ملتصقين ودماغين متداخلين ممتزجين، لكن الغريب في الأمر أنّهما مختلفان تماماً في سمات شخصيتهما وسلوكهما العاطفي. فأحدهما منبسط يهوىٰ الموسيقىٰ وحصل علىٰ جائزة في هوايته، والآخر منطوٍ يعمل غسالاً في إحدىٰ المستشفيات. فكيف يأتي دماغ واحد بهذا الاختلاف؟ وقد ولد في الهند طفل برأسين في كلٍّ منهما دماغ. فيا ترىٰ أي الدماغين سوف يتحكم في سلوكه العاطفي عندما يكبر إذا عاش؟

ومما يؤيد الاعتقاد بضعف التفسير المادي وأثره علىٰ السلوك الانفعالي ما أثبتته تجارب بحوث علم نفس ما وراء الحواس أو ما يعرف باصطلاح الباراسيكولوجي Parapsychology.

فإن كان الدماغ وما يحفزه من مثيرات في بيئته هو السبيل الوحيد للمعرفة والانفعال بها، فلا سبيل إلى تفسير حصول بعض الناس على معلوماتٍ دقيقةٍ وتبديل أحاسيسهم وعواطفهم تبعاً لذلك بوسائل لا تخضع للتفسير المادي، كانتقال الأفكار والعواطف من شخصٍ إلى آخر يبعد عنه بمئات بل آلاف الأميال، أو ما يسمى بظاهرة التخاطُرTelepathy التي أثبتها العلم بأبحاثه التجريبية على الإنسان والحيوان بشتى الوسائل المضبوطة، لكن هذه النتائج يتم التقليل من شأنها بالتجريح الأكاديمي أو كتمها أو عدم الترويج لها في اللقاءات العلمية لتعارضها مع الفكر المادي العلماني.

هذه الظاهرة هي التي سجّلها التاريخ الإسلامي لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما صاح وهو في المدينة المنوّرة في أثناء خطبته للجمعة: "يا سارية الجبل...يا سارية الجبل" فسمع صوته سارية بن زنيم الدؤلي الذي كان يقود الجيش الإسلامي في بلاد الفرس، وكان قد تكاثر العدو على جنوده، وأصبح في خطر عظيم، فسمع صوت عمر يناديه، فاحتمى بالجبل وانتصر على عدوه.[1]

كذلك لا يستطيع العلمانيون تفسير ظاهرة الجلاء البصري Clairvoyance التي يتعرف بها الشخص الموهوب إلى مكان أشياء خُبّئت عنه في مكانٍ عويص، ويندرج تحت هذا الاصطلاح العام الأحلام المنامية التنبؤية التي سنناقشها بالتفصيل في فصلٍ قادم، والتي تتحقق فيها الرؤيا بكل حذافيرها أو جُلّها. فقد أثبتت العالمة جوليا موسبريدج Julia Mossbridge أستاذة علم الأعصاب Neuroscience بعد ١٥ سنة من أبحاثٍ أجرتها على مجموعات من الأشخاص في جامعة نورث وسترن الأمريكية أنّ قدرة الأحلام على التنبؤ بالمستقبل أمر لا شك فيه. بالإضافة إلى ذلك فقد أكد علماء ومخترعون أنّهم ما كان من الممكن أن ينجزوا ما أنجزوه بغير إرشادات حصلوا عليها من أحلامهم المنامية. على رأس هؤلاء عالم الفيزياء المشهور آينشتاين الذي استنبط نظرية النسبية من حلم رآه في شبابه عن أبقار تهرب من أسلاكٍ مكهربةٍ، كما رأى واطسن الحاصل على جائزة نوبل لعام ١٩٦٢م لاكتشافه للشكل الحلزوني لكيمياء الحمض

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (توفي ٣١٠هـ). **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار المعارف، ج٢، ص٥٣٣.

النووي DNA، لأنه رأى هذا الشكل للحمض النووي في حلمه. أمّا هاو مخترع ماكينة الخياطة فقد استنبط شكل الماكينة من حلمه.

كذلك لا يجد العلمانيّون تفسيراً ماديّاً لظاهرة تحريك الأشياء عن بعد Psychokinesis التي أوتيت لبعض الناس ولا ظاهرة جلاء الإحساس عند المحتضرين، أو أولئك الذين مرضوا مرضاً اقتربوا فيه من الموت ثمّ عادوا للحياة near death phenomenon. ومن أشهرها ما حدث لامرأة ولدت عمياء ثم مرضت بعد البلوغ بمرض فقدت فيه الوعي ويئس طبيبها من إنقاذها، بعد أن قام بالتعاون مع مساعديه بشتى المحاولات، لكنها عادت للحياة ووصفت ما قام به الطبيب وما تحدث به مع معاونيه بتفصيلٍ دقيق رغم فقدانها للوعي في ذلك الوقت، كما تحدثت بتأثر وانفعال عن وصفها لنفسها وهي على فراش الموت وعن أسرتها والعالم من حولهم؛ إذ رأت ذلك لأول مرة في حياتها في فترة شدة المرض، فلما رجعت للحياة رجعت عمياء كما كانت.

وربما كانت ظاهرة التحدث بلغة لم يكن الشخص قد تعلمها قبل أن يصاب في حادث سبب له ارتجاجاً في الدماغ، هي من أغرب حادثات هذا الفرع النفسي. فقد أثبت العلماء بالتسجيل الصوتي والتصوير أن بعض من تعرضوا لمثل هذه الحوادث وجدوا أنفسهم يتحدثون بلغة لم يعرفوها إلّا من بعد ما أخبرهم المتحدثون بها على أنها لغة بلد معيّن أو أنّهم يتحدثون لغتهم بلهجة بلد آخر. وقد وجد الدارسون حالات لهذه الظاهرة في كثير من الأقطار في أوروبا وأمريكا وكوريا وبعض بلاد جنوب شرق آسيا. ومن أكثر هذه الأحداث إقناعاً تلك التي حدثت لامرأة أمريكية لم تغادر بلدتها الصغيرة طوال حياتها فوجدت نفسها بعد الحادث تتكلم اللغة الروسية بطلاقة. وأطلق العلماء على هذه الظاهرة مصطلح متلازمة التحدث بلغة أجنبية Foreign Accent Syndrome. ولكن إطلاق مصطلح معين على ظاهرة فشل علم النفس في التعرف عليها من منظوره المادي لا يعني أنّ المشكلة قد حُلّت!

إنّ تاريخنا الإسلامي يزخر بهذه الخبرات التي لا تخضع للتفسير المادي والتي يؤكدها الوحي الإلهي وأحاديث رسولنا ﷺ، لكننا أردنا بالتركيز على ما سجلته أيادي غربية لكي يشهد عليهم شاهد من أهلهم. فعلى الباحث المسلم أن يفرق بين هذه الظواهر التي قد

تحدث للمسلم وغير المسلم؛ إذ إنها تأتي من روحانية البشر ونفخة الروح الإلهية فيهم، أو من اتصالاتهم بعوالم روحية لا ندري كنهها، وبين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء. ولي في هذا الفرع من علم النفس أبحاث ميدانية، أجريتها لمنظمة الصحة العالمية في إثيوبيا والسودان في إطار العلاج النفسي التقليدي، أثبتت لي بشكل واضح أننا لا نعيش وحدنا في هذا العالم. إنها خبرات لا يصدقها العقل الذي حبس نفسه في سجن التصور المادي للكون.

هذه الأبحاث تؤكد لنا ما كنّا قد آمنّا به من قبل عن نفخة الروح في طينتنا. فهذا المكوّن الروحي هو الذي يتحكم في أدمغتنا وفي أفكارنا وعواطفنا، وهو الذي يمنح الإنسان الوعي بنفسه. ولسنا هنا في ساحة جدال حول ماهية هذه اللطيفة الروحية التي تتحكم في كل نشاطاتنا الجسمية والنفسية والاجتماعية والعاطفية والروحية، وهي التي أطلق عليها القرآن الكريم اصطلاح "القلب" وتعارف الناس على تسميتها "بالعقل" الذي يمثل أهم وظائفها؛ إذ إنّ مثل هذا النقاش قد يبعدنا عن التركيز على مقاصد بحثنا. لذلك عندما نتحدث عن العقل Mind فإنما نستخدم اصطلاحاً استخدمه علماء النفس لكي نخاطبهم بلغتهم، لكننا نؤمن بالمصطلحات الدينية كالقلب.

بعد اقتناعنا بأنّ الدماغ ليس هو اللاعب الوحيد في تشكيل سلوكنا ونشاطنا الجسمي والنفسي والانفعالي، بل هو خادم مطيع لهذا العقل أو القلب الروحي، بقي علينا أن نوضح الكيفية التي يستخدمها هذا الدماغ وجهازه العصبي في صياغة ما يمليه عليه العقل من الأنشطة بشكل عام، والجوانب الانفعالية بشكل خاص. فبالرغم من أنّ الدماغ بجهازه العصبي كائن مادي يمكننا مشاهدة بعض نشاطه، إلا أنّه كما سنفصّل فيما بعد هو من أكثر خلق الله تعقيداً.

الإعجاز في خلق الدماغ وجهازه العصبي

ليس في مثل هذا الكتاب مجالٌ لتفصيل الحديث عن فسيولوجية الجهاز العصبي والهرموني ولا نشاطهما عند الانفعال، لكننا نقدم بعض المعلومات العامة المختصرة لكي يتفكّر القارئ غير المتخصص في عظمة خلق الله في دماغ الإنسان وأعصابه، وفي نشاط جهازه الهرموني. فمما يدعو إلى التفكر حقاً هذا الإعجاز المحيّر في خلق الله لدماغ الإنسان؛ إذ يُجمع علماء تشريح

الجهاز العصبي ووظائفه أن أكثر الأشياء غموضاً في كون الله الواسع ليس هو بكوكبٍ أو نجمٍ يبعد عنا آلاف السنين الضوئية، ولا تلك الفيروسات التي فشل العلم في شفاء المرضى منها، ولكن أكثر المخلوقات غموضاً وتعقيداً في الكون هو هذا الكائن الصغير الذي لا يزيد وزنه على ثلاثة أرطال، والذي يحمله كلٌ منّا في مكانٍ حصين داخل جمجمته.

يقول ديفيد إيجلمان[1] David Eagleman في كتابه عن "أسرار الدماغ" الذي أضحى من أكثر الكتب مبيعاً في عام ٢٠١٢م، إنّ الدماغ البشري هو أكثر الكائنات تعقيداً؛ إذ إنّ خلاياه العصبية التي يفوق عددها مئات البلايين تتصل ببعضها البعض بطريقة معجزة، قد تصل عدد ارتباطاتها العصبية في مليمتر واحد من النسيج الدماغي إلى عدد النجوم في مجرتنا درب التبّانة التي تحتوي على مئات البلايين من النجوم.

فنقول بالرغم من صغر حجم الدماغ فإنّه يقوم بالإشراف والتنفيذ لكل نشاطات الإنسان العضوية والنفسية والاجتماعية والعاطفية والروحية ومن تنظيمٍ لحركة الجسم وإدراك بالسمع والبصر، ومن فكر وتفكرٍ وتخيّلٍ وقدرةٍ على حلّ المشاكل، وتخزينٍ مذهلٍ للمعلومات في ذاكرةٍ، فشل العلم الحديث في معرفة كنهها، ومن تذوقٍ للجمال وانفعالٍ بالحب والخوف والغضب والسرور وجميع العواطف الإنسانية الأخرى... باختصار كل ما يشعر به الإنسان أو يقوم به في دنياه. ورغم صغر حجمه الذي لا يتجاوز ٢٪ من حجم الإنسان، إلا أنه ولأهمية الدور الذي يقوم به تحت إشراف العقل يحتاج إلى طاقة كبيرة، فهو يستهلك حوالي ٢٠٪ من سكر الجلوكوز والأوكسجين الذي يستخدمه الجسم كله. ولا تكفُّ الخلايا العصبية عن النشاط ليلاً أو نهاراً خلال يقظة المرء أو نومه.

ورغم اعتقادنا بسيطرة العقل على نشاط الدماغ، خصوصاً بالنسبة لتلك الأنشطة التي تعتمد على وعي الإنسان وحريّته في اتخاذ القرارات الخيّرة أو الشرّيرة، فإننا فيما سيأتي سنركز حديثنا عن أنشطة الدماغ المادية.

(1) Eagleman,David.(2012). *Incognito: The secret lives of the brain*. Amazon.com.
(التخفي: الحياة السرية للدماغ)

فقد حاول العلماء بعد ثورة الحاسبات الإلكترونية أن يسبروا غور نشاط الدماغ الإنساني من خلال عمل الكومبيوتر، وفي ذلك ينقل لنا ديفيد أوتوسون[1] David Ottoson، أحد مشاهير دراسة الجهاز العصبي والحواسب الإلكترونية، بأنّه يستحيل على علماء الأعصاب في حاضرهم أو مستقبلهم أن يسبروا أسرار الدماغ البشري بشكل دقيق، لأنّ الدماغ البشري لا يمكنه معرفة نفسه! كما أنّه من غير الممكن لعلماء الإلكترونيات، لا في الحاضر ولا في المستقبل، أن يصنعوا حاسبة تضاهي في مستواها دماغ الإنسان، ذلك لأنّ كفاءة الدماغ البشري تحتاج إلى مليون كمبيوتر متطور تعمل في وقت واحد، وتستهلك في عملها هذا من الكهرباء ما يقارب مئة ألف أمبير، في حين يقوم الدماغ البشري بمهمته المعجزة بعُشْر أمبير واحد! فإذا كان العلم قد وقف مشدوهاً أمام الدماغ، فكيف به إذا كان الاستفسار عن العقل أو القلب ذي القوة الروحية التي تتحكم في هذا الدماغ المعجز؟ هنا تقف البشرية أمام سر قد أحكم إغلاق أبوابه... ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فنحن لا نعرف كيف تتفاعل هذه اللطيفة الروحية مع الدماغ، ولا ندري إن كان للقلب دور في هذا التفاعل المعجز، لكننا نقرأ كل يوم عن اكتشافات جديدة تُنبئنا عن هذا الإعجاز الذي لا تنقضي عجائبه. فأبحاث نقل الأعضاء تؤكد لنا بأنّ القلب الإنساني ليس فقط مضخة للدم، بل له جهازه العصبي وذاكرته الخاصة به، وأنّ له وظيفة خاصة بالنسبة للسلوك العاطفي. لذلك، فإنّ المريض الذي ينقل إليه قلب شخصٍ آخر، تتأثر انفعالاته بصاحب القلب المُتبرِّع. فإن حَجَب الله علينا العلم بحقيقة اللطيفة الروحية التي تتحكم في وعينا وعاطفتنا عن طريق استخدامها لأدمغتنا، إلا أنّه تعالى قد أباح لنا البحث للتعرف على أسرار أدمغتنا التي لا تفنى غرائبها. فلنتحدث عن هذه الغرائب بالنسبة لموضوعنا عن العواطف.

يتلقّى الدماغ إذن ملايين بل بلايين الإشارات والنبضات العصبية من مختلف أعضاء الجسم ومن الحواس ومن البيئة المحيطة بالإنسان، ومن داخل مخيلته وذاكرته. يقوم الدماغ المعجز بفهم مقصودها وينظّمها ويصدر أمره النافذ بالتعليمات التي تحفظ للجسم صحته وتوازنه البيوكيميائي بالتحكّم في أجهزته المختلفة، كجهازه الهضمي والتنفسي ودورة دمه

(1) Ottoson, David. *Challenges and Perspectives in Neuroscience*, Pergamon Pr; 1st edition, 1995.(التحديات ووجهات النظر في علم الأعصاب)

وسرعة ضربات قلبه وجهاز إخراج فضلاته. ثمّ تلك الجوانب المتعلقة بحلّ المشكلات، وبالتفكير المنطقي المتأني الذي ينظر في خبرات ما مضىٰ، ويسبح بخياله فيما يمكن أن يحدث في مستقبله، أو تلك التي تحتاج إلىٰ استجابات انفعاليةٍ سريعةٍ وقراراتٍ حاسمةٍ لمجابهة الأخطار وصدّ العدوان أو الهروب، أو استثارة عواطف الحب وصياغتها بجميل القول والشعر الطروب.

لا بدّ لهذه النشاطات المتعددة الأوجه من قائدٍ حكيم ورئيسٍ عليم. ولا بدّ لمكوّنات الجهاز العصبي من توزيع للمسؤوليّات والتخصصات تحت إمرة هذا الرئيس القائد. فيقول علماء الغرب بأنّ المخ cerebrum الذي يغطي ٧٠٪ من مساحة الدماغ هو المنظم الأساسي لجميع هذه الأنشطة؛ إذ يقوم بقشرته ذات التجاعيد والتلافيف الكثيرة Cortex أو ما يسمىٰ بالمادة السنجابية Gray matter بالتحكّم علىٰ سائر وظائف الدماغ. فمن وجهة نظر الدراسات الظاهرية هو الرئيس المنفذ لنشاط الجهاز العصبي والهرموني، وكلمته هي النافذة لكل نشاط الإنسان الجسمي والعقلي، فهو عند الانفعال يعمل وكأنّه القائد العسكري في غرفة العمليّات الذي تأتيه المعلومات من جميع وحدات الجيش، ثم يصدر أوامره بناءً علىٰ ذلك، فيأمر العضلات بالحركة أو الغدد لتفرز موادها الكيميائية، أو الأجزاء الأخرىٰ المسؤولة عن شتىٰ الأنشطة المختلفة لتقوم بعملها الفوري. ومن ناحية أخرىٰ يعمل وكأنه أستاذ قدير في جامعة فيمنحنا القدرة علىٰ القراءة والكتابة والتفكير الخلّاق وحلّ المشكلات. فهذا التوزيع للاختصاصات داخل الدماغ والجهاز العصبي، والتنسيق المحكم فيما بينها، لَأَمرٌ تخضع له الأعناق حقّاً ويدعو كل ذي حِجْرٍ إلىٰ التأمل في قول الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان: ١١].

فقد كشفت لنا الدراسات التي أجريت في العقدين الماضيين طرفاً من هذا الإعجاز، الذي كان قد حيّر البشرية منذ أن بدأ الإنسان تساؤلاته عن عمل دماغه. ذلك بأنّ العلماء قد استطاعوا أن يشاهدوا بأمّ أعينهم، ولأول مرةٍ في تاريخ البشرية، ما يحدث لخلايا الدماغ أثناء نشاطها عند التفكير والتعلم أو التخيل، أثناء وعي المرء أو في أحلامه المناميّة أو عند استرخائه وانفعاله بالعواطف المتعددة، كما كشفت هذه الأبحاث التوزيع الدقيق لمختلف مكونات الدماغ لهذه الأنشطة الجسمية والعقلية والانفعالية والفنية.

فقد توصل الباحثون لهذه الاكتشافات المدهشة عن طريق تقنيّات المسح الدماغي، أو التخطيط المقطعي الطَبَقي كالتصوير بالرنين المغناطيسي (MRI) والتصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (FMRI)، الذي يمعن النظر في أدمغة الأفراد وهم على قيد الحياة. ومن أروع الدراسات الحديثة تلك التي استخْدم فيها باحث في جامعة أيوا Iowa الأمريكية الرنين المغناطيسي ليتعرف على الأماكن المحددة في الدماغ للانفعالات المختلفة، ولرؤية التغيرات التي تحدث في أدمغة مرضى الاكتئاب عند تناولهم للعقارات المضادة لهذا المرض النفسي أثناء تحسن حالتهم.(١)

يهمّنا في هذا البحث أن نسجل بأنّ الدراسات الظاهرية التي تقوم على الملاحظة المادية، تؤكد بأنّه في هذه القشرة السنجابية تتم أهمّ الوظائف العقلية والمعرفية العليا، التي صرنا بها بشراً استخلفه الله تعالى في الأرض، ومقرّ هذه الوظائف العليا بالتحديد هو القشرة الأمامية الجبهية التي تقع خلف الجبهة Prefrontal cortex، ففيها تتم معالجة المعلومات الآتية من البيئة الحياتية الآنية ومن خبرات الفرد السابقة، وفيها تتجلّى قدرة الإنسان على التفكير المنطقي المُتأني، فيقارن بين الاختيارات ويتخذ القرارات الخيرة أو الشريرة. لذلك قال بعض مفسري القرآن المحدثين بأنّ وصف الله تعالى لناصية أبي جهل بأنّها ناصية كاذبة خاطئة فيه إعجاز علمي واضح، لأنّ الفص الجبهي للمخ يقع خلف الجبهة، وهو ما عبّر عنه القرآن بالناصية، وفي ذلك يقول الدكتور كيث مور Keith Moore أستاذ التشريح في جامعة تورونتو الكندية أنّ الدليل على هذا الإعجاز القرآني هو جهل الأطباء بوظيفة الفص الجبهي للمخ حتى عام ١٨٤٢م، عندما أصيب عامل بالسكك الحديدية الأمريكية بقضيب حديدي اخترق جبهته فأثر على قدراته العقلية واتخاذه للقرارات وغيّر معالم شخصيته، ولكنه لم يحدث أضراراً بوظائف جسمه الأخرى وسلوكه الفطري.(٢)

ويهمنا أن نعرف أنّ من هذه القشرة الدماغية تُبْعَث الرسائل الطارئة المستعجلة، في جزءٍ قليلٍ من الثانية، للأماكن المسؤولة عن الاستجابات العاطفية الانفعالية، لتحفز الجسم بتدفق هرمون الأدرينالين من الغدتين الكظريتين Adrenal glands ومكانها فوق الكليتين.

---

(1) Driscoll, David Matthew. *"The effects of prefrontal cortex damage on the regulation of emotion."* University of Iowa, 2009. vii, p101.

(ديفيد دريسكول: آثار ضرر قشرة الفص الجبهي على تنظيم العاطفة)

(2) http://neurophilosophy.wordpress.com/2006/12/04/the-incredible-case-of-phineas-gage/

وما أن تفرز هاتان الغدتان الأدرينالين أو النورأدرينالين Noradrenalin حتىٰ تُعلن حالة الطوارئ الانفعالية في الجسم، لمجابهة الطارئ الذي أخاف الشخص أو أغضبه أو أثار فيه عاطفةً أخرىٰ تهدد كيانه، أو تستثير فيه ما كان مكتوماً من غرائزه الطبيعية، فيتدفق سكر الجلوكوز في الدم من مخزونه في الكبد، وتزداد نسبة الأوكسجين بزيادة سرعة التنفس واتساع حجم شعب الرئتين، ذلك للحاجة الماسّة للطاقة عند الانفعال العاطفي.

وتأتي هذه الطاقة من التفاعل الكيميائي الداخلي للأكسجين مع سكر الجلوكوز أو ما يسمىٰ بالتنفس الداخلي Internal respiration، حيث تتفجر الطاقة المخزونة في السكر من هذا التفاعل الكيميائي الذي يحتاج بعده المُنْفَعِل إلىٰ التخلص من ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء بعملية التنفس المتسارعة. كذلك تتسع حدقة العين ليكون البصر أكثر حدّةً، ويقوىٰ السمع، وتزداد ضربات القلب وكمية الدم التي تنبعث من ضرباته، ويكون تركيز الطاقة علىٰ عضلات الجسم والدماغ، وتتوقف العمليات الجسمية العادية التي ليست لها صلة بالحالات الطارئة المؤدية للانفعال، كعملية هضم الطعام، كما يتم إفراز مواد كيميائية لتزيد من سرعة تجلط الدم استعداداً لتلافي شدة النزيف إذا جـُرح الشخص أثناء القتال، باختصار يصبح الإنسان المُنْفَعِل علىٰ درجةٍ عاليةٍ من التأهب للقتال أو الهروب أو الإثارة العاطفية ذات الأشكال الأخرىٰ.

وتتمّ هذه التغييرات اللاإرادية الفجائية بسيطرة الجهاز العصبي المستقل Autonomic Nervous system وبالتحديد بفرعه السمبتاوي Sympathetic branch. فهذا الفرع من الجهاز المستقل هو المسؤول عن إدارة العمليات أثناء حالة الطوارئ. وتتوقف عند الانفعال بالعواطف الطارئة عملياتُ هضم الطعام؛ لأنّ المرء في تلك الحالة العصيبة ليس في حاجةٍ إلىٰ مثل هذه العمليّات العضوية "الاسترخائية". وعند زوال هذه الحالة الطارئة يقوم الفرع المقابل للجهاز العصبي السمبتاوي المعروف بالباراسمبتاوي Parasympathetic بإعادة الجسم إلىٰ سيرته الأولىٰ. وبتفاعل هذين الجهازين المتضادين في عملهما، يقوم الجهاز العصبي المستقل بحفظ التوازن الكيميائي والنفسي في الجسم. فكما ينشط الجهاز السمبتاوي عند الانفعال بالخوف والغضب، ينشط الجهاز العصبي الباراسمبتاوي المضاد عندما يستولي الفرح والسكينة والدافع الجنسي علىٰ الإنسان.

عندما يستولي الانفعال على الفرد تأتي هذه التغيرات قسراً ومن دون إرادةٍ مسبقةٍ منه. ولكنه يشعر بنشاطها رغم عدم قدرته على التحكم فيها. فيشعر بازدياد سرعة ضربات القلب وتصبب العرق والارتجاف، عندما يتعرض لمثيرات انفعالية كالخوف والقلق والغضب، أو حتى عندما يلتقي العاشق بمعشوقته. وهذه الاستجابات الانفعالية التي يحس بها الفرد، ولكنه لا يستطيع إيقافها، هي التي يستخدمها العلماء في أجهزة الكشف عن الكذب. فعندما يقدم النفساني بعض المعلومات عن جريمة معيّنة، ضمن معلومات أخرى لا صلة مباشرة لها بالجريمة، تتسارع ضربات قلب المتهم وعمق تنفسه، ويزداد العرق في كفيه لاضطرابه الانفعالي كلما ذكرت هذه المعلومات الدقيقة عن الجريمة التي ارتكبت بالمقارنة، لاستجاباته عندما يستمع للمعلومات التي ليست لها صلة بالجريمة، عند ذلك يستنتج النفساني أنّ ذلك المتهم هو الذي ارتكب الجريمة، أو أنّه على علمٍ تامٍّ بما حدث. فجهاز الكشف عن الكذب ما هو في الحقيقة إلّا مقياس إلكتروني دقيق للتعرف على شدة الانفعال.

إذن فجهاز الإنسان العصبي يُمَكّن من القيام بشتى النشاطات المختلفة، فهناك الأعمال الإرادية التي يقوم بها بمحض اختياره ووعيه، فيتحمل بذلك مسؤولية هذا الاختيار، إنْ خيراً فخير وإن شرّاً فشر، وهي النشاطات التي تتم عن طريق قشرة الدماغ الأمامية الجبهية، وهناك استجابات لاإرادية تتم عند الانفعال كالتي ذكرناها، وهناك طائفة ثالثة لاإرادية وتتم بلا وعي من الإنسان، ولا تأتي بسبب الانفعال ولكنّها قد تتأثر به.

تلك هي النشاطات الداخلية للألياف العصبية التي تتحكم في النشاط العضوي الداخلي كهضم الطعام وعمل الكليتين. ومن رحمة الله تعالى على الإنسان أنّه تكفل بهذا النشاط العصبي اللاإرادي ولم يجعله تحت مسؤولية الإنسان، ولو فعل ذلك لكنّا نسمع أنّ فلاناً مات لأنّه نسي قبل النوم أن يضبط سرعة ضربات قلبه، أو أنه أصيب بالتسمم لأنّه نسي أن يفتح مزلاج كليتيه.

وكنت أشبّه لطلابي بين هذين الجانبين لنشاط الجهاز العصبي بأعمال الإنسان التي تتم بإذنٍ من الله، ولكن بكامل اختياره، فيحاسبه الله عليها وتلك التي قدّرها الله له دون اختياره. فقد يختار الفرد أن يعبد الله ويساعد المحتاجين فيؤجر، أو يختار الفسق وعمل الفواحش

فيعاقب. لكنّ البلدة التي يولد فيها، وتكوينه البدني، وأبواه، فأمور قدّرها الله له دون اختياره. وبما أننا نحمد الله كثيراً في هذه الدنيا لأنّه أراحنا من مسؤولية النشاط الداخلي لأجسامنا، فجعلها تعمل على الوجه الأكمل دون تدخلنا ووعينا، فسوف نَتَعرّف على رحمته بنا لما اختاره لنا بالنسبة لهذه الأمور التي قدرها لنا يوم نبعث في الآخرة، ولله الحجة البالغة.

ومن الاكتشافات الحديثة التي غيّرت كثيراً من مفاهيم العلماء لبيولوجية الانفعالات والعواطف تلك التي أزاحت الستار عن الدور الأساسي لِلَوْزة الدماغ Amygdala وقرين آمون أو ما يسمّى بالحصيْن Hippocampus في إحساس الإنسان بالانفعالات واستجاباته لها وتسجيل أحداثها في ذاكرتها. فقد توصّل علماء الجهاز العصبي أن لوزة الدماغ، رغم صغر حجمها ومكانها "المحشور" في أسفل الدماغ، هي ذات الشأن الأكبر في استثارة العواطف الانفعالية، وتخزين خبراتها في ذاكرتها القوية. فقد وجد المتخصصون أنّ استثارة لوزة الدماغ في الحيوان تأتي باستجابةٍ قتاليةٍ عنيفة، فتقوم القطط الأليفة بمهاجمة القطط الأخرى، وحتى مهاجمة صاحبها الذي يطعمها، والتي كانت تتمسح ببدنه إظهاراً لعاطفتها نحوه. أمّا إذا اجتثت جراحياً من دماغ الحيوان فإنّه يفقد قدرته على ردّ العدوان، بل يفقد الحيوان أيضاً إحساسه بالخوف والرغبة الجنسية. كما أثبتت العمليات الجراحية التي أجريت على البشر واستؤصلت من دماغهم اللوزة لأسباب طبية، أنّ مثل هؤلاء الأشخاص يتوقف لديهم الاهتمام بالآخرين من الأهل والأصدقاء، وقد يفقدون القدرة على التعرف عليهم، ويفضلون الوحدة والتبلّد رغم قدراتهم العقلية على التفكير.

أمّا قَرِين آمون المجاور للوزة الدماغ، فله دور مهم في تثبيت خبرات الذاكرة القريبة؛ أي تذكّرما تفكر به أو تفعله الآن short-term memory، بنقله إلى الذاكرة البعيدة أو الدائمة Long-term memory. فذاكرتنا الدائمة هي التي تُعرّفنا بأنفسنا وبأهلنا وموطننا وكل عزيزٍ ومهمٍ لدينا، والتي من دونها لا تستقيم حياتنا. فإذا أصيب الإنسان بتلفٍ في قرين آمون أو استؤصِلَ من دماغه، فإنّه يفقد القدرة على اكتساب معارف جديدة، فكل خبرةٍ جديدة لا تلبث أن تزول سريعاً من الذاكرة، فإذا تعرّف على شخصٍ لم يعرفه من قبل، وتركه ذلك الشخص للحظةٍ قليلة ثم رجع إليه، تلقّاه وكأنّه يراه للمرة الأولى في حياته.

فوظيفة القرين هي التسجيل الدقيق للخبرات وتثبيتها في الذاكرة البعيدة إذا دعىٰ الأمر أمّا لوزة الدماغ فهي التي تعطي لهذه الخبرات فحواها العاطفي والانفعالي. فإذا رأيت أسداً يتبختر قام القرين بتسجيل ذلك بكل تفاصيله، لكنّ لوزة الدماغ هي التي تقرر إن كان هذا الأسد داخل قفصه في حديقة الحيوانات فتشعر بالأمن، أم أنّه في فناء منزلكم فيتملكك الفزع وتولّي الأدبار.

وقد كان علماء دراسة الجهاز العصبي يعتقدون إلىٰ وقتٍ قريب، بأنّ الخبرات ذات الطابع الانفعالي، تُرْسَل من الحواس إلىٰ قشرة الدماغ عن طريق المهاد Thalamus، ومن ثمّ إلىٰ اللوزة وغيرها من الأجزاء المسؤولة عن الجوانب الانفعالية في الإنسان، لكي تقوم بالنشاط المطلوب في مواجهة ما استثاره، لكنّ الأبحاث الحديثة أظهرت بأنّه إذا واجه الشخص جرعةً عاليةً من موقفٍ عاطفي انفعالي وبشكلٍ فجائي، فإنّ لوزة الدماغ تقوم بمفردها باستثارة الغدد الكظرية وما يصاحبها من تحضير الجسم للاستجابة السريعة في جزءٍ قليل من الثانية الواحدة، وهذا الوقت أقلّ من الرحلة المعتادة إلىٰ قشرة الدماغ ورجوعها إلىٰ اللوزة.

وهذا الأمر ذو فائدةٍ عظيمة لردود الفعل الغريزية الموروثة، كخوف القطة من الكلب والفأر من القط والإنسان من الثعابين[1] والزلازل. ففي هذه الحالات قد تأتي استجابة الشخص سريعة قبل أن يرتد إليه طرفه. ولعلّ هذه هي الحالات النادرة التي يستجيب لها الجسم بمجرد إحساسه المعرفي بالمثير الانفعالي قبل اكتمال الصورة المعرفية، وكأنّ الأمر يشير إلىٰ الحالات الطارئة التي تشابه نظرية جيمس آنفة الذكر. فيخبرنا القرآن الكريم أنّ الله تعالىٰ حمىٰ أهل الكهف من الناس لأكثر من ثلاثمئة عام بإلقاء الفزع المفاجئ في قلوبهم إذا نظروا إليهم، ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨].

لكنّ هذه العجلة دون تفكيرٍ في العواقب قد يندم عليها الشخص فيما بعد، أو يشعر بالخجل من حدة انفعاله، فقد يستحي من انفجاره بغضبةٍ مضريةٍ أو إطلاق ساقيْه إلىٰ الريح ممّا أخافه أمام معارفه، أو الانفجار بالضحك من صديقٍ سقط من حصانه. وقد يتعجّب الإنسان بعد هنيهة من هذا التسرّع العاطفي. ومن أطرف ما ذُكِر في هذا المضمار أنّ رجلاً

(١) اعتقد بعض العلماء أنّ خوف البشر من الثعابين هو خوف فطري موروث. انظر علىٰ سبيل المثال المصدر الآتي:
(هربرت بنسون: الشفاء الأبدي) Benson, H. (1996).Timeless Healing. London:Simon & and Schuster.

رأى طفلاً صغيراً يسقط في بركة سباحة، فألقى بنفسه في اليمّ بكامل ملابسه لينقذه ثمّ تذكر بعد ذلك بأنّه لا يجيد السباحة، واحتاج إلى من ينقذه والطفل الصغير! كما اتضح للباحثين أنّ الألياف العصبية المُتجهة من الحواس لقشرة الدماغ، لها فرع يذهب مباشرةً إلى لوزة الدماغ، ليقوم بهذه الاستجابات السريعة للأحداث الانفعالية، لكن الفرع الرئيس يذهب إلى قشرة الدماغ. وبناء على ما سبق فإن لوزة الدماغ تؤدي دور المهمات العاجلة؛ إذ تقوم بإعلان حالة الطوارئ في الجسم، وتحسم المواقف العاجلة قبل أن تنتقل المعلومات إلى رئيس الجهاز العصبي، أي القشرة الأمامية الجبهة من الدماغ Prefrontal cortex ليفتي بما يراه. أمّا المسائل العاطفية العادية فإنّها تُرْسل إلى قشرة الدماغ لتُدرس الأمور على مهل. لهذا الموضوع صلةٌ مهمة باستجابات الأنبياء العاطفية البشرية والروحية ننقاشها في الفصل القادم.

كتبنا هذا الفصل والفصل الذي سبقه لنخاطب بهما طلاب علم النفس وبسّطناهما ليستفيد منهما القارئ غير المتخصص؛ لأننا سوف نشير إلى بعض ما ورد فيهما في فصولنا القادمة، فنعتذر للنفسانيين المتخصصين من حرصنا على تبسيط ما يعلمونه من أمورٍ أكثر عمقاً وتعقيداً، ونعتذر للقارئ غير المتخصص إن وجد صعوبةً في متابعة بعض ما فصلناه. من بعد هذين الفصلين سوف تنساب تأملاتنا عن السلوك العاطفي والروحي للأنبياء وحكمة الله في اصطناعهم في الفصول الأربعة المتبقية، فإلى الفصل الثالث.

الفصل الثالث

هل يَكْمُل إيمان المسلم بالاكتفاء بعبادة الله بالجانب المعرفي للإسلام من دون أن يتعبّده بعاطفته؟

حاولنا في الفصل السابق تقديم معلوماتٍ عامة عن الانفعال، وعواطفه في الدراسات النفسية والعصبية الحديثة ذات الأصول المادية العلمانية، مقارنة بالتصور الإسلامي، ونخصص هذا الفصل للحديث عن أهمية الناحية العاطفية في تكميل الإيمان وتعميق الصلة بالله؛ إذ من دون العاطفة قد يذبل الإيمان ويضعف. فالجانب الانفعالي العاطفي هو ثالث ثلاثة محاور، رابعها المحور الروحي الذي أنكر وجوده أو أهمله علم النفس المادي الحديث، واكتفى بالمحاور الثلاثة الأخرى.

أول هذه المحاورالجانب المعرفي Cognitive الذي يسعى الإنسان فيه لاكتساب معلومات جديدة قد تغيّر من نظرته لنفسه وللبيئة من حوله، ولربما تبدل معتقداته. وثانيها الجانب السلوكي Behavioral أو العملي الذي يقوم به الشخص من أفعال انبثقت مما اكتسبه من معلومات، وثالثها الجانب الانفعالي أو العاطفي Emotional كإحساسه بالفرح والحبور لقيامه بهذا النشاط العملي. فعلم النفس يؤكد بأنّ جميع الأنشطة النفسية والنفسجسمية للإنسان لا تدور ولا تكرر نفسها إلّا حول هذه المحاورالثلاثة والتأثير المتبادل فيما بينها.

فالترتيب المنطقي لهذه العوامل يبدأ بالناحية المعرفية، ثم السلوكية العملية، ثم الانفعالية العاطفية، لكن في حقيقة الأمر قد تتداخل هذه العوامل مع بعضها البعض، ويختلف ترتيبها بحيث يصعب التفريق بينها. فقد يأتي العامل المعرفي منذ البداية مصحوباً بدفعة عاطفية قوية قد تفرض نفسها على فكر الإنسان ووعيه، فتؤجل أو تقوّي من النشاط السلوكي العملي. أو قد تكون البداية بالعامل السلوكي العملي، كأن يجد الشخص نفسه في ظروف تجبره على القيام بأعمال ونشاطات معينة لم تخطر على باله من قبل، فتكسبه معرفة جديدة تكشف له عمّا خَفِيَ عليه من قدراته وميوله، فتبدل نظرته إلى نفسه وبيئته وإحساسه العاطفي نحو هذا النشاط. هذا تلخيص مختصر لهذه العوامل في علم النفس الحديث، فإلى تصورنا الإسلامي لهذه الأنشطة والتفاعل فيما بينها.

أبدأ بالحديث الشريف المشهور الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس إلىٰ النبي ﷺ، فأسند ركبته إلىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخذيه، وقال: "يا محمد أخبرني عن الإسلام"، فقال له: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً"، قال: "صدقت"، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: "أخبرني عن الإيمان" قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"، قال: "صدقت" قال: "فأخبرني عن الإحسان"، قال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك". ثم قال رسول الله ﷺ: "يا عمر، أتدري من السائل؟" قلت: "الله ورسوله أعلم"، قال: "فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم."[1] وفي متنٍ آخر لمسلم عن أبي هريرة بدأ جبريل بسؤال النبي ﷺ عن الإيمان، ثمّ تلاه بسؤال عن الإسلام، ثمّ الإحسان.

إذن من الواضح من هذه الأحاديث أنّ الإيمان بالله وبرسوله ﷺ وبالملائكة والرسل واليوم الآخر هو بمثابة الأساس المعرفي الإيماني الصلب، الذي يقوم عليه البناء العملي من العبادات الإسلامية كالصلاة والصوم والحج. أمّا العامل الثالث الذي يركز عليه الحديث فيمثله الإحساس العاطفي بأنّ الله تعالىٰ بذاته العلية مطّلع علىٰ العبد وهو مستغرق في عبادته له، فتسيطر عليه حالة تختلط فيها العاطفة مع الاستغراق الروحي. وهذا يدل علىٰ أنّ الله تعالىٰ لم يتعبدنا فقط بالمعرفة والإيمان العقلي وبالعبادات المفروضة فحسب، بل تعبّدنا أيضاً بالجانب الانفعالي العاطفي المستخلص من الإيمان. لذلك قلنا بأنّه للتصور النفسي للمنظور الإسلامي أربعة عناصر هي: المعرفي والسلوكي والعاطفي والروحي.

ويهمنا هنا أن نعيد التأكيد علىٰ أهمية هذا الجانب العاطفي الإسلامي؛ إذ من دونه قد يضعف الإيمان أو حتىٰ قد ينمحي. فمن الأمثلة الواضحة المعبّرة علىٰ ذلك أنّ إيمان المسلم لا

---

(١) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (توفي٢٦١هـ). **صحيح مسلم**، اعتنىٰ به أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٨م، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالىٰ، حديث رقم (٨)، ص٣٦.

يكتمل إلا بعاطفة الحب للرسول ﷺ، حباً يفوق حبّه لنفسه وولده والناس أجمعين. فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين."[١]

وجاء في صحيح البخاري أنّ عمر بن الخطاب بصراحته المعهودة قال للنبي ﷺ: "لأنت يا رسول الله أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي"، فقال النبي ﷺ: "لا والذي نفسي بيده، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك"، فقال له عمر: "فإنك الآن والله أحبّ إليَّ من نفسي"، فقال: رسول الله ﷺ: "الآن يا عمر."[٢]

لذلك نقل لنا الثقات من كُتّاب السيرة أروع الأمثلة لهذا الحب الذي لا مثيل له في حياة الناس. فهذا أبو بكر الصديق يفدي رسول الله ﷺ بنفسه، فيدخل غار ثور قبله، لينظر إن كان فيه حيوان مفترس أو حيات سامّة. تأكد له أنّ الغار آمن، لكنّ حية لم يقض عليها لدغته ورسول الله نائم في حجره فتحَمّل ألم اللدغ لكي لا يوقظ الرسول حتىٰ اشتد به الألم فسقطت دموعه علىٰ وجه النبي فأيقظته.[٣] وذاك سواد بن غزية طعنه رسول الله ﷺ بقدحٍ أو خشبة في بطنه وهو يسوي الصفوف لملاقاة العدو في واقعة أحد قائلاً له: "استو يا سواد" فادّعىٰ سواد أنّ الطعنة آلمته، وطلب من الرسول أن يكشف عن بطنه ليقتد منه فعندما فعل الرسول ذلك ما كان منه إلا أن اعتنقه وقبّل بطنه الشريفة.[٤]

قام بهذه الحيلة كما قال ليكون آخر عهده بالدنيا -إن استشهد في المعركة- أن يمسّ جلده جلد رسول الله. أما خبيب بن عدي الذي صلبه كفار قريش ليقتلوه فقد سأله أحد زعمائهم: "أتحب أن محمداً مكانك، وأنت سليم معافىٰ في أهلك؟" امتعض خبيب قائلاً: والله ما أحب أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة ."[٥]

---

(١) البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (توفي ٢٥٦هـ). **صحيح البخاري**، اعتنىٰ به أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٨م، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، حديث رقم (١٥) ص٢٦.

(٢) المرجع سابق، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، حديث رقم (٦٦٣٢) ص١٢٦٧.

(٣) انظر تفاصيل هذه الحادثة عند أهل السير، من ذلك ما جاء عند ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (توفي ٧٧٤هـ) في **البداية والنهاية**، بيروت، دار المعرفة، ١٩٩٧م، ج٤، ص١٩٤.

(٤) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (توفي ٤٥٨هـ). **السنن الكبرىٰ**، تحقيق عبدالله عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ٢٠١١م، ج٨، ص٤٨.

(٥) ابن كثير، **البداية والنهاية**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٤٥.

وعندما تجرّأ عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين على مقام النبي ﷺ بقوله: "لأن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل" انبرى له ابنه حباب واخترط سيفه ومنعه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله بعد أن يعلم بأنه هو الأذل والرسول هو الأعز.[1]

ولم تقتصر المحبة على الصحابة بل كذلك وردت أخبار في محبة الصحابيات للرسول ﷺ، فها هي " امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي دِينَارٍ فَقَدْ أُصِيبَ زَوْجُهَا وَأَخُوهَا يَوْمَ أُحُدٍ ، فَلَمَّا نُعُوا لَهَا، قَالَتْ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالُوا: خَيْرًا يَا أُمَّ فُلَانٍ ، فَقَالَتْ: أَرُونِيهِ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَأَشَارُوا لَهَا إِلَيْهِ حَتَّى إِذَا رَأَتْهُ قَالَتْ: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ."[2]

هذه العاطفة التي لا مثيل لها كانت سبباً رئيساً في الردّ على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر، لورود النهي عن لعنه، ودعاء الرسول عليه السلام له بالمغفرة. فها هو الصحابي عبد الله الملقب بالحمار، وهو الذي كان يُضحِك النبي ﷺ ويمازحه قد ابتلي بشرب الخمر، فأقيم عليه الحد عدة مرات، وفي إحدى هذه المرات أوتي به للنبي ﷺ لإقامة الحد عليه، فقال رجل "اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به". فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا تَلْعَنُوهُ! فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ"! لا تكونوا عوناً للشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ، وَلَكِنْ قُولُوا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ". جاءنا هذا الحديث عن عمر بن الخطاب وأثبته البخاري في صحيحه.[3]

ويبدو أنّ عبد الله هذا قد وصل إلى درجة عالية من الإدمان على الكحول. نستنتج ذلك من عدم قدرته على السيطرة على نفسه أمام إغراء الخمر حتى أمام الصحابة، فقد كان في رفقة المجاهدين في غزوة خيبر، حيث فتح المسلمون حصونها التي كانت ممتلئة بالخمور وعندما أريقت تلك الخمور لم يستطع عبد الله أن يمنع نفسه من شربها، فشرب منها بنهم، فحُمل إلى رسول الله ﷺ، فأمر بإقامة الحد عليه. ويبدو أنّ هذا الإدمان لازمه خلال حياة المصطفى ﷺ

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٥٤٥.

(٢) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٣٣.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، حديث رقم (٦٧٨٠) ص١٢٩٤.

وإلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ ذكر الحافظ ابن حجر في "الإصابة" أنّه شرب الخمر في عهد عمر، فأمرعمر به فضُرب الحد.[1]

ومن أمثلة هذه الرحمة المهداة على من ارتكب ما عَظُم من الذنب قصة الصحابي التي رواها مسلم. فقد جاء هذا الصحابي لرسول ﷺ وهو يقول: "هلكت يا رسول الله"، ذلك لأنّه جامع زوجته في نهار رمضان، فسأله النبي إن كان عنده من المال ما يمكنه من عتق رقبة فقال: "لا"، فسأله المصطفى ﷺ إن كان في استطاعته أن يصوم شهرين متتابعين، فقال: "لا"، فقال له الرسول فهل تجد ما تطعم به ستين مسكيناً فأجاب بالنفي، فما لبث أن جاء من أعطى النبي جراباً فيه تمر فأعطاه للصحابي وقال له تصدق به للمساكين، فقال الرجل: ليس في المدينة من هو أفقر منا! فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال له: "اذهب فأطعمه أهلك". فرجع الرجل بذنب مغفور وجرابٍ من تمر.[2]

فما أروع هذه العاطفة التي قلل من شأنها أولئك الذين يزعمون بأن الحب لا وجود له إلّا بالاتّباع، مستشهدين بالآية الكريمة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] التي يؤكد الطبري في تفسيره أنها أنزلت في قوم زعموا أنهم يحبون الله، ولعلهم كانوا كاذبين، فقيل لهم: إن كنتم صادقين فيما تقولونه فاتبعوا الرسول لكي يحببكم الله تعالى. ويحبذ الطبري أنّ تكون هذه الآية قد نزلت في وفد نصارى نجران الذين جاؤوا إلى المدينة للتحاور مع رسول الله ﷺ وادّعوا بأنهم يحبون الله فنزلت فيهم هذه الآية.[3]

لكنّ قوماً قللوا من شأن عاطفة الحب والرحمة عمّموا تصورهم هذا على جميع المسلمين، فترى تابعهم ينتهر من يتحدث عن الحب بقوله: "أي شيء هو الحب؟ وبلغته الدارجة يقول: "إيش" المحبة؟ ما المحبة إلّا الاتّباع". هذا التفريق بين الحب والاتباع ليَدُلُ دلالةً واضحة على

---

(١) ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (توفي٨٥٢هـ). **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ، ج٢، ص١١٧.

(٢) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان، حديث رقم (١١١١) ص٤٣٠.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (توفي ٣١٠هـ). **جامع البيان في تفسير القرآن**، دار هجر، ط١، تفسير الآية رقم ٣١ من سورة آل عمران.

جفاف قلوب من يقول به من العواطف الرقيقة التي جاء بها الإسلام، وجسّدها لنا رسولنا الحبيب. فإن كان الإيمان لا يكتمل حتىٰ يحب المسلم الرسول ﷺ أكثر من الأهل والنفس والناس أجمعين، كما جاء في الحديث،[1] فقد أصبح الحب اتّباعاً مأموراً به، ولا سبيل إلىٰ الفصل بينهما.

لعلي أستطرد قليلاً في الحديث عن هذا الموضوع لأهميته في تربية النشء، وفيما يمكن أن يحدثه من مشاكل نفسية لمن اقتنع به من البالغين. نعم هناك ارتباط بين الحب والاتباع، لكنهما ليسا بصفتين متلازمتين، بل هما كصفتي الوزن والطول لدىٰ البشر. فإذا قمت بقياس طول مجموعة من الناس ووزنهم لوجدت ارتباطاً بينهما. متوسط وزن طوال القامة أكبر من قصارها، ولكن لا تستطيع أن تعمم هذه النتيجة علىٰ الجميع. فهناك طوال الجسم من النحفاء ذوي الوزن الخفيف، وهناك من هو قصير القامة مكتنز الشحم واللحم عظيم الوزن. كذلك المحبة والاتّباع.

قد تجد محباً مخلصاً أقلّ في اتّباعه للعبادة من عابد يصل الليل بالنهار في اتّباع سنن العبادات ومستحباتها، لكنه أقل من زميله بالنسبة للجانب الروحي والعاطفي والإيماني. فكما قال المصطفىٰ ﷺ كما في حديث عن أم المؤمنين عائشة: "ما سبقكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره."[2] لذلك فإننا نعتقد بأنّ تربية النشء علىٰ الاستخفاف بعاطفة الحب والرحمة، هو الذي قسّىٰ قلوبهم، حتىٰ أضحىٰ كثير ممن تمسّك بالدين منهم لقمةً سائغة لدعاة التكفير وأشباه الخوارج.

وإنّي لأعجب من قوم اتخذوا العلّامة ابن قيم الجوزية إماماً لهم، ثم تنكّروا لما أثبته من تعظيم وتقدير لدور المحبة في الدين. استمع إلىٰ ما سطّره في مقدمة كتابه النابض بالمحبة "روضة المحبين ونزهة المشتاقين"، يقول: "فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسماوات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلىٰ

(١) حديث عمر بن الخطاب الذي سبق تخريجه. انظر ص٦٣.

(٢) أورده صاحب المنار المنيف في الصحيح والضعيف. انظر:

– ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الدمشقي (توفي ٧٥١هـ). **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط١، ١٤٠٣هـ، ص١١٥، رقم (٢٤٦).

غاياتها، واتصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها، وتخلصت من معاطبها، واتخذت إلى ربها سبيلاً، وكان لها دون غيره مأمولاً وسولاً، وبها نالت الحياة الطيبة وذاقت طعم الإيمان لما رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً...."[1]

ذلك لأنهم حصروا قراءاتهم على المراجع التي لا تتحدث عن الحب والرحمة ورقائق العواطف والزهد والخشية، وركزوا على تلك التي تمجّد البطش بقسوة على الذين تقاعسوا عن الاتباع، ولو قالوا بأنهم مسلمون يحبون الله ورسوله.

وبالإضافة إلى حصرِ مفهوم الحب في الاتّباع، هناك جانب تربوي آخر ينحو المنحى نفسه، لكنه أكثر انتشاراً في بلاد المسلمين، وتكمن خطورته في صياغته لتصور الأطفال عن الله تبارك وتعالى صياغةً تقوم على الخوف من التعذيب، وتقلل أو حتى تهمل جانب المحبة والرحمة. فنحن نربي أبناءنا منذ نعومة أظفارهم على تصورٍ لله تعالى يغلب عليه الخوف من عقابه في الدنيا والآخرة إن أخطؤوا، ولا نركز على رحمته تعالى ومحبته لعباده وغفرانه لذنوبهم. وكثيراً ما تستخدم الأمهات التخويف من الحيوانات الخرافية والجن لتأديب الأطفال، فيربط الطفل بين هذه المخاوف وبين الخوف من الله وعقابه بجهنم، فتخلط الأمور في ذهنه ومخيلته.

وقد تقول الأم لابنها المشاغب: "إذا لم تنفذ ما آمرك به سوف يغضب الله منك، ويرمي بك في جهنم"، وهي لا تدري أنّ لصغار الأطفال قدرةً عظيمة على التخيل لا يملكها الكبار، ولا يتصور قوة تأثيرها عليهم، فربما تكون الصورة التي يتخيلها الصغير لله تعالى قد ترسخ في ذهنه، وكأنّها خارطة طريق لمستقبل حياته العاطفية والروحية، صورة مخيفة تمثل القهر والعقاب المؤلم. فالطفل في سنواته الأولى لا يمكنه الإحاطة بالأشياء المجرّدة التي تُدْرَك بالذِّهن دون الحواسّ، فلعله يتخيل الذات الإلهية في شكل إنسان ضخم قوي البنية طوله كمئذنة المسجد وأمامه نار مشتعلة.

وربما تخيل أنّ هذا العملاق (وتعالى الله علواً كبيراً) قد أمسك به، وقذف به في هذه النار؛ جزاء عصيانه لوالديه وضربه لأخته الصغيرة. وعندما يكبر هذا الغلام وينضج عقلياً ويدرك

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الدمشقي (توفي: ٧٥١هـ). **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، ص٣.

المفاهيم المجرّدة، فإنّه قد يضحك من تصوراته الطفولية عن الله عزّوجل، لكنّه لا يتخلص من تغليب سيطرة الخوف من عقابه تعالىٰ في الدنيا والآخرة، ويقلل من رحمته وحبّه لعباده... تنمحي وتنسىٰ الصورة الطفولية التي كونّها لكن أثرها يبقىٰ مدىٰ الحياة. ورغم تكرار من تعرض لمثل هذه التربية لصفتي "الرحمن الرحيم" ١٧ مرة في قراءته لسورة الفاتحة في صلوات النهار والليل حتىٰ دون سنن الصلوات المؤكدة، ورغم تأثره بخطبٍ تهز القلوب عن محبة الله لعباده ومحبة أوليائه له تعالىٰ، لكن ما وقر في القلب في الطفولة قد لا ينمحي بتكرار الشعائر وبالوعظ المتفرق.

إذن فقد يؤدي تضافر الخوف من العقاب الرباني، دون الرجاء والرحمة والغفران مع تلك التربية التي تستخف بمفهوم الحب ورقائق الانفعالات، إلىٰ جيلٍ من الشباب والكهول تستهويهم الجماعات المتطرفة. وإذا مكّنهم الله من الاستيلاء علىٰ السلطة في بلادهم فإنهم يفاجئون مواطنيهم بتطبيق الحدود والعقوبات القاسية دون تهيئة أو تربية أو شفقة، ويختارون في ذلك أشدّ أنواع العقاب قسوة، ويتفننون في تطبيقها دون رحمة.

أما الذين رفضوا الانضمام إلىٰ مثل هذه الجماعات، فلم يسلموا من احتمال تأثيرهذا المزيج التربوي المنحرف عليهم. فعبادة الله أو معرفته بالخوف دون الرجاء تؤدي إلىٰ القنوط واليأس، كما أنّ الحرمان من عواطف الحب والشفقة قد يورث الحرمان من لذة الخشوع والاطمئنان، وهذه الحالة قد تعرض المحروم إلىٰ الإصابة باضطراب نفسي إذا ما اشتدت عليه ضغوط الحياة العصرية.

لقد تيقنت من تأثير هذه الظاهرة علىٰ سلوك الأفراد، من جلسات علاجي النفسي للمرضىٰ الذين وقعوا فريسة لاضطرابات القلق والاكتئاب. فكثير من هؤلاء المكتئبين والقلقين قد تربوا علىٰ هذا التصور الخالي من الاتزان والاعتدال. بعضهم كان قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، فاستولىٰ عليه القنوط من رحمة الله وغفرانه، وأصبح في حالة من القلق والتوتر، يتوقع الانتقام والعقاب الرباني أن يفاجئه في أيّ وقت وفي أيّ مكان. ومنهم من تَمَلَّكه اليأس وأقعده الحزن والتشاؤم، حتىٰ اتهم نفسه بكل ما هو قبيح، وحاصرته الأفكار والاعتقادات السوداوية، فاستولىٰ عليه شعوره بالذنب من أشياء فعلها في الماضي القريب والبعيد، ومن أشياء تخيل أنه تسبب في حدوثها بسبب نظرته الدونية لنفسه.

كثير من هذه الحالات التي حولت لي كان قد فشل في علاجهم ما ابتلعوه من العقاقير المضادة للاكتئاب والقلق، كما فشل العلاج النفسي العلماني في إحداث تحسن في حالتهم النفسية أو تبديل في نظرتهم لأنفسهم وبيئتهم، تبيّن لي أنّ وراء كثيرٍ من هذه الأعراض تصورات انفعالية منحرفة عن رحمة الله ومحبته وسهولة غفرانه تعالىٰ للذنوب مهما عَظُم الإثم، عند ذلك وجّهت علاجي المعرفي والسلوكي والإنساني إلىٰ تلك الجوانب الروحية والعاطفية، فانقشع ظلام اليأس والقلق، وبدأت بشائر التفاؤل علىٰ وجوه كثير منهم، وأصبحوا أكثر استجابة للعلاج النفسي أو لغيره من أنواع العلاجات التي كانت قد فشلت في تحسين حالتهم من قبل. وكثيراً ما يتم ذلك في وقت قصير. وأتذكر بوضوح ما حدث لبعضهم من تدفق عاطفي انهمرت فيه الدموع بالمحبة والخشوع لربهم وبالأحاسيس الودودة التي شعروا بها لأول مرة في حياتهم، تلك الحياة الشقيّة التي حرموا أنفسهم فيها من الصحة النفسية رغم ما آتاهم الله من مالٍ وجاه.

الصلة بين العاطفة الجياشة وانبعاث الأشواق الروحية

أستنتج من كل ما ذكرت ومن عنوان هذا الفصل، بأنّ للعاطفة دوراً أساسياً في استكمال الناحية الروحية التي تسيطر علىٰ قلب المؤمن وهو يعبد الله كأنه يراه، ويقودني هذا الحديث إلىٰ التساؤل عن الصلة الخفية بين العاطفة الجيّاشة وشفافية الروح. وأتجرّأ بالإجابة علىٰ نفسي بقولي بأنّ الأمر يبدأ في أغلب الأحيان بعاطفة مثيرة كعاطفة حب الله ورسوله ﷺ، أو بانفعال الخوف من الله والإحساس المهيمن بمعيته تعالىٰ، فتبدل هذه العاطفة من حالة المؤمن النفسية والجسمية، فيتبعها إحساس روحي غامر بهذا التسامي الروحي، فيؤجج ذلك من هذه العاطفة التي أثارته حتىٰ تختلط العاطفة الجياشة بشفافية الروح، ويقوّي كل منهما الآخر.

ليس هذا فحسب بل إنّ استثارة العاطفة بانفعال غريزي في طبيعة البشر، لا صلة مباشرةً له بالجانب الديني، كالاستماع إلىٰ شعرٍ مؤثر، أو نشيد يؤديه شخص جميل الصوت، قد ينقل وجدان المؤمن لما اعتاده من قبل من ربط مثل هذه المشاعر العاطفية بالجانب الروحي، فيتبدل الإحساس العاطفي لسماع الشعر إلىٰ استحضار عظمة الله وهيمنته علىٰ كل صغير وكبير في دنياه الزائلة. لذلك فقد قيل عن أهمية العاطفة في استجلاب الخشوع، أن التالي للقرآن إن لم يبكِ فعليه

أن يتباكىٰ أو أن يتصنع البكاء، فلربما يصبح هذا التصنع العاطفي بكاءً حقيقياً، ويؤيد ذلك الحديث النبوي الذي رواه الطبراني وحسّنه الألباني "إنما العلم بالتعلُّم وإنما الحلم بالتحلُّم."[1]

ولكن في بعض الأحيان ربما كانت البداية من أولها بحالة روحية فجائية أحدثها الاستماع لآيات من الذكر الحكيم أو لخطبة منبرية دينية حركت وجدان المؤمن، فلان قلبه واستسلم في خضوع وانكسار لله، فأدّىٰ ذلك إلىٰ استثارة عاطفة حبِّه لله، ومن ثمّ قوّت عاطفة الحب هذه من حالته الروحية. ففي هذه الحالة قد سبق الخشوع استثارة العاطفة. فلما استثيرت العاطفة زاد الخشوع. ولعل هذا التفاعل بينهما هو ما تشير إليه الآية رقم ١٠٩ في سورة الإسراء: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾. وبعد أن يصل هذا التفاعل بين العاطفة والناحية الروحية إلىٰ قمته التي يهتز منها قلب الخاشع وعقله وجوارحه، تعقبه حالة من الخضوع والاستكانة والتضرُّع الهادئ. فكأنّ هذه الاستكانة والخضوع لما ظهر له من عظمة الله تعالىٰ وقهره وهيمنته، قد صار كالشمس التي مالت للغروب بعد يوم شديد الحرارة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وتعقب هذه الحالة من الاستكانة والطمأنينة النفسية والروحية والجسمية إحساس لا يكيّف بالسرور والسعادة التي تعجز الكلمات عن وصفها، ولعل الأستاذ محمد الغزالي كان من أفضل من وصف هذه الحالة العاطفية الروحية وقت حدتها وعندما تلين الجلود. يقول الأستاذ الغزالي في كتابه "الجانب العاطفي من الإسلام" ما نصه: "ومن أهل الصلاح من تصفو سرائرهم، وتزكو بواطنهم ، وتتوطد مع الله علائقهم، ويمسّ حبه شغاف قلوبهم، وربما تضطرم مشاعر الذكرىٰ في أنفسهم إثر طائف يمر بها من الملأ الأعلىٰ، كما تتقد الجذوة، نفخت فيها الرياح فتمر بهؤلاء لحظات ليست من حياة الناس، يذهلون فيها عن أنفسهم ويبقون مع ربهم في استغراق يطول أو يقصر...أيّ عجب في هذا؟ إنّ الإيمان يربو أحياناً كما تربو أمواج البحر، ثم يعود رهواً، ساكن الصفحة، كأن لم يعره شيء."[2]

---

(١) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد(توفي ٣٦٠هـ). **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق عوض الله، القاهرة: دار الحرمين، ج٣، ص١١٨، حديث رقم (٢٦٦٣).

(٢) الغزالي، محمد. **الجانب العاطفي من الإسلام، بحث في الخلق والسلوك والتصوف**، الإسكندرية: دار الدعوة، ط١، ١٩٩٠م، ص٨٧.

وقد يأتي الانفعال العاطفي منذ البداية ممزوجاً بذكر الله وإثارة الإحساس الروحي، حيث يندمج الاثنان في وعاءٍ نفسي روحي واحد. مثلاً قد يهتز المسلم طرباً لسماع امرئ حسن الصوت يتغنّى بآياتٍ من الذكر الحكيم. الصوت العذب والتغني بترتيل جميل يثيران العاطفة ومعاني الآيات القرآنية تهز القلب. هذا المزيج المبارك قد ينتقل به الشخص فجأة من الغفلة إلى أعلى درجات الخشوع. فقد أنعم الله على النبي داود عليه الصلاة والسلام بصوت أخّاذ، إذا صدح بالتسبيح أوّبت معه الجبال والطير في خشوع عميق، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

في بعض الحالات النادرة ترتبط بعض جوانب العاطفة والشوق إلى الوطن أو إلى القرية التي ولد فيها الشخص، وعاش فيها أعذب سنيّ حياته بأشواقه وأحاسيسه الروحية الدينية، خصوصاً إذا كان قد تلقى منذ نعومة أظافره بعض مفاهيمه الدينية في قريته هذه، مما يجعل الشوق لحياة القرية مرتبطاً بالعواطف الروحية.

لم أضرب هذا المثل من وحي خيالي، بل ضربته استناداً على خبرةٍ حقيقية. فقد ذكر لي أحد الأصدقاء أنّه كلما اشتاق إلى قريته وأهلها، انبعثت لديه أحاسيس روحية أدّت إلى رقة قلبه وإلى خشوع مُستَكين. ومن ناحيةٍ أخرى فإنّه كلما خشع في صلاته تراءت له ذكريات طفولته في القرية. فكان يوبخ نفسه قائلاً: "كان يجب عليك إن أردت أن ترقق قلبك بالتخيل أن تستعيد تصوراتك عن حجك وعن الكعبة وعن المدينة المنورة مثوى النبي ﷺ ومرقده، وليس بذكرياتٍ طفوليةٍ عن قرية نائية في صحراءٍ سودانية جرداء"، ولكن هذه التخيّلات ذات الصبغة العاطفية والانفعالية في طفولة الفرد، تبقى حيةً قويّة تستثار كلما واجه خبرات حرّكت فيه عاطفةً مشابهة.

رحم الله أخاً كريماً لي كان يعيش في طفولته الباكرة في قريةٍ في شمال السودان على ضفاف نهر النيل، فيها مزرعة كبيرة للخضروات. فعندما أُدخل الكتّاب في الخامسة من عمره مع أقرانه من الأطفال، حدّثهم الشيخ حديثاً مؤثراً عن واقعة بدر الكبرى، فتخيل صديقي عند ذاك أنّ المعركة دارت في مزرعة الخضروات! واقترن هذا التصور بحبه للنبي ﷺ وصحابته.

فلم ينمح هذا الخيال حتى بعد أن زار السعودية، ورأى بأم عينيه الأرض الصحراوية التي دارت فيها معركة بدر. لكنه رغم ذلك -كما أخبرني- تأتيه صورة واقعة بدر في مزرعة القرية كلما استغرق في عاطفته الإسلامية.

فلعل مثل هذا الارتباط قد يحدث بطريقة خفية أو لاشعورية لكثيرٍ من الناس، عندما ترتبط عاطفة الحنان والسكينة في مكان وزمان معين بالروحانية الدينية. والحاذق هو من استثار هذه العواطف لاستجلاب الخشوع لله تعالى وحمده على ما أنعم به عليه، واستبعاد ما يوسوس به الشيطان في صدره من ذكريات تصده عن الذكر الصحيح.

هذا "الخشوع" الّذي نتحدث عنه هو اصطلاح إسلامي فريد، يجمع بين عدد من العواطف الممزوجة بالأحاسيس الروحية السماويّة والخضوع لرب العالمين. لذلك فإنك لا تجد له ترجمة في أيّ لغة أخرى. انظر إلى ترجمة كلمة "خشوع" في القواميس الأوروبية، تجدهم يترجمونها بالخضوع أو الاستسلام Humbleness and Submission. لكنّ الاستسلام والتذلل هو فقط أحد مكونات الخشوع، وليس هو بالتعريف المانع الجامع. فقد يخضع الشخص ويستسلم بذلةٍ لرئيسه في العمل وهو له كاره، فإذا تغيرت الظروف لصالحه انقلب على عقبيه وصارالخضوع تمرداً. لكنّ العبد الخاشع لله تعالى يجمع بين الخضوع وانفعال الخوف والخشية من الله تعالى، وفي المقابل يستغرق في حبّه تعالى والشوق إليه وإحساسه بالتقصير والتهاون نحوه... كل هذه العواطف تجدها ممزوجة بإحساس من اللذة الروحية كل هذه العواطف المختلفة تهيمن عليها طاقة روحية لا نجد لها تعريفاً دقيقاً حتى في لغتنا العربية؛ إذ هي "من أمر الله"، وهي التي تبدل كل الأحوال النفسية والجسمية للعبد الخاشع. فقد ينتحب وتنهمر الدموع من عينيه، وتتبدل أحواله النفسية والانفعالية والجسمية، حتى إذا رآه نفساني غربي في تلك الحالة، لشخَّصه بالاكتئاب الحاد، ولصرف له العقاقير المضادة للاكتئاب، ولربما نصح بتنويمه في المستشفى حتى لا يقدم على الانتحار! لا يدري هذا المحروم أنّ الخاشع في تلك اللحظة يشعر بسعادة لا تعدلها سعادة.

واستمع في ذلك إلى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية يحدثنا عن السعادة العاطفية الروحية لبعض الشيوخ من أهل الذكر والتفكّر فيقول عن أحدهم: "...لقد كنت في حال أقول فيها إن

كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال، إنهم لفي عيش طيب."[1] وقال آخر: "إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طرباً". وقال الآخر: "لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم."[2] وقال ثالث: "نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف."[3]

ما ذكرناه عن انفعال الحب ينطبق على جميع العواطف والانفعالات الأخرى. فعدم الاستجابة بعاطفة الغضب والإنكار على الذين ينتهكون محارم الله قد يؤدي بالمرء إلى فقدان إيمانه جملة واحدة. ففي الحديث الشريف الذي خرّجه مسلم من حديث ابن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: "مَا مِنْ نبيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قبلي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ."[4] أي لو انعدمت عاطفة الغضب لله وإنكار المنكر بالقلب لانعدَم الإيمان. يؤكد ذلك ما رواه الطبراني عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها، قال: إن فيها عبدك فلاناً لم يعصك طرفة عين، قال: اقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يتمعر فيّ ساعة قط."[5]

نكتفي بما قدمناه في هذا الفصل عن أهمية العاطفة في استكمال الإيمان. ورغم تركيزنا على عاطفة الحب لأهميتها بالنسبة لواقعنا العربي والإسلامي، وحديثنا المختصر عن الخوف والغضب، إلا أنّ جميع ما وهبه الله للإنسان من عواطف وانفعالات كالبغض والاشمئزاز والحماس والاشتياق والفرح والغيرة وغيرها من الانفعالات الإنسانية، لها دورها الفعّال في "تسخين" الناحية المعرفية الإيمانية وما يتبعها من أفعال الجوارح.

---

(١) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم الحراني (توفي٧٢٨هـ). **مجموع الفتاوى**، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، ط٣، ٢٠٠٥م، دار الوفاء، ج١٠، ص٦٤٧.

(٢) من كتابي بعنوان "التفكر من المشاهدة إلى الشهود"، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٤، ١٩٩٥م.

(٣) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، مرجع سابق، ج١٠، ص٦٤٧.

(٤) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، حديث رقم (٥٠)، ص٥١.

(٥) الطبراني، **المعجم الأوسط**، مرجع سابق، ج٧، ص٣٣٦، حديث رقم (٧٦٦١).

الفصل الرابع

تأمُّلات نفسية حول استجابات الأنبياء العاطفية من حيث كونهم بشراً، أو من منظور شأوهم العظيم أنبياءَ معصومين

بتأملي في المثيرات للانفعال والعاطفة في حياتنا اليومية رأيت أن أصنفها إلى أربعة أصناف. فهناك المثيرات التي نستجيب لها بشكل سريعٍ لا إرادي، لأنها مركوزة في أجهزتنا العصبية من حيث خلقنا كبشر؛ من الأمثلة على ذلك مجابهة المرء لحيوان مفترس أو أيّ شيءٍ مفزعٍ للطبيعة البشرية، أو المثيرات التي تفاجئ الإنسان بقوة، كالأصوات العالية أو تلك التي تباغتنا بموقفٍ حرجٍ يجبرنا على الاستجابة السريعة من دون تفكير واع، كالتي يزعم علماء الجهاز العصبي -كما ذكرنا- بأنها تأتي من لوزة الدماغ؛ إذ يجد الفرد نفسه في مأزقٍ يتطلب تدخلاً سريعاً، أو تكون استجابته ردة فعل لتغيّر مفاجئ في بيئته.

جميع هذه الاستجابات اللاإرادية ربما تذكرنا بردود الأفعال المنعكسة Reflexes المركوزة في جهازنا العصبي، كسحب اليد من سطح شديد الحرارة، أو قفل العينين إذا تعرضتا لنفخةٍ هوائيةٍ مفاجئةٍ أو لضوء شديد جهرهما.

في مثل هذه الحالات يستجيب النبي كما يستجيب باقي البشر. فمن الأمثلة على ذلك ما ورد في سورة "ص" عن فزع داود عليه السلام، عندما فاجأه خصمان بتسوّرهما محرابه الذي لا يدخل عليه فيه أحد، والفزع هو الخوف الشديد. كذلك كان فزع النبي ﷺ عندما رأى جبريل عليه السلام على الصورة التي خلقه الله عليها. ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن الرسول ﷺ قال: "فَجُئِثْتُ منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض."[1] نرى هذه الظاهرة أيضاً في خوف موسى عليه السلام عندما رأى عصاه تهتز وتتلوى كأنها ثعبان. فالخوف في هذه الحالات قد يأتي من المفاجأة أو من رؤية الغرائب المرعبة.

---

(١) انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم أمين، حديث رقم (٣٢٣٨) ص٦٢١.
- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، حديث رقم (١٦١) ص٨٩.

كذلك نرىٰ مثل هذه الاستجابات اللاإرادية لعواطف أخرىٰ كالغضب والفرح، أو تلك التي تسببها الآلام المبرحة إذا كانت مفاجئة أو شديدة. نرىٰ أثرهذه الانفعالات علىٰ الأنبياء واستجابتهم لها كاستجابة غيرهم من البشر، لكنها قد تكون لدىٰ الأنبياء أقلّ حدّة، وأسرع خموداً وعودة للسكينة. فتأمل في موقف الغيظ والغضب الذي أصاب الرسول ﷺ بعد واقعة أحد، وهو يفاجأ بمنظر عمه الحبيب وأخيه في الرضاعة حمزة بن عبد المطلب، وقد قتل ومُثِّل بجثته وبقرت بطنه وأخرجت كبده، فعبر عن غضبه بعبارة مؤثرة: "ما وقفت موقفاً أغيظ إليّ من هذا" ثمّ قال: "رحمك الله أي عم فلقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات فوالله لئن أظفرني الله بالقوم لأمثلنّ بسبعين منهم."[1] لعل هذه الاستجابة الفورية الغاضبة جاءت من الطبيعة البشرية لسيد البشر ﷺ، لكنّ الله تعالىٰ الذي أدّبه فأحسن تأديبه سرعان ما أعاده من هذه الطبيعته البشرية إلىٰ مقام النبوة السامق... فنَزَلَ الْقُرْآنُ وَهو واقفٌ في مكانه لَمْ يَبْرَحْ بعدُ...﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فخضع الرسول ﷺ وألزم نفسه باختيار أصعب الأمرين، أي الصبر حيث قال: "بل نصبر" ونهىٰ عن التمثيل بالجثث.

نشاهد مثالاً مشابهاً آخر من واقعة أُحُد، يبيّن الفرق بين الطبيعة البشرية العاطفية للرسول ﷺ، مقارنةً بعاطفته بوصفه نبياً بل سيداً للمرسلين، فعندما انتهت هذه المعركة التي جرح فيها عليه السلام في وجهه الكريم، وكسرت رباعيته، ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته الشريفة، ورشقه الكفار بالحجارة حتىٰ وقع علىٰ شقّه، روىٰ الطبراني أنه ﷺ قال مغضباً: "اشتدّ غضب الله علىٰ قوم كلموا وجه نبيّهم"، لكنّه بعد أن مكث ساعةً قال: "اللهم اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون."[2] فكأنّ الاستجابة الأولىٰ كانت بعاطفته البشرية، ثمّ جاءت عاطفة النبوة الكريمة فأبطلت مفعولها.

أما ردّ الفعل اللاإرادي للألم المبرح، فمثاله فيما تعرّض له الرسول ﷺ من ألم شديد في ساقه بسبب احتكاكه بحرف نعل أحد الصحابة بعد انتصار المسلمين في حنين وازدحام

(١) الطبراني، **المعجم الأوسط**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٣٣، حديث رقم (٢٨٦٨).

(٢) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد(توفي ٣٦٠هـ). **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ج٥، ص٤٤٦، حديث رقم (٢٥٢٩).

جحافلهم المنتصرة. فقد ذكر ابن كثير في كتاب "السيرة النبوية" عن عبد الله بن أبي بكر أنّ الصحابي صاحب النعال قال: "والله إنّي لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي وفي رجلي نعل غليظة؛ إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله ﷺ ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله فأوجعه، فقرع قدمي بالسوط وقال: أوجعتني فتأخر عنّي. "فانصرفت، فلما كان الغد إذ رسول الله يلتمسني. قال: "قلت هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول الله بالأمس " قال "فجئته وأنا أتوقع". قال رسول االله ﷺ: "إنّك أصبت رجلي بالأمس فأوجعتني فقرعت قدمك بالسوط فدعوتك لأعوضك منها". فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني.[1]

كذلك قد يستجيب الإنسان بردود فعل لاإرادية مشابهة، حتى بالنسبة لعاطفة الفرح والسرور، إذا كانت "جرعة" الفرح فجائية أو فوق احتماله. وفي بعض الأحيان قد تصاحب هذه الحالة نوبات عاطفية أو حركات جسمية وكلام غير مرتب لا يخلو من الهذيان. فعن البراء بن عازب كما أخرج البخاري عن رسول الله ﷺ قوله للصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب: "أشبهت خَلقي وخُلُقي"[2] ففرح بها فرحاً لم يستطع احتماله حتى حجل ؛ أي صار يقفز على رجل واحدة، كما يفعل الأحباش. ويذكرني ذلك بالحديث الشريف الذي حُكِيَ عن رجل أضلّ راحلته في أرض فلاة مهلكة، وعليها طعامه وشرابه، فطلبها حتى يئس من العثور عليها فقال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذ راحلته وعليها طعامه وشرابه واقفة أمامه، فقال من شدة الفرح "اللهم أنت عبدي وأنا ربك" (أخطأ من شدة الفرح) رواه مسلم. فعلق الرسول ﷺ على هذه القصة بقولٍ يدعونا للتفاؤل ويزيد من حبنا لله تعالى؛ إذ قال: "فاللهُ أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده."[3]

هذه إذن أمثلة للطائفة الأولى من الاستجابات اللاإرادية التي يستثيرها ما فطرنا عليه في طبيعتنا البشرية التي جُبلنا عليها. على أنّ الأنبياء وبالرغم من بشريتهم فقد ميّزهم الله

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (توفي٧٧٤هـ). **السيرة النبوية**، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٦م، ص. ٤٦٦.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان، حديث رقم (٢٦٩٩) ص٥١٤.

(٣) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة، حديث رقم (٢٧٤٤) ص١٠٩٨.

تعالىٰ على عامة الناس بقدرتهم الفائقة في مدافعة هذه المثيرات وفي سرعة العودة إلىٰ الاطمئنان والسكينة. فمثلاً في غزوة حنين خرج اثنا عشر ألفاً في جيش المسلمين من مكة لقتال هوازن، وكان المسلمون علىٰ ثقة بالنصر، فهذه هي المرة الأولىٰ التي يجتمع فيها هذا العدد من المقاتلين فأعجبهم منظر جيشهم الجرار فزادهم اطمئناناً وثقة بنصر سهل المنال. فعندما انحدر جيشهم في ظلمة الغلس بوادي حنين الذي كانت قد كمنت فيه هوازن، فاجؤوهم بأن حملوا عليهم حملة رجل واحد وأمطروهم بالنبال وبضرب السيوف. كانت المفاجأة أكبر مما يمكن احتماله، فولّت جموع المسلمين الأدبار استجابةً لطبيعتهم البشرية، ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا عدد قليل منهم. ثبت الرسول ﷺ، فما كان لمثل هذا الهجوم المفاجئ من أثر سوىٰ ردة الفعل الطبيعية عند حدوثه أول الأمر، ولكن سرعان ما تتنزل السكينة ويصبح الحدث مدعاةً للحماسة وزيادة الثقة بنصر الله.

كان الرسول ﷺ راكباً بغلته الشهباء يسوقها إلىٰ نحر العدو، وهو ينوه باسمه الشريف ويدعو المسلمين إلىٰ الرجعة، فرجع المسلمون وهزموا الكفار. وقد وثّق القرآن الكريم ما حدث في هذه المعركة من أحداث وانفعالات بآيات بيّنات من سورة التوبة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

أما الطائفة الثانية من الاستجابات الانفعالية، فهي تلك التي تحركها مواقف يحتاج الشخص في الردّ عليها إلىٰ اتخاذ ما يراه قراراً مناسباً، وقد تحدثنا عن هذه الأعمال والأقوال الإرادية في الفصل السابق، وما ذكرناه من أنّ الإنسان يقوم بها بمحض اختياره، فيتحمل مسؤولية هذا الاختيار ونتائجه، سواءٌ كانت العاقبة خيراً أو خسراناً مبيناً. ويؤكد لنا العلم الحديث في وقتنا الحاضر بأنّ قشرة الدماغ الأمامية الجبهية هي المسؤولة عن هذه الاستجابات، ولكننا نعرف -كما ذكرنا من قبل- بأنّ العلم بطبيعته المادية الحديثة يبالغ في ربط جميع النشاطات البشرية بالدماغ، ولا ندري بما سوف يأتي به المستقبل من كشوفات عن معجزة الدماغ البشري تبدل من هذا اليقين، أو تنحاز إلىٰ اعتقاد علماء مثل إكلز Eccles وبيرسال Pearsall الذين يؤمنون بأنّ العقل بطبيعته غير المادية هو الذي يتحكّم في أنشطة الدماغ. وهذا التصوّر كما

ذكرنا يقرّب فكر هؤلاء العلماء من اعتقادنا الإسلامي بأنّ القلب ذو الطبيعة الروحية، هو الذي يتحكم في أدمغتنا، وهو الذي يتحمل مسؤولية اختيارنا، وهو الذي يمنحنا نعمة الوعي والشعورُ بما يحدث في حياتنا consciousness.

إذن، فإن كانت الطائفة الأولى تستحث ردود الأفعال التي لا حول لنا كبشر في منع استجابتنا لها، أو تأخير الاستجابة لها، أو التفاوض في تخفيف حدتها، فهذه الطائفة الثانية تمثلها الاستجابات الإرادية حيث يكون الشخص المُستثار انفعاليّاً مدركاً للموقف العاطفي الذي يجابهه، ويقوم باختيار الاستجابة التي تتناسب مع حدة المثير الانفعالي، ومع حالته النفسية والروحية ومعتقداته وخصائص تكوين شخصيته. في هذا الجانب العاطفي نرى الهوة تتسع بين استجابات الأنبياء واستجابات عامة الناس كما تختلف تبعاً لذلك مسؤوليّاتهم. ولشرح هذا الموضوع وتبسيطه لنأخذ عاطفة الخوف؛ لأنها من أكثر الانفعالات التي توضّح هذا الأمر، كما نختار أشدّ المواقف إثارةً للخوف، ألا وهو الخوف من القتل.

فالقرآن الكريم يحدثنا عن استجابات الأنبياء العاطفية، وما فعلوه مع الّذين هددوهم بالقتل أو بالتعذيب، فما لانت لهم قناة، واستهانوا بالموت لأنّهم يعلمون علم اليقين بأنّ هذا الكون من أصغر ذراته إلى أعظم مجراته في قبضة الله سبحانه وتعالى، يقلبها حيث شاء، فيُحيي من يشاء، ويُميت من يشاء، وهو على كل شيءٍ قدير. فمثل هؤلاء الكفار بالنسبة للأنبياء كمثل معتوه أراد أن يحذرك من هجوم الأسد عليك وأنت في حديقة الحيوان. تضحك من هذا التحذير لعلمك بأنّ الأسد قد أُحكمت أبواب قفصه فلا يستطيع الخروج منه.

فالأنبياء يستمعون إلى تهديد الكفار مستهزئين بخطابهم، وواثقين بنصر الله؛ استمع إلى قول نوح عليه السلام في سورة يونس، وهو يستهزئ بتهديد قومه ويتحداهم أن يجتمعوا مع شركائهم، ويتخذوا قرارهم بكل وضوح، ثم ينفذوا ما اتفقوا عليه من قتله دون تأخير، فهو على ثقة من أن الله تعالى الذي توكّل عليه لن يجعل لهم عليه من سبيل: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

كذلك يحدثنا القرآن الكريم عن هود عليه السلام في السورة التي تحمل اسمه؛ إذ يعلن على من أجمع على قتله من قومه أنه لا يخاف مكرهم وتهديدهم، لأنّه ما من دابة تدب على الأرض تزحف على بطنها أو تمشي عل رجلين أو أربع، إلا وهي خاضعة ذليلة تحت سطوة الله وقوته، لأنّه تعالى آخذ بناصيتها، والناصية هي مقدّم الرأس، والأخذ بها يدل على هوان المأخوذ وخضوعه أمام سطوة الآخذ: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وما لنا نذهب بعيداً، وهذا رسولنا الحبيب سيد ولد آدم ﷺ وقد اختبأ مع أبي بكر في غار ثور من كفار مكة الذين عزموا على قتله، فيقول له أبو بكر وهو يرتجف خوفاً والكفار على فوهة الغار: "لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآنا"، فيرد عليه المصطفى باطمئنان من تنزلت عليه السكينة: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما."[1] ويؤكد القرآن الكريم هذه الحادثة بقول الحق سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

في هذه الحادثة يظهر لنا الفرق واضحاً بين استجابات الأنبياء في مثل هذه المواقف الانفعالية بالمقارنة لسائر البشر، حتى وإن كانوا على مستوى أبي بكر في الإيمان والتوكل على الله. فأبو بكر -وإن كان خوفه على حياة النبي ﷺ- يقابله اطمئنان رسول الله الذي استسلم للنوم بعد دخولهم إلى الغار واضعاً رأسه على فخذ أبي بكر، أيّ اطمئنان هذا؟ نبيٌّ يحيط به قوم يبغون قتله فينام قرير العين!

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، حديث رقم (٣٦٥٣) ص٦٩٨.

إذن عندما يكون الباعث للانفعال يحتاج إلى اتخاذ قرار إرادي لا يمكن ولا يجوز للأنبياء أن يخافوا أو يترددوا، ولكن المؤمن العادي قد سمح له بأن ينقذ نفسه ممن أراد قتله بالحيل المختلفة، فعندما رفض المشركون أن يكفّوا عن تعذيب عمار بن ياسر رضي الله عنه حتى يكفر بمحمد ﷺ وافقهم على ذلك مُكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فقال له النبي: "إن عادوا فعد."[1] فأنزل الله هذه الآية من سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ١٠٦].

لكنّ تاريخنا الإسلامي العظيم وحتى بعض الأمثلة النادرة في حاضرنا، لتتحفنا بأمثلة كثيرة من العُبّاد والعلماء ممن آثر الموت أو التعذيب على التنازل عمّا آمن به، من هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل، والأوزاعي، والإمام الشهيد سعيد بن جبير الذي قتله الحجاج بن يوسف، وابن تيميّة، وغيرهم ممن تذخر بسيرهم كتب التاريخ الإسلامي.

نذكّر القارئ الكريم بأننا نتحدث في هذا الفصل عن تصورنا لأربعة أشكال من المثيرات للانفعال والعاطفة في حياتنا، واستجابات الأنبياء لها. بيّنا بأنّ الطائفة الأولى من هذه المثيرات للانفعال يستجيب لها الأنبياء كغيرهم من البشر؛ لأنها مركوزة في أجهزتهم العصبية من حيث خلقهم بشراً.

أما الطائفة الثانية من الاستجابات الانفعالية التي ناقشناها، فهي تلك التي تحركها مواقف يحتاج الشخص في الردّ عليها إلى اتخاذ ما يراه قراراً مناسباً، فهي تقوم على الأعمال والأقوال الإرادية التي تصدر من الشخص بمحض اختياره، فيتحمل مسؤولية هذا الاختيار ونتائجه، سواءٌ كانت العاقبة خيراً أو شراً. وقد اعتمدنا في تبسيط عرضنا بضرب الأمثلة العملية، وتجنبنا سرد النظريّات الانفعالية التي يهتم بها المتخصصون في علم النفس.

أما الطائفة الثالثة من مثيرات العواطف، فتمثلها استجاباتنا الانفعالية لنفوسنا الأمَّارة بالسوء ووسوسة الشياطين وقرناء الجن والإنس. هذه الاستثارات الشرّيرة قد تؤدي بالمرء

(١) البيهقي، **السنن الكبرى**، مرجع سابق، ج١٧، ص١٤٠، رقم (١٦٩٧٩).

إذا استحسنها إلى أسوأ العادات الانفعالية كالحسد والحقد والأنانية، وهي أحاسيس ومشاعر لا يخلو منها المسلم، لكنّ الأنبياء قد عُصِموا منها، وفي ذلك يروي لنا الإمام مسلم عن ابن مسعود أنّ الرسول ﷺ قال: "ما منكم من أحد إلّا وقد وُكِّل به قرينه من الجن" قالوا: وإيّاك؟ قال: "و إيّاي إلّا أنّ الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلّا بخير."[1] سوف نتحدث عن موضوع عصمة الأنبياء بتفصيلٍ أكبر في الصفحات القادمة من هذا الفصل إن شاء الله.

بقي علينا الآن أن نطرح بعض تأمّلاتنا عن الصنف الرابع من مثيرات العاطفة حسب ما اقترحناه من تصنيفنا الرباعي، ونرجو أن نبيّن بعض ما تميز به الأنبياء على غيرهم من الناس في هذا الشان.

تلك هي العواطف التي تثيرها انفعالات تدعو إلى مكارم الأخلاق، والأحاسيس الخيّرة كالشفقة والرحمة والصبر على المكاره والشجاعة وكبح الشهوات. بعض هذه العواطف الخيّرة المركوزة في جبلّتنا كبشر نجدها حتى في سلوك الحيوانات. فالرحمة والتضحية للمواليد فطرة وضعها الله تعالى في سلوكها لأهميتها في الحفاظ على بقائها. وفي هذا الشأن يقول أبو هريرة في حديث أخرجه البخاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه."[2]

عند تناولنا لهذا الموضوع نرى الفرق بيّناً بين علم النفس الغربي العلماني، الذي يتخذ الحياد الأخلاقي أو حتى الجانب السلبي المزعوم في الإنسان، لكي يحشر نفسه في زمرة تخصصات الطب العلاجي الحديث كنهجٍ لدراساته عن السلوك، زعماً منه بأنّه بذلك سيكون أو يقترب من العلوم التجريبية ذات المواقف الأخلاقية المحايدة. قارن بين هذا التصور وبين الاتجاه الإسلامي لعلم النفس الذي يفرق بوضوح بين الخير والشر في سلوك الإنسان، ويدرك أهمية الاستفادة من العلوم النفسية لتشجيع الأفراد للقيام بالأعمال الخيّرة، وتدريبهم على التحلي بمكارم الأخلاق والتخلص من سيئها.

---

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنه الناس، وإن مع كل إنسان قريناً، حديث رقم (٢٨١٤) ص١١٣٢.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، حديث رقم (٦٠٠٠) ص١١٦٣.

من المعلوم أنّ الاعتقاد أو عدم الاعتقاد بأنّ العواطف الخيّرة مجبولة في الإنسان أمرٌ له شأن عظيم عند علماء الدين والفلسفة، فيما يختص بتصورهم عن طبيعة الإنسان. أي هل الإنسان خيّر بطبيعته ويأتيه الشر من تأثير تربيته وبيئته التي يعيش فيها، أم أنّ الخير والشر مغروسان في تكوينه، أم هو شرير بطبعه كما تعتقد الكنيسة الكاثوليكية؛ لأنه يرث ذنب آدم وحواء لأكلهما من الشجرة التي نهاهم الله عنها؟

من الواضح أنّ الدخول في الدهاليز المظلمة المضلّلة لهذا الموضوع الفلسفي أو دهاليز علم الكلام ليس مما يصلح لكتابنا هذا، فلنكتف بالتصور الإسلامي الواضح الذي يعتمد على ما صحّ من الأسانيد والأحاديث الشريفة.

إنّ الاعتقاد الذي ينسجم مع النصوص الدينية الثابتة يدعونا إلى الإيمان بأنّ البشر يولدون خيّرين بطبعهم؛ أي بفطرتهم الطيّبة التي فطرهم الله عليها منذ أن كانوا ذريةً في ظهور آبائهم، وشهدوا على أنفسهم بعد أن أخذ الله عليهم العهد الأكبر بأنّه تعالى ربهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ...﴾ [الأعراف: ١٧٢]. هذه هي الفطرة التي تدعونا للإيمان بالله الواحد القهّار، كما تدعونا للتخلق بأحسن الأخلاق. ثمّ تأمل الآية الآتية: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]. ثمّ تأمل الحديث الشريف الآتي: "كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء."[(١)] ففي هذا التشبيه النبوي نرى أنّ هذه الفطرة الخيّرة مغروسة في كيان البشر منذ الولادة بشكلها المتكامل وكأنها مولود صحيح الجسم، لكنّ الأبوين والبيئة المنحرفة والشياطين يعملون على تشويهها وإضعاف أثرها.

وقد سمح الله في عظيم حكمته لهذه القوى الشريرة أن تنافس الفطرة في الاستيلاء على القلوب بالعقائد المنحرفة والشهوات؛ لأنّه تعالى قد جعل هذه الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء فألهم النفوس البشرية التعرف على نداء الفطرة الخيرة، ومنحهم حرية الاختيار إن أرادوا التمرد عليها بالنزوع إلى الشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧ - ٨].

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (١٣٨٥) ص٢٦٨.

فإمّا أن يستجيب الشخص لنداء الفطرة أو يدسه ويخفيه عن نفسه. ولكن بالرغم من فجور الإنسان وتمرّده أو حتى كفره، تبقى فطرته الخيّرة كامنةً في كيانه الروحي والنفسي، فإذا تاب وآب رجعت كالنور الذي يبدد الظلام. فلغويّاً ما الكفر إلا غطاء، فإذا قال القائل: "كفرت الإناء" معناه أنّه غطاه. والكافر من حجب عن قلبه نور الفطرة فعاش في الظلمات، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

أردت بهذا الاستطراد المختصر أن أعيد التأكيد على أنّ الله تعالى قد زوّد الإنسان بموهبة موروثة يميز بها بين الخير والشر، وبين العواطف الفاضلة والانفعالات السيئة. فالخير مجبول في النفوس والشر طارئ عليها. بل إنّ رسول الله ﷺ ليحدثنا عن الأحاسيس الانفعالية والنفسية الواعية التي يجدها المؤمن في قلبه من تأثير عمل الفطرة في كيانه الروحي والنفسي.

ففي مسند الإمام أحمد بن حنبل بإسنادٍ حسنٍ يقول الصحابي الجليل وابصة بن معبد رضي الله عنه: "أتيت رسول الله ﷺ فقال: "جئتَ تسأل عن البر؟ "قلت: نعم يا رسول الله، فقال: "استفتِ قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتَوْك."[1] وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال: "البر حُسن الخُلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس."[2] فالفطرة إذن مُلهَمة لإدراك الفرق بين الخير والشر وبإحساسها الموروث الذي يفرق بينهما.

تنشرح الصدور لهذا التصور لأنّه ينسجم مع فضل الله وكرمه. فالله لم يترك الإنسان ليولد في الأرض وتكون دوافع الخير والشر متساويةً في كيانه النفسي والروحي كما يقول بعض العلماء القدامى والمحدثون في تفسيرهم لقول الله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧-٨]، وكأنّ دوافع

(١) ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (توفي ٢٤١هـ). **مسند الإمام أحمد**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م، حديث رقم (١٨٠٠١)، ج٢٩، ص٥٢٨.

(٢) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم (٢٥٥٣) ص١٠٣٢.

الخير والشر متساويان (٥٠٪ مقابل ٥٠٪)، لكننا نقول بأنّ الله قد زود الإنسان بفطرة يتعرف بها عليه تعالىٰ وعلىٰ العواطف والأعمال الخيرة التي تقرّبه منه. فهو سبحانه دائم التفضّل علىٰ عباده، فالحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها أو يغفر. فإذا تمرد علىٰ هذه المنحة الربانية لم يتركه وشأنه بل أرسل عليه زواجر المصائب والبلايا الدنيوية لعلها ترجعه إلىٰ الله ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

فإذا لم يرتدع أرسل له رسلاً يذكرونه ويوقظون الفطرة الربانية التي تنكّر لها ونسيها. هذا التصور في التأويل أقرب إلىٰ تنزيه الله عزَّ وجلَّ من الشر فنقول كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، نسبوا الشر للمجهول، والرشد والخير لله تعالىٰ. وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة عن هذا التنزيه لله من الشر ومما يصيب الناس من أوجاع وآلام وكفر.

نستنتج من ذلك بأنّ استجابتنا لمثيرات العواطف التي تدعو إلىٰ الإيمان وإلىٰ مكارم الأخلاق، ومحاولاتنا الدؤوبة علىٰ كبح شهواتنا السيئة التي تؤدي إلىٰ الأخلاق المذمومة، تأتينا في البدء من هذه الفطرة التي فُطرنا عليها. ولكن هذه الفطرة كما أخبرنا المصطفىٰ ﷺ في الحديث الذي رويناه من قبل، قد يضعف أثرها أو قد تصبح غير ذات أثر بالكلية، إذا تعرضت للتشويه والتبديل من قبل البيئة السيئة وسطوة الوالدين وأولي النفوذ، لا سيما في مرحلة الطفولة. كما يضعف أثر الفطرة بسبب الاختلاط بأقران السوء وإدمان مشاهدة ما يقترفه الفسّاق من آثام، مثل ما تبثه وسائل الإعلام والإنترنت في عصرنا الحديث.

إذن، فالأثر الطيب للفطرة علىٰ سلوك المسلم وتمسكه بدينه هو حاصل نتاج التفاعل بين الدوافع الخيّرة للفطرة والمثبطات الشريرة للبيئة التي يعيش فيها، بالإضافة إلىٰ خصائص شخصيته الموروثة والمكتسبة، كدرجة انفعاليته وميوله العصابية وقدرته علىٰ مقاومة الشهوات، وفوق ذا وذاك درجة إيمانه. فلا يوجد في هذه الدنيا بيئة صالحة من كل الوجوه، ولا يوجد بين الناس العاديين من كمُل استعداده الموروث والمكتسب للانقياد الكامل لما فُطر عليه، لذلك كان لزاماً علينا ألّا نكفّ عن الاستغفار، فقد خلقنا الله تعالىٰ بشراً خطائين ليغفر لنا عندما نستغفر، فهو أعلم بنا منّا، وبالمعركة الأبدية بين ما فطرنا عليه من خير وما يصرفنا عنه من

أمور الدنيا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه: "لو أنكم لا تخطئون لأتى الله بقوم يخطئون فيغفر لهم."[1]

فإن كان أثر الخير الموروث في الفطرة هو ناتج التفاعل بينه وبين بيئة المؤمن، فإن أثر الفطرة يزيد وينقص حسب خصائص البيئة التي يعيش فيها. فكلما كانت البيئة صالحةً كان أثر الفطرة أكبر والعكس بالعكس. قد يبدو هذا التفاعل بين معركة الخير والشر في قلوب المؤمنين أمراً واضحاً يسهل التعرف على أبعاده، حتى تجرّأ بمحاولة قياسه واستخراج معايير له بعض المهووسين بالقياس النفسي من متخصصي علم النفس الحديث، لكنه في حقيقته أمر شديد التعقيد لا يعرف مداه إلا الله تعالى. ولأضرب لهذا القول مثلاً:

شخصان يسكنان على بعد مسافة واحدة من مسجد قريتهما، وهما حريصان على الصلاة في المسجد، لكن أحدهما يمشي للمسجد على أرضٍ منبسطة، والآخر يحتاج إلى صعود تلٍّ والنزول منه، ليصل إلى مسكنه، كما أنّ أحدهما يشكو من ألم في أقدامه عند المشي. بالإضافة إلى ذلك فإنّ أحدهما انفعالي سريع الغضب بطيء الرجوع إلى السكينة، إذا غضب يصعب عليه التركيز في صلاته، وفي كل ما يذكّره بالخواطر الطيّبة للفطرة التي فطره الله عليها. من مِنَ البشر يستطيع أن يقارن بينهما ويؤت كل واحد منهما ما قدمه من حسنات؟ ومن هو صاحب الدرجة الأعلى من الحسنات في هذا السباق الافتراضي؟ يستحيل هذا على بشر، خصوصاً إذا اشتملت المقارنة على المسائل الروحية كدرجة إيمانهما. الله عزّ وجلّ الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور قد ميّز نفسه بهذه القدرة حين قال في سورة الأنبياء في كتابه العزيز: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

نحن نعيش اليوم في بيئةٍ أصبح المنكر فيها معروفاً والمعروف منكراً، وكل ما حولنا يدعونا دعّاً لنبذ ما فطرنا عليه من خير. فمقاومة هذا التيّار الشرير أجرها عظيم بالمقارنة بمن يعيشون في بيئة صالحة. فمن ذلك ندرك قول الرسول ﷺ لبعض أصحابه: "إن من ورائكم

(١) الحاكم النيسابوري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (توفي ٤٠٥هـ). **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م، رقم الحديث (٧٦٢٢)، ج٤، ص٢٧٤.

أياماً، الصبرُ فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم"... قيل: يا رسول الله، أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: "بل أجر خمسين منكم"[1] وللحديث زيادة متداولة: "إنَّكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون على الخير أعواناً."[2]

نأتي الآن إلى الجزء المهم من هذا الفصل، ألا وهو تفضيل الأنبياء على سائر المسلمين، وكيف يستجيبون لمثيرات العاطفة الخيّرة التي تحركها الفطرة في نفوس الناس؟ نقول: إن كان الله قد زوّد المؤمنين بموهبةٍ موروثةٍ، يفرقون بها بين المثيرات البيئية التي تدعو إلى الخير، كما تساعد في رفض النزوات الشريرة، فكيف بالأنبياء الذين هم صفوة الله في خلقه، وهم أنقى الناس قلوباً وأكملهم عقلاً وأحسنهم خُلقاً وأجملهم شكلاً، وهم الذين تمّ اصطفاؤهم ليحتذي بهم الناس في كل ما يقولونه ويفعلونه ويجيزونه ويحرمونه بإذن الله. وهم الذين يتحملون ثقل الوحي ومشاق الدعوة. هذه العواطف والانفعالات التي تستثير كوامن الخير، قد غرست في كيانهم النفسي والروحي فيستجيبون لها دون وعي أو تكلّف. لكن الفطرة التي فُطر عليها سائر البشر لا تكفي للقيام بثقل مسؤولية النبوة الشاقة التي ألقيت على عواتقهم.

لذلك فقد منحهم الله تعالى العصمة، والعصمة لغةً هي الحفظ والوقاية والمنع من ارتكاب المعاصي. وقد اتفق العلماء على أنّ الأنبياء معصومون في تبليغ الدين، لا يكتمون شيئاً من الوحي، ولا يعتريهم النسيان فيما أوحي إليهم، ولا يزيدون عليه من عند أنفسهم...﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] كما أنهم معصومون من ارتكاب كبائر الذنوب.

واختلفوا بعد ذلك بالنسبة لارتكابهم صغائر الذنوب. قال معظمهم بأنّ صغائر الذنوب لا تدخل تحت باب العصمة، فلربما تقع منهم أو من بعضهم فيتوبوا ويغفر الله لهم ويزيدهم من فضله، واستدلوا على هذا القول ببعض ما ورد في القرآن الكريم كعصيان آدم عليه السلام... ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١-١٢٢] وما

(١) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (توفي ٢٧٩هـ). **جامع الترمذي**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٩م، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٨) ص٤٨٧.

(٢) هذه الزيادة أوردها ابن العربي، القاضي أبو بكر محمد بن عبدالله العربي المعافري الإشبيلي المالكي (توفي٥٤٣هـ). **أحكام القرآن**، علّق عليه: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ج٣، ص٣٨٨.

ورد عن سيدنا موسى عليه السلام عندما اعترف بذنبه وطلب المغفرة من ربّه بعد قتله للمصري. في المقابل قالت طائفة من العلماء وكثير منهم من المغاربة، وعلى رأسهم القاضي عياض صاحب كتاب "الشفا"، قالوا بعصمة الأنبياء من الصغائر، لكنهم في هذا الشأن قصروا جُلّ حديثهم عن عصمة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها.

كيف يمكن التوفيق بين هذين الموقفين؟ نتجرّأ في التعليق على هذا الأمر بالاسترسال في تأملاتنا عن الأنبياء، فنتساءل: هل ما ذكرناه عن التأثير المتبادل بين البيئة والوراثة وشخصية الفرد، وتفاعل هذا الخليط النفسي مع الفطرة التي تسعى لكبح جماح المسلم العادي من ارتكاب كبائر الذنوب، ما ينطبق على أثر العصمة في صدّها عن ارتكاب صغائر الذنوب لدى الأنبياء؟ نؤكد للقارئ بأننا ندرك جهلنا ووقوفنا في ساحلِ بحرٍ من العلم اللّدني والروحي الذي منحه الله عزّ وجلّ لأنبيائه، لكن في المقابل نجد في قبول جرأتنا سنداً من أنّ القرآن الكريم يحدثنا بأنّ الله تعالى قد فضل بعض هؤلاء الأنبياء على بعض، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]. وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فربما كان وراء هذا التفضيل اختلاف الرسل بالنسبة لهيمنة العصمة على سلوكهم. إنّ رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ قد فضله الحق سبحانه وتعالى على جميع الأنبياء، بل على جميع الخلق من إنسٍ وجنٍّ وملائكة، ومما لا نعلمه من الكائنات مما يحثنا على الاتفاق مع علماء المغرب القدامى بأنّه ﷺ قد فُضِّل على الأنبياء في عصمته من ارتكاب صغائر الذنوب، وبهبات روحية كإمامته للأنبياء في إسرائه، كما فُضّل عليهم بآيات معراجه التي لم يصل إليها نبي أو ملك، وفيما لا نعلمه من الهبات الأخرى، ولو أردنا أن نوفّي هذا البحث حقه لخرجنا عن موضوع دراستنا، لذلك نكتفي بالقول بأنّ النبي ﷺ الصادق المصدوق قد أخبرنا بنفسه عن هذا التفضيل بذكره لبعض ما قاله أو فعله أنبياء الله من قبله، وأنّه لوكان مكانهم لما قال ما قالوا، ولم يفعل ما فعلوا، إذ يبدو لنا بأنّ العصمة من الصغائر لم تمنعهم مما قالوا أو فعلوا.

فعندما تكاثر قوم لوط على نبيّ الله لوط عليه السلام طالبين عمل الفاحشة في ضيفيه، وآيس من استجابتهم لكل ما عرضه عليهم قال...﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ

رُكۡنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أي تمنى لو كان له عشيرة قوية تمنعه منهم، فعلّق الرسول ﷺ على استكانة لوط بقوله: "رحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد.[١] فلأيّ شيء استكان؟، وذكر ﷺ موسى عليه السلام وعدم قدرته على الصبر مع (الخضر) عليه السلام كما ورد في سورة الكهف، فقال رسول الله ﷺ: "رحمة الله علينا وعلى موسى ليته صبر حتى يقص علينا من أنبائهما". فعدم صبره عليه السلام قد حرمنا من معرفة مزيدٍ من معجزات (الخضر) كالتي وردت في سورة الكهف. فلو كان رسولنا مكانه لصبر. كذلك علق الرسول ﷺ على امتناع يوسف عليه السلام من الاستجابة لدعوة الملك له بالخروج من السجن؛ إذ قال ﷺ: "لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي."[٢] أي إنه يقبل الخروج من السجن ويترك أمر تبرئته لله تعالى الذي ابتلاه بالسجن وأنعم عليه بالخروج منه.

فإذا استطردنا مع تأملاتنا تلك نقول بأن ارتكاب بعض الأنبياء صغائر الذنوب، رغم ما آتاهم الله من هبات روحية، يأتي بسبب تأثير عوامل البيئة والوراثة، بالإضافة إلى خصائص شخصياتهم كبشر، بما فيها من قوة وضعف، ويبدو هذا الأمر أكثر وضوحاً عندما نستعرض الآيات القرآنية التي عاتب الله فيها أنبياءه على بعض ما فعلوه، وللقارئ أن يتمعن فيها ويقارن بينهم وبين أقوال رسولنا ﷺ وأعماله.

فهذا نوح في سفينته التي تجري بالمؤمنين في موج كالجبال، وهو يدعو ابنه الكافر العاق بأن يركب معهم ويلتحق بالمؤمنين، فيأبى ويموت كافراً. فتسيطر عاطفة الأبوة المفجوعة على نوح عليه السلام، فيدعو ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ فجاءه الرد الإلهي قويّاً سريعاً وكأنّه تأنيب ووعيد ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾فأدرك نوح خطورة دعائه فخضع واستكان بقولهَ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ونبئهم عن ضيف إبراهيم، حديث رقم (٣٣٧٢) ص٦٤٦.

(٢) المرجع السابق كاملاً.

قارن ذلك بموقف الرسول ﷺ مع من مات كافراً من أقاربه مثل عمه أبولهب، بل ومن بعض ما ورد من أحداث في هذا الشأن، كموقفه الغاضب عندما أتاه أسامة بن زيد ليشفع في إقامة حد السرقة على المخزوميّة التي ثبتت عليها السرقة، فقال الرسول ﷺ "أتشفع في حد من حدود الله؟... وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها."[1]

ولعلّ استبانة تفضيل رسولنا على بقية الأنبياء يظهر بوضوح، عندما يخبرنا القرآن الكريم عن بعض ما صدر منهم من الأعمال والأقوال والمشاعر التي أنّبهم الله عليها، ونقارن بينها وبين تلك التي وجهت لرسول الله ﷺ مسترشدين بما نعرفه من سيرته وشمائله. نرى نبي الله يونس ذا النون الذي ذهب غاضباً على قومه وتركهم بعد ما وعدهم بنزول عذاب الله عليهم، تركهم من قبل أن يؤذن له بذلك، يخبرنا الطبري في تفسيره بأنّ يونس عليه السلام كان في خلقه ضيق، ولعل لهذه الصفة شأناً في شدة غضبه وسرعة تصرفه. ثمّ تفكر في معصية داود عليه السلام، حيث تسرّع في الحكم للذي قال بأنّ أخاه أخذ نعجته من دون أن يستمع إلى حجة أخيه، فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب.

قارن هذا العتاب الرباني لأنبيائه بالأمور التي عاتب فيها سبحانه وتعالى رسولنا محمد ﷺ. تجد أنّ معاتبة الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام لم تكن في مجملها إلّا بسبب حرص النبي الشديد على هداية قومه، حرصاً أثّر على صحته، وفاق كل تصورات البشر عن الرحمة والحب والشفقة، حتى واساه الحق جلّ وعزّ بهذه الآيات الحنونة: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، و﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

في هذه الآيات يعبّر الله تعالى بنفسه عن شفقته وحبّه لرسوله الكريم، مشفقاً عليه من إهلاك نفسه بالحزن على من لا يستحقون هذه العواطف النبيلة، حيث تخبرنا سيرته العطرة ﷺ أنّه ظلّ مشفقاً راحماً على من ضلّ من قومه حتى بعد أن آذوه.

---

(١) انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ، حديث رقم (٣٤٧٥) ص٦٦٩.
- مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف، رقم (١٦٨٨)، ص٧٠٠.

كثيراً ما تساءلتُ عن قدرة الرسول ﷺ العظيمة على احتمال هذه العواطف الربّانية الرقيقة، فقد رأينا من قبل كيف طغت عاطفة الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سمع قول النبي ﷺ له: "أشبهت خَلقي وخُلقي"[1] حتى صار يقفز ويحجل كالأحباش من شدة الفرح والسرور، فكيف كان سيكون الأمر إذا كان القائل هو الله جلّ جلاله بذاته العليّة بعبارة تليق بعظمته؟ انظر كيف استجاب صحابي لأمرٍ مشابهٍ "بجرعةٍ مخففةٍ"، فعن أبي بن كعب أنه قال: أخبر النبي ﷺ صحابياً جليلاً أنّ الله تعالى أمره أن يقرئه القرآن ، فقال الصحابي: "يا رسول الله وذكرني وسمّاني باسمي؟" فقال الرسول: "نعم"[2] ففقد ذلك الصحابي التحكّم على عواطفه، فصار يتصرف كالذي فقد عقله إذ كان يبكي ويضحك في الوقت نفسه.

هذه النقلة الفجائية العظيمة من أشدّ حالات الحزن على من كفر به، حتى أصابه الهم والغم، إلى أعلى أحاسيس السرور والابتهاج الروحي بتسلية الله سبحانه وتعالى له... كيف احتمل النبي هذا التحول العاطفي؟ حقاً إنّ الله يعلم حيث يجعل رسالته. وحقاً ما ذكره رسول الله عن مقدرته العاطفية والروحية واحتماله لما لا نعلمه مما غُيّبَ عنّا بقوله: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً."[3] وفي رواية الترمذي قول الرسول ﷺ: "والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله تعالى."[4]

وحتى العتاب الشديد الذي تعرّض له رسول الله ﷺ في سورة "عبس"، واتخذه بعض من قال بارتكاب الأنبياء للصغائر دليلاً على ارتكابه ﷺ للصغائر، لَيَدُل في حقيقته على حرص النبي الشديد على نشر دعوته وعلى المستوى الخلقي الرفيع، الذي لا يمكن التحلي به إلا بالنسبة

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب جعفر بن أبي طالب الهاشمي، قبل حديث رقم (٣٧٠٨) ص٧١٠.

(٢) المرجع السابق، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب أبي بن كعب حديث رقم (٣٨٠٩) ص٧٢٤.

(٣) المرجع السابق، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ حديث رقم (٤٦٢١) ص٨٧٩.

(٤) الترمذي، **جامع الترمذي**، مرجع سابق، كتاب الزهد، باب في قول النبي: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، حديث رقم (٢٣١٢) ص٣٨٢.

لسيد الأنبياء. فقد كان النبي موجهاً كل اهتمامه بالوليد بن المغيرة آملاً في هدايته للإسلام ومعه صناديد قريش، فيأتي ابن أم مكتوم الفقير الأعمى مقاطعاً كلام الرسول وطالباً منه ﷺ أن يعلمه مما علمه الله، بتكرارٍ وإلحاحٍ شديدٍ كرهه رسول الله ﷺ، فأعرض عنه وعبس، فنزلت سورة "عبس" تعاتب النبي علي توليه وعبوسه. تمعّن أيها القارئ الكريم في استجابتنا الطبيعية في مثل هذه المواقف، تركز اهتمامك الفكري والعاطفي على أمرٍ عظيمٍ قد يكون له عواقب ذات أهمية كبيرة لك، تناقشه مع أصحاب القرار، فيأتي شخص مستضعف يقاطع حديثك طالباً منك المعونة العاجلة على أمر، كان يمكنك مساعدته فيه بعد انقضاء حديثك المهم، ولكنه يكرر طلبه بإلحاح. ماذا ستفعل بعد أن ينصرف القوم؟ الغضب والصياح وربما حرمانه مما طلب. كل هذه أمور قد تتقبلها مجتمعاتنا كاستجابة مقبولة. ماذا فعل النبي ﷺ؟ فقط عبس وتولى عن شخص لا يرى عبْسُهُ ولا توليه، لأنه أعمى! لم يعبّر النبي عن نفسه بكلمات أو بصوتٍ يفصح به عن ضيقه بإلحاح ابن أم مكتوم، لأنه لم يكن أصمَّ فقد يسمع ما يؤذيه ويحرجه، وهذا أمر لا يمكن أن يصدر عن نبي الرحمة.

أذكّر القارئ بأننا كنّا نتحدث قبل هذا الاستطراد عن الصنف الثالث من مثيرات العواطف التي تدعو إلى مكارم الأخلاق، وقلنا بأنها مركوزة في جبلّة الأنبياء يطبقونها دون عناء أو تكلف. أما عامة المسلمين فلا مناص لهم بغير مقاومة فجور النفس وأنانيتها التي فطرهم الله عليها، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً. لذلك أجد نفسي مدفوعاً إلى التوقف قليلاً مع هذه الطائفة من مثيرات الانفعال لأهميتها القصوى بالنسبة لسلوكنا الأخلاقي في عالمنا المادي الحديث، ذلك لأنّ رحى مكارم الأخلاق لا تدور إلّا على تحكم المرء على انفعالاته؛ بكبح الشهوات والجوانب السيئة في الانفعالات كالغضب والحسد والجبن والأنانية، والتحلي بتلك التي عدّها العقل والشرع من محاسنها، كالرحمة والشفقة والكرم والتضحية والشجاعة وكظم الغيظ، وهذه الصفات هي المعايير التي تقاس بها معادن الرجال، حتى يتبوّؤا مراتب القيادة في البلاد التي تعرف قدر الرجال.

من يعرف قدر الرجال مثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ فعندما أراد أن يكلّف صحابياً بولاية ما، حرص أن يتأكد أوّلاً عن تحلّيه بالصفات التي فصلناها عن

العواطف التي تدعو لمكارم الأخلاق، وقدرته على التحكم على شهواته وكظمه للغيظ، فسأل عمّن يعرفه فيزكيه له، وعندما زكّاه من ظنّ به خيراً، سأله عمر رضي الله عنه إن كان يعرفه حقّ المعرفة؟ وعندما أجاب الرجل بالإيجاب، اختبر عمر معرفته بأن سأله إن كان جاراً له، أو إن كان قد تعامل معه بالدرهم والدينار، أو كان قد رافقه في السفر. وعندما أجاب المسؤول بالنفيّ قال له عمر: "اذهب فإنّك لا تعرفه" وقال له: "لعلك رأيته في المسجد يقول برأسه هكذا"، وأومأ عمر بحركة الركوع. أي إنّه رآه يصلي وحكم عليه بالصلاح للولاية.[1] وهذه القصة تدل على عمق معرفة عمر بن الخطاب الفطرية بأهمية هذه الطائفة من الانفعالات في التعرف على معادن الرجال فهو المُلْهَم المُحَدّث كما وصفه رسول الله ﷺ.

ذلك بأنّ تحكّم المرء في هذا الجانب العاطفي من شخصيته هو المحك الأساسي لمعرفته، وذلك لا يتم إلّا بالمعاشرة الدقيقة، كأن تجاور الرجل، فتسمع وأنت في جوف بيتك صياحه عندما يغضب على زوجته وأطفاله، أو بعض حديثه العذب معهم، وتعلم من تعامل أهله وأطفاله مع أهلك وأطفالك ما يزودك بمعرفته حقّ المعرفة. كذلك السفر الطويل الذي يعاني منه المسافر في العهود الماضية، من شتّى أنواع المشقات التي تُظهِر للعيان ما خبأه من سرعة نفاذ صبره، وأثَرَتِه أو استيلاء الخوف عليه من أخطار السفر الحقيقية والمتوهّمة. والتعامل بالدرهم والدينار يكشف في الحال إن كان هو الذي يملك المال ويستعبده، أم أنّ المال هو الذي يملكه، تماماً كما يكشف الحاذق إن كانت الدراهم صحيحة أم مزيفة. والتعامل الصادق في المال يعتمد بالطبع على قدرة الشخص في كبح عواطفه وانفعالاته الدنيئة.

إنّ الانفعالات والعواطف المستقبحة لا يمكن إخفاؤها عن الذين يعيشون مع مثل هؤلاء التعساء. فهي لا تأتي ببغض الناس في الدنيا وعذاب الله في الآخرة فحسب، بل إنّها لا تعود على الفرد بما توهّمه من نيل سعادةٍ وهناءٍ ومتعةٍ. ذلك بأنّ رغباته الأنانية التي جُبِلَ عليها وأطلق لها عنان فرسها، تزداد مع الزمن بينما يضعف لجام كبح شهواتها حتى يصبح سجيناً لمطالب لا يمكن تحقيقها، ومخاوف لا يستطيع تجنبها، بالرغم مما أوتي من سلطة على

(١) أورد هذه القصة الحكيم الترمذي، أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن بن بشر (توفي ٣٢٠هـ). **أدب النفس**، تحقيق: أحمد عبدالرحيم السائح، مصر: الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٣م، ص٧٩.

رقاب المستضعفين، وما اكتنزه من مالٍ، بل إنّ المال والسلطة لتمسي وقوداً لنار شقائه: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

لذلك كان رسول الله ﷺ يكثر من الاستعاذة من هذه الخصال المسترذلة بدعاءٍ جامع أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، حين قال إنّ الرسول كان يكثر من قول "اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضَلَع الدَّيْن وغلبة الرجال."(١)

لقد أُعْطِي النبي ﷺ جوامع الكلم، ففي هذه الكلمات القليلة يلخص بهذا الدعاء أهمّ الانفعالات والعواطف السيئة التي قد تسيطر على المرء إذا لم يسيطر عليها. ففي لغتنا النفسية الحديثة: الهمُّ هو ما اصطلح على تسميته بالقلق Anxiety، وهو الشعور بالتوتر والخوف مما يمكن أن يحدث في المستقبل من مشاكل ومصائب، أما الحزن فهو الشعور بالحسرة والبؤس واليأس مما حدث في الماضي بسبب فقد عزيز أو فوات مرغوب فيه، ومن أوضح الأعراض التي تصاحب الحزن والاكتئاب إحساس المرء بالعجز والخمول Retardation الذي يعدّه الأطباء النفسانيون أحد أهمّ أعراض الاكتئاب.

ومن الجدير ذكره أنّ الغالبية العظمى ممن يلجؤون للعيادات النفسية اليوم يشتكون من أعراض هذين الاضطرابين: الهم والحزن. أي من أعراض القلق بالنسبة للمستقبل، أو الحزن والاكتئاب على ما فات. أمّا المؤمن المتوكل على الله الذي أعاذه الله من سيطرة هاتين البليتين، فإيمانه بالقدر يخفف عنه آلامه النفسية على ما فقده في ماضي حياته، كما أنّ يقينه بأنّ المستقبل بيد الله وليس له قدرة على تغييره يريحه كثيراً من استيلاء الهم على فكره وقلبه، فكما قيل: "ما مضى فات والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها."(٢)

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم، حديث رقم (٦٣٦٧) ص١٢٢٣.

(٢) المستعصمي، محمد بن أيدمر (توفي٧١٠هـ). **الدر الفريد وبيت القصيد**، تحقيق :كامل سلمان الجبوري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠١٥م، ج٤، ص٥٠٦. وعزاها إلى الشاعر الأديب أبي إسحاق إبراهيم بن عثمان بن محمد الغزي، رقم (٥١٣٠) ورقم (١٣٤٦٩). وأوردها الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني (توفي ١٠٩٣هـ)، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش- محمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م، ص٥٧١. ونسبها بعضهم في غير هذه الكتب إلى أبي إسحاق الفزاري.

لذلك نجد أنّ العلاج النفسي للمضطربين نفسيّاً من المؤمنين يؤتي ثماره في وقت قصير، إذا استطاع المعالج النفسي أن يصيغ علاجه بهذا التصور الإسلامي. فخبرتي الشخصية خلال النيف وستين عاماً الماضية مع مرضى اضطرابات القلق والاكتئاب من المسلمين، أقنعتني بسطحية العلاج النفسي الغربي والعقاقيري، وقلة استدامة فوائده بالمقارنة بالعلاج النفسي الإسلامي المعرفي Islamic Cognitive Behavior Therapy، ولي في هذا الموضوع أبحاث منشورة في دوريّات علم النفس والطب النفسي الغربية والعربية، ليس في هذا الكتاب مجالٌ للاسترسال فيها.

أمّا الجبن والبخل فصفتان مرتبطتان ببعضهما كالوجهين لعملة واحدة. فالجبان هو من يضن بنفع الآخرين ببذل النفس، والبخيل من يضن بنفع الآخرين ببذل ماله. كلاهما عَرَض من أعراض سيطرة حب الذات والأنانية على من اتصف بهما. أمّا قهر الرجال بسبب الدَّين أو غيره، فيذكّرني باضطراب الخوف من المواقف الاجتماعية، لا سيما تلك التي ترتعد فيها فرائص الشخص المُستَضعف أو الذي قَـبِلَ بالاستضعاف أمام رجال يتمتعون بالقهر والسلطة. وهذا الخوف من مجابهة المواقف الاجتماعية هو من أكثر الاضطرابات النفسية شيوعاً في عصرنا الحديث.

أما أولئك الذين تحلّوا بالعواطف المستحسنة، فهم قوم قد وُهِبوا مكارم الأخلاق. وما ارتقى هؤلاء في مدارج السالكين من بعد ذكر الله إلّا بحرصهم على تعويد أنفسهم على محاسن العواطف والانفعالات، وكبحهم لسيئها من شهوات النفس الأمّارة بالسوء والأنانية، فروّضوها حتى أضحت كالدابة الذلول، يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس ويرحمون المسكين والصغير، ويساعدون ذا الحاجة، وينصرون المظلوم. استمع في ذلك لقول أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد، وهي تؤازر النبي ﷺ وتثبته بعد أول لقاءٍ مرعبٍ له مع جبريل عليه السلام؛ إذ قالت رضي الله عنها: "كلَّا! والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدُقُ الحديثَ، وتَحمِل الكَلَّ، وتَكسِبُ المعدومَ، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق."[1]

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب بدء الوحي، بابٌ، حديث رقم (٣) ص٢١.

هذه شمائله ﷺ قبل أن يُبعث نبيّاً، أما بعد بعثه فقد أصبح خُلُقه القرآن، يرضىٰ لرضىٰ الله تعالىٰ، ويسخط لسخطه، فعندما سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ؟ قالت: أتقرأون سورة المؤمنين؟ قيل: نعم، قالت: اقرؤوا، فقرئ عليها ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ حتىٰ بلغ يحافظون.[1]

(٢) انظر: القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد (توفي ٦٧١هـ). **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق سمير البخاري، الرياض: دار عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٣م، ج١٢، ص١٠٢.

الفصل الخامس

تأمُّلات حول اختيار الله للبيئة والوراثة المناسبة لكل نبي

مقدمة

هذا الفصل يتحدث عن موضوع مهم شائك معقد، شغل علماء النفس لسنين طويلة، وما زالت البحوث التجريبية والميدانية والإحصائية في ميدانه تسعى جادةً لتكشف لنا بعض مما خفي علينا من ملامحه، ذلك هو مبحث أثر البيئة والوراثة في تشكيل سمات الشخصية، وما يصدر عنها من عواطف.

لقد أشرنا إلى هذا الموضوع بشكلٍ عام في فصول سابقة، ونركز تأملاتنا في هذا الفصل على الحكمة الإلهية في اختيار البيئة والوراثة الملائمة لأنبيائه وللرسل الذين اصطفاهم لتبليغ رسالاته، وسوف نبذل جهدنا لتبسيط الجانب العلمي لهذا الميدان، ونكتفي بالعرض المبسط الواضح. ذلك لأنّ هذا الميدان قد اكتنفته كثير من التخرصات والمبالغات التي لا تستند إلى إثبات حقيقي. فحتى في علم النفس الحديث نجد مثل هذه المغالاة التي تجاوزت حدود المعقول، لا سيما في كتابات المتعصبين لمدارسهم، التي تمجّد البيئة، أو تلك التي تعظم من أثر الوراثة.

فواطسن Watson مؤسس المدرسة السلوكية المعروفة بتعصبها للبيئة كان يفتخر بقوله: إنه لو أعطي طفل صحيح الجسم، فإنّه على يقين من أنّه يستطيع أن يستخدم قدراته السلوكية البيئية ليربي هذا الطفل ليصبح طبيباً أو محامياً أو فناناً أو تاجراً أو حتى شحاذاً أو مجرماً، بغضّ النظر عن مواهبه وقدراته أو أصوله العرقية. تجد هذا الادِّعاء في كتابه عن السلوكية بعنوان Behaviorism.[1] وفي المقابل، نجد مثل هذه المبالغات في كتابات المتعصبين للجانب الوراثي في تشكيل السلوك الإنساني؛ إذ نقرأ في الدوريّات والمجلّات الغربية تلخيصاً مخلاً لأبحاث هؤلاء المتعصبين، يزعمون فيها بأنهم اكتشفوا جيناً أو مورثاً للسعادة أو السلوك الإجرامي أو لغيرهما من أشكال السلوك الإنساني، الذي أثبتت الأبحاث العلمية أنّ للبيئة التي أنكروها

(1) Watson, J.B. *(1930) Behaviorism*,University of Chicago Press, 1930 – P. 82.

نصيب الأسد في تكوينها، وللوراثة في هذا الأمر دور ثانوي. وللقارئ ذي الاهتمام بهذا الموضوع أن يطّلع على كتب علم البيولوجيا الاجتماعية Sociobiology وعلم دراسة سلوك الحيوانات في بيئتها الطبيعية Ethology وعلم النفس التطوري، فهي تذخر بمثل هذه المغالاة في تضخيم دور الوراثة، فعلماء هذه الطائفة من الإحيائيين هم طلّاب أستاذهم وكبيرهم داروين الذي دأب على تفسير السلوك الإنساني من منظور نتائج دراساته على الحيوان.

وهناك طائفة أخرى لهؤلاء الغلاة يتزعمها العنصريون الذين يعتقدون بالتفوق الوراثي لجينات الجنس الأوروبي، بالمقارنة مع بقية البشر من الأفارقة والآسيويين. فالرجل الأبيض حسب تصورهم قد تفوّق على الأسود؛ ليس لأنّه يعيش في بيئة تشجعه على الإنتاج وتطوير العلوم التجريبية والتكنولوجيا، بل لأنّه يمتلك الجينات المتطورة التي حرم منها الأفارقة! فتجدهم يستخدمون كل أشكال الحيل الذكية لإيهام المُطّلع على إفكهم بأنّه يقوم على أسسٍ علمية.

إذا استبعدنا مغالاة الوراثيين والبيئيين، وتحرينا الدقة في التثبت العلمي، فسوف نجد بأنّ التأثير الوراثي القطعي المباشر على سلوك الإنسان، ينحصر بشكل عام في الجوانب العضوية، من مثل اختلال الكروموسومات الذي يؤدي إلى الإصابة بالتخلف العقلي المعروف بمتلازمة داون Down's Syndrome. أمّا فيما عدا ذلك فسنجد أنّ لكلٍّ من البيئة والوراثة دوره في تشكيل السلوك، وأنّه في أكثر الحالات تتشابك هذه الأدوار حتى ليصعب على الدارس التأكد من أنّ الصفة التي يدرسها قد أتت من البيئة التي عاش فيها الأفراد، أو مما ورثوه من الآباء والأجداد. لذلك فقد دبّر العلماء أساليب وحيلاً بارعة للتعرف على مدى تأثير البيئة أو الوراثة على السمات والخصائص النفسية التي يدرسونها. من ذلك ما ذكرناه من قبل عن تلك الدراسات التجريبية التي قارن فيها علماء النفس بين التوائم المتطابقة والتوائم المختلفة؛ لإماطة اللثام عن تأثير الوراثة في الإصابة بمرض الفصام العقلي، كما استخدم العلماء التكنولوجيا الحديثة والتصوير وأجهزة الكمبيوتر في أبحاثهم التجريبية، لا سيما تلك التي طبقوها على الأطفال حديثي الولادة.

أثبتت هذه الدراسات أنّ للوراثة دوراً مهمّاً -قلّ أو كثر- عندما تتفاعل مع البيئة في تشكيل الذكاء العام والانطواء والسلوك الانفعالي لدى الإنسان.

تأمُّلات حول الوراثة والبيئة في تكوين صفات الأنبياء

على الرغم من أنّ موضوع المقارنة بين تأثير البيئة والوراثة قد يبدو وكأنّه من الموضوعات التي أثارها العلم الحديث، إلا أن هذا المبحث له أصول تاريخية إسلامية قديمة. استمع إلى قصة الصحابي الجليل أشج عبد القيس عندما قدم إلى المدينة مع بعض أصحابه للسلام على الرسول ﷺ. فعندما وصلوا تسابق القوم يسلمون على الرسول ﷺ، لكن الأشجّ تريث حتى نفض عن جسمه غبار السفر، وخلع ثوبه ووضعه في مِخلاته، وأخرج ثوباً نظيفاً ولبسه، ثمّ أقبل يمشي بهدوء إلى الرسول ﷺ. كان الرسول ﷺ يتابع ما قام به ولعل ابتسامة الرضا قد كست وجهه الشريف، فقال له كما جاء في صحيح مسلم: "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ."[1] فقال الأشج: "أخُلُقين تخلَّقتُ بهما، أم جبَلني الله عليهما؟ فقال الرسول ﷺ: "بل جبَلَك الله عليهما"، فقال: الحمدُ لله الذي جبَلَني على خلُقين يحبُّهما الله ورسولُه."[2] انظر إلى هذا السؤال: "خلقين تخلقت بهما أم جبلني الله عليهما؟" بلغة اليوم قال الأشج: هل اكتسبت هذين الخلقين عن طريق الوراثة أم البيئة؟

نعود بعد هذه المقدمة إلى تأملاتنا حول الاختيار الربّاني الحكيم للبيئة الملائمة والوراثة اللائقة لتربية من انتقاهم ليكونوا أنبياءه ورسله للناس. ولكي تكون تأملاتنا واضحة تجنبنا اللغة ذات الصبغة التجريدية والتخصصية. فبالرغم من الاختلافات الجسمية والنفسية بين أنبياء الله كبشر، إلا أنهم جميعاً يتميزون بصفات وَهْبية لخصها العلماء في أربع صفات، كنا نرددها منذ أن كنّا أطفالاً في المدارس الابتدائية، ألا وهي: الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة. فإذا دققنا النظر في هذه الصفات، وحاولنا تحليلها، لوجدنا أنّ فيها منحاً ربانية ثابتة، كالعصمة والقدرة على تَحَمُّل ثقل الرسالة، وأخرى وراثية كهيئة أبدانهم وبعض جوانب شخصيّاتهم الموروثة، وثالثة امتزج فيها أثر الوراثة مع البيئة التي اختارها ربنا عزّ وجلّ لتربية أنبيائه.

---

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله، حديث رقم (١٧) ص٤١.

(٢) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (توفي ٢٧٥هـ). **سنن أبي داود**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٩م، كتاب الأدب، باب قبلة الرجل، حديث رقم (٥٢٢٥)، ص٥٦١.

فمن الناحية الوراثية يستحيل على أنبياء الله ما قَبُحَ من الصفات الخَلْقِية والنفسية كالبرص والجنون ودمامة الوجه وقصر القامة المعيب أو طولها المشين، كما يلزم أن يكون النبي حسن الوجه والصوت. وسوف نناقش فيما يلي أهم الهبات الربّانية العامة لجميع رسله وأنبيائه التي قدمناها بأسلوب مبسط وبمفاهيم واصطلاحات حديثة. فبالإضافة إلى توريث الأنبياء ما حَسُنَ من الصفات الخَلقِية، اخترنا أن نتحدث عن الهِبة الروحية والقوة الجسمية والذكاء والتفكير الخلّاق ونبل النسب المَحْتِد، وذلك تمهيداً لتأملاتنا في الفصل القادم عن حكمة الله تعالى في الاختيار الحكيم للبيئة والوراثة الأكثر تفصيلاً لسيرة نبيين هما: موسى ويوسف عليهما السلام، لما ورد من تفصيلٍ لحياتهما في القرآن الكريم، لعل ذلك يمنحنا عمق التفكر في حكمة الله تعالى، وحسن الظنّ به عزّ وجلّ في كل ما يحدث لنا مما قدّره علينا.

الوراثة الروحية

عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ و٣٤]. وقوله عن سيدنا إبراهيم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٨].

عندما أقرأ هذه الآيات تقودني تأملاتي إلى التساؤل عن احتمال وجود مورثات أو "جينات" روحية، كالجينات البيولوجية التي تنقل لنا الصفات الجسمية وبعض الصفات النفسية، وأنّ هذه المورثات الروحية مغروسة في خَلْقِ الأنبياء وتكوينهم، وأنها تُوَرّث لأبنائهم، وإلّا فما هي الحكمة الإلهية من هذا الاصطفاء.

فالجينات البيولوجية تأتينا من الوالدين والأسلاف والأجداد، فتوَّرثنا الصفات الجسمية كالطول وملامح الوجه ولون البشرة وغيرها من الخصائص المادية، كما تتفاعل مع البيئة

لتورّثنا بعض الخصائص النفسية كالذكاء والانطواء وحدة الانفعال، التي قد تُعبّر عمّا ورثناه من شدة استجابات أجهزتنا العصبية المستقلة كما وضحنا ذلك في فصلٍ سابق. فكل هذه الصفات الوراثية الأصل تفسرها لنا العلوم الحديثة.

ولكن هل يا ترىٰ هناك جينات وموروثات روحية تنتقل من الآباء للأبناء يهبها الله تعالىٰ لمن اختاره، فتستخرج من قلوبهم حظوظ الشياطين وتُهَيّئُهم لتلقي الوحي وتَحَمُّل مشاقّه، وأنها بطبيعتها الروحية بعيدة كل البعد عن كل ما هو مادي وحسّي، فليس للبحث العلمي المادي سبيلٌ إلىٰ معرفة كنهها؟ وهل يا ترىٰ كان لهذه الموروثات دور في تفاضل الأنبياء؟ وهل يا ترىٰ هي كالجينات المركّبة المادية Multiple genes التي تورث الطول ولون البشرة، فهي موجودة في كل الناس بكميّات متفاوتة، كلما ازداد عددها ظهر تأثيرها الجسمي، وتبعاً لهذا التصور كلما ازداد عدد هذه الجينات الروحية في الإنسان أصبح أكثر شفافية وروحانية؟ وهل تفسر لنا هذه النظرية تفاوت الناس في قدراتهم التلباثية Telepathic كالأحلام المنامية التنبؤية، التي يراها النائم، ثمّ تحدث في المستقبل للشخص الموهوب كما رآها في منامه أو صدق حدسه وإلهامه أو فراسته أو غيرها من القدرات غير المادية؟ وهل تزداد هذه القدرات بالعبادة والتفكر رغم أنها هِبات قد يرزقها الله تعالىٰ للناس كافة بأقدار متفاوتةٍ؟

فهذه المؤّرثات المفترضة هي من أهم صفات الأنبياء التي تمكنهم من تلقي الوحي من السماء، وذلك لأنني أجد بعض التأييد لهذا التصور فيما ورد عن النبي ﷺ في شأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فتصوري لوجود الموروثات الروحية يقول بأنّ هذه الموروثات هبة من الله تعالىٰ، وليست بالضرورة أن تكون مرتبطة بعمق التدين وعلو المرتبة الدينية، هذا بالرغم من أن العبادة ومداومة الذكر قد تزيد من تأثيرها الروحي.

فالمسلم الذي يرث نسبةً عاليةً من هذه الجينات الروحية أو يكتسبها بهبةٍ من الله عزّ وجلّ، تزداد قدرته علىٰ استقبال ما يدور حوله من الأنشطة الروحية وكأنه "رادار" روحي، وهذا ما يطلق عليه باصطلاح (المُحَدَّث). استمع بعد ذلك لهذا الحديث النبوي الكريم الذي رواه البخاري عن أبي هريرة، وهو يصف قدرات عمر بن الخطاب الروحية: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثُونَ فإن يك في أمتي أحد فإنّه عمر."[1] وفي حديثٍ آخر رواه

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ، حديث رقم (٣٤٦٩) ص٦٦٨.

أبو هريرة يصف النبي ﷺ المُحَدَّثين في بني إسرائيل بأنّهم رجال "يُكَلَّمُونَ من غير أن يكونوا أنبياء."[1] ليس هذا فحسب بل إنّ الإمام أحمد والترمذي قد رويا عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب."[2] لقد أثارت هذه الأحاديث الشريفة كثيراً من العلماء وعامة الدارسين، حيث تساءل الجميع: كيف يكون عمر بن الخطاب في هذه المرتبة ولا يكون أبو بكر الصديق، رغم تأكيد الأحاديث النبوية على تفضيل أبي بكر على عمر وعلى جميع صحابة رسول الله، منها الحديث الشريف الذي رواه البخاري؛ إذ يقول المصطفى ﷺ: "إن مِنْ أَمَنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته."[3]

كما أكد عمر بن الخطاب نفسه هذا التفضيل بقوله: "أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ." [4] وعندما اشتد المرض على رسول الله فلم يستطع المشي إلى المسجد قال: "مُروا أبا بكر يصلي بالناس"[5] مما يدل على أفضليته على عمر وعلى جميع الصحابة.

وفي الحقيقة فإنّ كثرة الأدلة على هذه المكانة لأبي بكر -صاحب النبي في الغار والسابق في قبول الإسلام- صارت كالحقائق الدينية المسلَّم بها. لذلك ثار هذا التساؤل وصار للبعض وكأنّه شبيه بالتنافر المعرفي Cognitive Dissonance الذي كنّا ندرسه في علم النفس، وهو التوتر الذي يصيب الفرد عندما يجد نفسه مضطراً إلى الوقوف حائراً بين موقفين متناقضين. ففي هذه الحالة قد يخفف الشخص من توتره بمحاولة إنكار صحة إحداهما، أو الطعن في مصداقيته، أو يستخدم الحيل النفسية التي تأتي بالتواؤم بينهما.

---

(١) المرجع السابق، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، حديث رقم (٣٦٨٩) ص٧٠٤.

(٢) الترمذي، **جامع الترمذي**، مرجع سابق، كتاب المناقب، بابٌ، حديث رقم (٣٦٨٦) ص٥٧٧.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب فضائل الصحابة، باب سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر، حديث رقم (٣٦٥٤) ص٦٩٨.

(٤) الترمذي، **جامع الترمذي**، مرجع سابق، كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق، حديث رقم (٣٦٥٦) ص٥٧٣.

(٥) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، حديث رقم (٦٧٨) ص١٤٤.

لذلك نجد أن البعض قد طعن في صحة الحديث أو ضعّف إسناده، رغم أنّ صحته تأتي من مكانة رواته كأحمد بن حنبل والترمذي، كما صحّحه كبار المُحَدِّثين مثل الألباني. وحاول البعض مثل ابن حجر "تخفيف التوتر" بإيجاد المسوّغات لاختيار عمر، رغم فضل أبي بكر بأنّ عمر كان قويّاً في إحقاق الحق، وأنه كان ملهماً، يرىٰ الرأي فينزل به القرآن. فقد أخرج مسلم عن ابن عمر قول أبيه: "وافقت ربّي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارىٰ بدر، وفي مقام إبراهيم."[1]

من هنا كان تصورنا لوجود جينات روحية كافياً لتفسير اختيار الرسول ﷺ لعمر رغم فضل أبي بكر عليه. فعمر مُحَدَّث بفضل ما ورِثه من هذه المورثات الروحية التي وضعها الله تعالىٰ في جِبِلَّتِه، هبةً منه تعالىٰ، مثلما أعطاه طول القامة وقوة الجسم. فهذه الهبة الربّانية ليست دليلاً علىٰ المكانة الدينية، فقد تجدها في أشخاص رقيقي التدين. فهي في قدراتها الحاسيّة تعمل كما يعمل "الرادار الروحي". فنحن لسنا الأحياء الوحيدين في الأرض، فهذا الكون يموج بالملائكة والجن وما لا نعلمه من الكائنات الروحية. فوجود مخلوقات روحية تعيش معنا قد أصبح مقبولاً عند كثير من العلماء والمفكرين من شتىٰ أقطار المعمورة.

إنّ الهبة الربانية التي كانت لعمر هي التي مكّنته من اختراق حجب المكان والزمان، فكان ملهماً يُلقىٰ الصواب في روعه، وكأنّ الملائكة تكلمه. فمن ذلك قصته المشهورة التي ذكرناها باختصارٍ في فصلٍ سابقٍ عن الصحابي سارية بن زنيم أمير جيش المسلمين الذي كان يقاتل المشركين في بلاد الفرس، حين تكاثرت الفرس علىٰ المسلمين وحاصروهم في منخفضٍ من الأرض، في حين كان للفرس حصن في قمة جبل. عندها أيقن سارية بضعف موقفه ولم يهتد إلىٰ خطةٍ تنقذه وجيشه من هذا الموقف الحرج. في هذا الوقت كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يلقي خطبة الجمعة في مسجد رسول الله في المدينة المنوّرة فإذا به ينادي بأعلىٰ صوته: "يا سارية بن زنيم الجبل...يا سارية الجبل" فسمع سارية نداء عمر، وصعد بجنوده الجبل وكان له النصر. فصياح عمر لسارية يمكن تفسيره علىٰ أساس كونه مُحَدّث، أما نقل صوته لسارية فهو من تكريم الله له ولسارية وللمقاتلين المسلمين.[2]

---

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر، حديث رقم (٢٣٩٩) ص٩٧٦.

(٢) تقدم توثيقها ص٤٩.

نختتم تأملاتنا لهذه الفقرة بتصورنا أنّه من دون تكاثر هذه الموروثات الروحية لدى الأنبياء لتعذر عليهم تلقي الوحي، وأنّ هذه الموروثات بما لها من خصائص الجينات الوراثية أمكن توريثها للأبناء، لذلك ربما كان ذلك سبباً لحصر النبوة في آل عمران وفي إبراهيم وذريته. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٤ – ٨٧].

وكذلك اكتساب الأنبياء كثيراً من الأمور من آبائهم بالملاحظة والملازمة، فضلاً عن التهيئة الربانية لتحمّل مهام النبوة والرسالة، والصور القرآنية مسترسلة في هذا الشأن، كما نجدها في شخصيتي إبراهيم وإسماعيل، ويعقوب ويوسف، وموسى هارون، وداوود وسليمان، عليهم السلام.

أهمية قوة الأنبياء الجسمية

إنّ قوة أجسام الأنبياء الموروثة لها أهميتها في القيام بالتبليغ والصبر على أذى أقوامهم، كما وأنّ لها ضرورتها في تَحَمّل ثقل الوحي: مادياً ومعنوياً ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. وفي ذلك تخبرنا سيرة نبيّنا وسيدنا محمد ﷺ أنه كان عندما يتنزل عليه الوحي يزداد وزنه بشكلٍ خارق، ففي صحيح البخاري أنّ النبيّ ﷺ تنزّل عليه الوحي يوماً وكانت فخذه على فخذ الصحابي الجليل زيد بن ثابت، فقال زيد: إن فخذ النبي ثقلت عليَّ حتى خفت أن ترضّ فخذي.[1] كما ورد في شتى المصادر أنّه عندما ينزل عليه الوحي وهو على ناقته فإنّها لا تستطيع الوقوف بل تبرك، وتمد عنقها في الأرض، ويكون لها رغاء من شدة ثقل ما تجده خلال تَنَزُّل الوحي.[2]

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ، قبل حديث رقم (٣٧١) ص٩٤.

(٢) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (توفي ٤٥٨هـ). **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية ودار الريان، ط١، ١٩٨٨م، ج٧، ص٥٣. عن أم المؤمنين عائشة قالت: (إن كان لَيُوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على ناقته فتضرب على جرائها من ثقل ما يوحى إليه...).

ومن الأدلة على قوته ﷺ صعوده ونزوله المتكرر لغار حراء في أعلى جبل النور على ارتفاع يربو على ٦٥٠ متراً. فللوصول إليه يحتاج المرء إلى تسلق أماكن عمودية في الجبل، مما دعى السلطات السعودية لمنع الشركات من زيارة الحجاج للغار تجنباً لاحتمال تعرضهم لمخاطر الصعود ولإصابة بعضهم بالإعياء أو لنقص الأكسجين. ولي في هذا الشأن تجربة شخصية أقصها للقارئ.

فقد أكرمني الله بالتبرك بزيارة غار حراء في عام ١٩٥٩م، وأنا في السابعة والعشرين من عمري، وكنت وقتها شاباً قويّاً يمارس شتى الألعاب الرياضية، كنت بالطبع مشوقاً إلى الصعود للغار المبارك لتطأ قدماي أرضاً مشى عليها خير البرية. كنت على ثقةٍ من مقدرتي الجسمية على صعود الجبل، لكنني فوجئت بضعفي واضطراري للجلوس عدة مرات، لألتقط أنفاسي وللجلوس حتى أستجمع قوتي لمواصلة الصعود، ذلك بالرغم من أنّ الطريق إلى قمة الجبل قد وُسّعَت وسُهّلَ طلوع المنحدرات بما أقاموه من الدُّرُج. فتبيّنت لي القوة الجسمية التي كان يتمتع بها الرسول ﷺ، فقد كان يصعد وينزل من الغار، كلما احتاج للتزوّد بالطعام الذي كانت تعدّه له سيدتنا أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

كان عدد الحجاج قليلاً في الخمسينات بالمقارنة بعدد حجاج اليوم، ولم تكن هناك مبانٍ وعمارات تحجب رؤية الكعبة المشرّفة للزائر من داخل الغار. فبدت لي الكعبة في صحنها وكأنني أنظر إليها من طائرة، فتعجبت من اختيار المصطفى ﷺ لهذا الجبل ولغاره المبارك الذي شرّفه الله بزيارة جبريل ونزول أول آيات القرآن العظيم.

ومن الأدلة على قوة النبي محمد ﷺ الجسمية ما حدث له مع ركانة بن عبد يزيد الذي اشتهر بين أهل مكة بقوته الخارقة وبِنيَته الجبارة، فما صارعه أحد إلا وطرحه أرضاً، وأنّه لم يهزمه إنسان قط. فيقول ابن إسحق أنّه لقي النبي في إحدى شعاب مكة يوماً قبل الهجرة وهو على دين كفار مكة، ويبدو لي من سياق اختلافات الرواة للقصة أنّ ركانة حدثته نفسه بأن يدعو النبي للمصارعة ويهزمه، فينتقص ذلك من مكانة الرسول، ويشمّت بذلك كفار قريش. لكنّ النبي صارعه فطرحه أرضاً. فتعجّب ركانة ولم يصدق ما حدث له فربما قال في نفسه: "علّها كانت رميةً بغير رامٍ"، فقال للرسول: "عُد يا محمد" فبطش

به الرسول ﷺ مرةً أخرىٰ وأضجعه، وقيل: أعادها ثلاث مرات. فلم يصدق ركانة ذلك وعدّها سحراً![1]

ويصوّر لنا القرآن الكريم هذه القوة الجسمية في عدد من الأنبياء، منهم موسىٰ عليه السلام، الذي صورته الآيات القرآنية تصويراً يعبّر عن قوته الجسمية، فضلاً عن قوته في الحق؛ فذا سيدنا موسىٰ عليه السلام بوكزة منه (لكمة دون سلاح) يقضي علىٰ أحد المتقاتلين ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]. وهذه ابنة شعيب عليه السلام تصوّر لأبيها قوة موسىٰ عليه السلام بجملة غاية في البلاغة والاختزال والتصوير ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٥]. وفي الدفاع عن العقيدة والتوحيد تنسجم القوة الروحية مع القوة الجسدية في خطاب موسىٰ للسامري الذي صنع عجلاً ليعبده قوم موسىٰ ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾[طه: ٩٦]. ولعل ملامح هذه القوة الجسدية متواترة في الكتابات التاريخية والدينية، فمما هو متسق مع هذه الصورة، ذلك التمثال الذي نحته الفنان (مايكل أنجلو) أحد أشهر فناني عصر النهضة؛ إذ نحت تمثالاً لموسىٰ عليه السلام، يُبرز فيه معالم القوة في جسده بصورة لافتة. والحديث يطول عن القوة الجسدية لبعض الأنبياء، ويستطيع الدارسون تتبع هذه الصور، وتبيّن أهميتها في الدعوة، وستتشكل عند الدراسين فسيفساء جميلة ومتنوعة من عمل نوح عليه السلام في صنع السفينة، وهو يحتاج إلىٰ قدرة جسدية في اليدين خاصة، وبناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للكعبة، وهو يتطلب قدرة جسدية، وداوود عليه السلام كان حداداً يصنع الدروع مما يتطلب قوة جسدية، وزكريا كان نجاراً إلخ.

الذكاء والتفكير الخلّاق

ومن الخصائص التي تشترك فيها الوراثة مع البيئة القدرات العقلية للأنبياء وهي من الصفات اللازمة للفطانة. فما بعث الله تعالىٰ نبياً إلا وكان أذكىٰ قومه، وأكثرهم قدرةً علىٰ

(١) ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار (توفي ١٥١هـ). **سيرة ابن إسحاق**، تحقيق: محمد حميد الله، المغرب:معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، ١٩٧٦م، ج٥، ص٢٥٦.

التفكير الخلاّق وحلّ المشكلات، ولو قيست مقدراتهم العقلية بمقاييس زمننا الحاضر لحصلوا على أعلى الدرجات. والأمثلة على ذكاء الأنبياء وقدراتهم العقلية والابتكارية لا حصر لها في القرآن الكريم، لا سيما في نقد فكر المشركين وسرد الحجج الدامغة لضلالهم.

فانظر إلى ذكاء سيدنا إبراهيم عليه السلام وقدرته الإبداعية، وهو يقيم الحجة على قومه من عبّاد الأوثان والنجوم والكواكب وعلى أبيه الكافر، ثمّ اقرأ في كتاب الله كيف أقام الحجة على الملك النمرود الذي ادّعى الألوهية. فيخبرنا القرآن الكريم أنّ النمرود حينما ادّعى بأنه يحيي ويميت كالله، أفحمه إبراهيم بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، بهت النمرود ولم يجد جواباً. ثمّ تفكر في ذكائه وتفكيره الخلّاق عندما نفّذ خطته لإقناع قومه بأنّ أوثانهم ليست آلهة؛ إذ قام بتحطيمها إلا كبيراً لهم. ولما أتوا به ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال لهم مستهزئاً حطم أصنامكم كبيرهم هذا، فاسألوهم إن كانوا ينطقون. نجح إبراهيم في زعزعة إيمان قومه بأصنامهم، فرجعوا إلى رشدهم وفطرتهم، ولكنهم سرعان ما ارتدوا إلى كفرهم وعنادهم. وقد سجل القرآن الكريم ذلك في الآيات التالية من سورة الأنبياء: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [الآيات ٦١ إلى ٦٧ من سورة الأنبياء].

ولا أريد أن أختم هذا الموضوع من دون الحديث عن قدرات نبيّنا الحبيب محمد ﷺ العقلية، وكيف استطاع حتى قبل بعثته أن يصل بذكائه الخارق وتفكيره الإبداعي إلى تسويةٍ لنزاعٍ بين القبائل القرشية كاد أن يتفجر فيصبح حرباً ضروساً. فقد شرعوا في إعادة بناء الكعبة المشرفة، ولما بلغ بناؤهم موضع الحجر الأسود استَعَر الخلاف بينهم، مَنْ من القبائل ستنال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، حتى خاف العقلاء منهم أن تتكرر بينهم حرب البسوس التي اشتعلت لأسباب تافهة، واستمرت أكثر من أربعين سنة بين قبيلتي بكر وتغلب رغم أنهما كانا أبناء عمومة.

فلما استمر الخلاف بينهم في مكة أياماً دون حلٍّ، اقترح عاقل منهم أن يُحَكّموا أول داخل للمسجد الحرام، وأراد الله تعالى أن يكون ذلك محمداً، فاستبشروا به ورضوا بحكمه. فوضع رداءً في الأرض، ووضع الحجر الأسود وسطه وطلب من زعماء القبائل المتخاصمين أن يمسكوا بأطراف الرداء ويرفعوه مجتمعين إلى مكانه في البناء، فأخذه ووضعه بيديه الكريمتين في مكانه، فكان حلاً رضي به الجميع.[1]

كان ذلك قبل خمس سنين من بعثته نبيّاً، فلعله لم يكن وحياً إنما ذكاءً وقدرة ابتكارية، وفّقه الله على استخدامها. فسيرة الرسول ﷺ تؤكد لنا بأنّه كان يعتمد على ذكائه وعلى مهارته في ملاحظة الوقائع لاستنباط ما صحّ العزم عليه. من ذلك إباحته للغيلة، بعد أن كان قد همّ بنهيها، والغيلة هي وطء الزوجة أثناء فترة رضاعتها لمولودها، وذلك تجنباً لما قد يصيب الرضيع من أذى. فقد ثبت في صحيح مسلم أنّ الرسول ﷺ قال: "لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، حتى ذكرت أنّ الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم."[2]

نبل النسب والمَحْتِد/ الأَصل

الذكاء والتفكير الخلّاق وقوة الأبدان صفات وراثية أو صفات اختلطت فيها الوراثة مع البيئة فكلها تدور حول هذين المكونين من منظور علم النفس، لكن هناك جوانب اجتماعية وحضارية أخرى لها تأثيرها في تكوين شخصيّات الأنبياء، ومن أهمها كرامة الأصل ونبل النسب. وهي من الصفات الاجتماعية والحضارية التي يختارها الله في تنشئة أنبيائه. فكل الأنبياء ينحدرون من قبائل جليلة مبجّلة، ومن أسرٍ عريقة في نسبها؛ إذ يستحيل على من يبلّغ عن الله عزّ وجلّ أن ينظر إليه مواطنوه بعين الاحتقار، أو أن يكافح كفاحاً نفسيّاً داخليّاً إحساسه بالهوان أمام معارضيه.

فانظر إلى نسب نبيّنا محمد ﷺ وشرفه في قومه، فهو من قريش، أعرق قبيلة عربية ومن أشرف بيوت تلك القبيلة ألا وهو بيت بني هاشم، فكما قال صلوات الله وسلامه عليه في

---

(١) انظر تفاصيل هذه القصة عند ابن كثير، **البداية والنهاية**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٠٥.

(٢) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب النكاح، باب جواز الغيلة وهي وطء المرضع وكراهة العزل، حديث رقم (١٤٤٢) ص٥٧٣.

حديثه المشهور الذي رواه مسلم: "إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم."[1] يجد الباحث مثل هذا الاصطفاء في أنساب جميع المرسلين والأنبياء الذين عاشوا في القرون التي سُجّل تاريخها. أمّا الأنبياء الذين أتوا بعد سيدنا إبراهيم عليه السلام الملقب بأبي الأنبياء فهم ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: ٣٤].

كما ذكرنا آنفاً فإنّ تأملاتنا وما يسندها من مبادئ نفسية ونصوصٍ إسلاميّة قد تحتاج إلى تجسيدٍ وتدعيمٍ تفصيلي عن حياة الأنبياء منذ طفولتهم، لنلقي الضوء على بعض ما خفي من حكمة الله تعالى في تنشئتهم إلى أن بلغوا سن تكليفهم بالنبوة والرسالة. فتأثير سنوات الطفولة وأهميّة رعاية الوالدين -والأم بشكل خاص- لها أعظم الأثر في تكوين شخصية الإنسان. لذلك اخترنا موسى ويوسف عليهما السلام لتفصيل القرآن الكريم عن تطور حياتهما علّنا ندرك طرفاً من حكمة الله تعالى العظيمة، فيما زودهم به من صفاتٍ جسميةٍ وتربيةٍ بيئية. فإلى الفصل السادس والسابع عن موسى ويوسف عليهما السلام.

(١) المرجع السابق، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، حديث رقم (٢٢٧٦) ص٩٣٥.

الفصل السادس

تأمُّلات حول دقائق حكمة الله في تدبير البيئة والوراثة لموسىٰ عليه السلام

إنّ التفكر في دقائق الحِكَم الإلهية التي فُصِّلت في القرآن الكريم عن تهيئة سيدنا موسىٰ عليه السلام للقيام بتكاليف بعثته، لهي من أوضح الأمثلة علىٰ دقة هذا الاختيار الرباني للبيئة المناسبة والوراثة الملائمة لتنشئة رسله، بالأسلوب الذي ارتضاه لهم، حتىٰ ينضجوا وينجزوا ما سيلقىٰ عليهم من التزام وقولٍ ثقيل. فمهمة سيدنا موسىٰ عليه السلام هي من أشقّ المهام التي كُلف بها أولو العزم من الرسل؛ إذ كُلِّف بمواجهة الفرعون الذي -كما نعلم- لم يشهد الكون مثل طغيانه واستبداده وظلمه وكفره. وقد سجل لنا القرآن الكريم كل هذه الصفات السيئة في كلامه وأفعاله، فنراه ينادي في قومه بصوت عالٍ: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وفي سورة القصص يعلنها "داويةً مدوية"... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]. أما استبداده وظلمه فحدّث ولا حرج؛ إذ سجل لنا القرآن العظيم أنه كان يُقَتِّل أطفال بني إسرائيل ويستحيي نساءهم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

لنسبح بخيالنا ماذا كان من الممكن أن يحدث لموسىٰ لو أنّه نشأ كغيره من بني إسرائيل، ذليلاً في مصر الفرعونية، وليحمد الله علىٰ حياته إذ كان من الممكن أن يذبح طفلاً؟ لنتأمل سلوكه وهو يدخل إلىٰ قصر فرعون المنيف، ليقف أمام الطاغية الفرعوني في زيه المهيب وهو محاط بجنده وحشمه، ليقول له إنّي رسول من الله إليك؟! يقولها ولعل بشريته المستضعفة تجعله يرتجف من هول هذا اللقاء، وعيناه تدور متعجبةً في عظمة القصر وما حوىٰ. لكنّ الله تعالىٰ أراد لموسىٰ النبي غير ذلك، بل عكس ذلك حتىٰ يحقق ما ذكرناه عن أهمية عزّة الأنبياء التي قويت لديه بما وهبه الله من خصائص وراثية دعمتها تنشئته في كنف الفرعون. فالقصر أصبح داره، والفرعون في بيته مسترخٍ بملابسه المنزلية، كما أنّه يراه يمرض كما يمرض الناس، ويعلو شخيره حين ينام، وما هو بالإله المخيف الذي يرعب الزوّار، ويهابه القاصي والداني من أهل مصر.

فالرسول الذي يرسله الله تعالى لمثل هذا الطاغية لا بدّ أن يزوده بالخصائص الوراثية والبيئية، التي تمكنه من الوقوف بصلابة أمام جبروت هذا المستبد القاهر. فالله جلّ جلاله هو الذي تولى تربية موسى وتوجيهه في جميع أطوار حياته؛ إذ كما قال سبحانه صنعه على عينه، واصطنعه لنفسه. كما في الآيات من ٣٨ إلى ٤٠ من سورة طه، التي تلخّص هذا التدبير البيئي الإلهي في تشكيل حياة النبي موسى عليه السلام. ثلاث آيات فقط من وحي الله المعجز تلخص حياة موسى منذ أن ولد حتى ابتعث نبيّاً: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: ٣٨ - ٤٠].

فما أجمل هذه الكلمات التي وجّهها الحق سبحانه لعبده موسى، وما أروع ما تحمله من معاني الحنان والرحمة. ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾. ألقيت عليك محبةً مني، وخلقتُ فيك ملاحة وسراً يجعل كل من رآك أحبك، حتى الفرعون لانَ قلبه القاسي، فتقبل ما أرادته السيدة الفاضلة زوجته رضي الله عنها من تبنيه، فكانت عاطفة الحب الربّاني أمضى سلاحاً من دوافع الكراهية لبني إسرائيل. فنرى هنا خلق الوراثة في ملامح موسى بالإضافة إلى الجانب البيئي الذي كرّمه لينشأ كأنه أمير في قصر الفرعون.

ولا شك في أنّ الفرعون قد أحبه، وأحبّ فيه ذكاءه الخارق، فأتاح له أن يعيش البيئة الحضارية العلمية التي تليق بمكانة سكان القصر وصفوة المجتمع، وقد وهبه الله الحكمة والعلم عندما بلغ أشدّه وأكمل استعداده لتلقيها: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

نحن الآن نشاهد بشكل عام رسولاً أنعم الله عليه بالعلم والحكمة والتنشئة المناسبة، ليُبلِّغ رسالة ربه للفرعون وقومه، لكننا ما زلنا نقف على شاطئ كشف التدبير البيئي والوراثي الإلهي لسيدنا موسى عليه السلام، فلنوجه تأملاتنا النفسية فيما سيأتي إلى محاولة التنقيب عن بعض دقائق هذه الحكمة الربانية في بيئة موسى وما ورّثه الله من صفات.

ذلك بأنّ التفصيل القرآني المتفرد لحياة نبي الله موسى يقدّم لنا أعظم الأدلة على الصياغة الربانية المحكمة لحياة جميع الأنبياء، حتى وإن لم تذكر بتفاصيلها في القرآن الكريم. ولكي نتابع ما تأتي به تأملاتنا فسوف نتّبع الأسلوب القرآني في عدم التقيد بالترتيب الزمني والمكاني. ولنبدأ بأهمية تربية الأنبياء وتنشئتهم على الثقة بأنفسهم، وغرس مكارم الأخلاق في جبلتهم حتى يحققوا التبليغ الفَطِن بالصدق والأمانة.

أهمية دور الأم في التنشئة

إنّ تأثير البيئة والوراثة على شخصية الأفراد أمر قد عرفه الناس، وتأكدوا من صحته، بما لاحظوه في سلوك الأطفال والبالغين، حتى أصبح من بدهيات المعارف. لكنّ علم النفس الحديث قد سبر أغوار هذه المفاهيم بأساليبه العلمية والتجريبية، فكشف لنا ما لم نكن نتوقعه في هذا الميدان، بدءاً من سلوك الأجنّة قبل ولادتهم، والرضع خلال أيام حياتهم الأولى، كما كشف لنا عن أهمية الأم في غرس عواطف الحب والرحمة والصفات النفسية المختلفة في نفوس أطفالها.

فمثلاً كان الاعتقاد السائد بين الناس أن أثر البيئة يبدأ بعد سنين من ولادة الطفل، عندما يبدأ في إدراك بعض من سلوك أبويه وبيئتهما، لكن الأبحاث العلمية الحديثة أظهرت لنا أن أثر البيئة يبدأ مباشرةً بعد أن تلقح بويضة الأم بالحي المنوي للأب. فحتى في ظلام البيئة الرحمية يتأثر الجنين جسمياً ونفسياً بحالتها النفسية، وبما تتناوله الأم من طعام وعقاقير. كما كشف لنا علم النفس بأبحاثه التجريبية على حديثي الولادة، بأنّ للرضع قدرات مثيرة للإعجاب لم نكن لنصدقها، لولا البراهين الساطعة على حدوثها. فحتى قبل ولادته وهو جنين في رحم أمه في شهره السابع، يستطيع الطفل التعرف على صوت أمه، كما ثبت بأنّ الرضيع في أسابيعه الأولى يعرف رائحة لبن أمه، ويفرق بينه وبين ألبان نساءٍ أخريات؛ إذ يكرر الالتفات نحو قطعة من القطن مبللة بلبن أمه بالمقارنة بلبن أيّ إمرأة أخرى.

كما ثبت بدراسات استخدم فيها العلماء حاسوباً يعرض صورة مبهمة غير واضحة تماماً للأم، يتحكم في إظهارها بشكل واضح تيار كهربائي ضعيف، يستطيع أن يولّده الرضيع بالمص على مصّاصة خاصة. فوجدوا أن الرضيع يستطيع أن يظهر صورة الأم بشكل واضح بتوليد التيار الكهربائي المناسب بالمص المناسب. وتنقلنا هذه الدراسة إلى الجانب العاطفي والنفسي للرضّع التي تركز على أثر علاقة الطفل بأمه.

ففي الأسابيع والشهور الأولى من عمره، يكوّن الطفل أول علاقة عاطفية في حياته وذلك مع أمه. هذه العلاقة هي التي تصبح الأساس المتين لبناء علاقاته الانفعالية والاجتماعية مع الآخرين حتى نهاية عمره. ويطلق علماء النفس على هذه الصلة بالتعلُّق أو الرابطة الانفعالية الأساسية Attachment، وإذا انقطعت بحرمان الطفل من أمه أو من يقوم مقامها فسوف يصاب باكتئاب الرضع، وربما يفقد القدرة على تكوين أيّ علاقات حميمة مع الأفراد في مستقبل حياته، فدور الأم في تكوين رابطة العواطف الإنسانية هو الدور الأساسي؛ إذ هي التي تحضنه وترضعه وتناغيه، وعندما تضمه لصدرها يسمع ضربات قلبها التي كانت تلازمه في ظلمات رحمها، فيشعر بالسكينة والاطمئنان. أما دور الأب في هذا الشان فهو دور ثانوي.

إنّ ما توصل إليه علم نفس الطفولة عن أهمية دور الأم، لينبهنا إلى حكمة الله تعالى في عدم حرمان أنبيائه عليهم السلام من عطف أمهاتهم. أما بالنسبة لآبائهم فالأمر قد اختلف كثيراً. فرسولنا الحبيب ﷺ توفي والده من قبل أن يولد، لكن الله تعالى رزقه بأربع (أمهات)؛ آمنة بنت وهب أمه الكبرى في مكة، وحليمة السعدية في الطائف، وثويبة وأم أيمن حاضنته التي كان الرسول ﷺ يخاطبها بـ "يا أمّ"، كما أبقى الله له أمه السيدة آمنة بنت وهب حتى بلغ السادسة من عمره، ونضج من الناحية العاطفية. أمّا جدّه سيدنا إبراهيم فقد أُمِرَ بترك ابنه إسماعيل في رعاية أمه في واد غير ذي زرع.

أما نبينا موسى فقد حرّم الله عليه المراضع حتى يردّه إلى أمّه، ثم رزقه بأُمٍّ مؤمنةٍ أخرى هي زوجة فرعون. فكان يتمتع بأُمّين مشتاقتين إلى لقائه. إحداهما أمه الطبيعية، والأخرى ملكة حرمها الله من الأطفال، فصبّت جام عاطفتها على موسى، وإذا تابعنا تأملاتنا فسوف نرى الطفل موسى محاطاً ومدللاً ليس فقط بأُميّه، ولكن بنساء القصر الفرعوني وجواريه، فهو الابن المدلل للملكة، وهو الذي ألقى الله عليه محبةً منه. فلما بلغ سن الرشد واطمأنّ بأنّ الله تعالى حافظه من القتل، رجع إلى مصر ليواجه الفرعون بالعزة والثقة بالنفس، ممزوجةً بمحاسن عواطف الحب والرحمة والصبر على مشقة ما سيتعرض له مثل أولي العزم من

الرُّسل. إذن فللأم أو من يقوم مقامها الدور الأساسي في بداية تكوين هذه الصفات التي يبدأ غرسها بعد ولادة الطفل.

نبل الأصول التي انحدر منها موسىٰ عليه السلام

لكنّ زرع الثقة بالنفس لا يتم بالناحية النفسية وحدها، بل يجب أن يعضده الجانب الاجتماعي والحضاري كما ذكرنا في الفصل السابق. فإحساس الطفل بالحقارة والهوان، لأنّه من قبيلة محتقرة في بلاده، لا يمكن أن يعوّضه عطف الأم ولا تشجيع الأب. فكما ذكرنا من قبل فإنّ الله تعالىٰ أنعم علىٰ أنبيائه بنبل المنبت، فهم ينحدرون من أنبل قبائل قومهم وأعرقها نسباً، حتىٰ يتسق هذا مع تقبّل المجتمعات لهم، فلا يكونن ثمة نقص اجتماعي يمكن أن يكون مدخلاً لذم النبي بدءاً. فبالنسبة لبني إسرائيل فقد انحدر موسىٰ بن عمران من أشرف بيوتهم، من بيت النبوة التي كرمّها الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣- ٣٤]؛ إذ هو من نسل يعقوب عليه السلام كما جاء في عدد من التفاسير المأثورة. والمصريون قد عظّموا موسىٰ لمكانته لدىٰ الفرعون وزوجته، فهو الابن المدلل للإله والملكة رغم أصله الإسرائيلي.

حكمة الله في توريث موسىٰ عليه السلام بسطةً في الجسم والعاطفة

قوة الجسم الخارقة وشدّة الاستجابات العاطفية وسرعتها، هما خاصيتان مورثتان وهبهما الله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام، ليزداد ثقة وقوة في تبليغ رسالة ربّه أمام أعتىٰ طواغيت الأرض. قوة التكوين البدني -كما ذكرنا في الفصل السابق- هي هبة من الله لجميع الأنبياء، لكنّها قد تمنح لنبيٍ معيّن بشكلٍ أعظم لحكمةٍ يعلمها الله، تماماً مِثلَ وسامة جميع الأنبياء، لكنّ النبي يوسف عليه السلام أعطِيَ من الجمال قدراً كبيراً لابتلائه بهذا الجمال. فموسىٰ عليه السلام قد وُهِبَ طولاً وقوةً خارقة لحكمةٍ أرادها الله تعالىٰ. ففي إسرائه ومعراجه رأىٰ النبي ﷺ موسىٰ عليه السلام ووصفه بأنه رجلٌ شديد السمرة طويل القامة،[1] كما نجد تفصيلًا لصفاته الجسمية

(١) انظر البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم (٣٢٠٧) ص٦١٦، ومسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، الحديث (١٦٨).

ولملامحه فيما يعرف باللوحة الأثرية لموسى عليه السلام، وفيما رواه ابن كثير في تفسيره بأنّ هرقل ملك الروم كان يحتفظ بصورٍ للأنبياء، ربما ورثها مما تركه سليمان عليه السلام من معجزات.[1]

تُظهِر هذه الصور موسى عليه السلام في شكل رجلٍ جعد الشعر غائر العينين حديد النظر، عابس ينظر وكأنّه غضبان. فإذا تغاضينا عن ضعف هذه الروايات، نجد أنها رغم ضعفها تجسد صفات موسى عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف. فطول قامته وقوة جسمه التي جسدتها عضلاته المفتولة مع صرامة تعبير وجهه جعلت منه شخصيةً مهابةً، وقائداً مطاعاً في قومه.

أمّا الجانب الموروث الآخر فهو جانب ذو طبيعة نفسيةٍ. فالنبي موسى عليه السلام أورثه الله تعالى جهازاً عصبيّاً مستقلاً شديداً في ردود أفعاله. وقد وصف موسى بنفسه شدةَ انفعاله هذه بأبلغ وصف للتوتر النفسي عند الإثارة. فيقول كما جاء في القرآن الكريم ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٣]. لكنّ هذه الخاصّية جعلته قوياً في عاطفته لا يحتمل الصبر على ما يراه من ظلم أو قهر أو سوء خلق أو شرك. يفصّل لنا القرآن الكريم هذه الصفة في سورة الكهف. فقد أمره الله تعالى أن يلاقي (الخضر) في مجمع البحرين ليتعلم منه بعض العلوم الروحانية اللدنية، لكن انفعاليته قد منعته الصبر على مشاهدة (الخضر) وهو يقوم بأعمالٍ ظاهرها الإثم والقسوة، وباطنها الرحمة الإلهية، مثل خرقه لسفينة في البحر، وقتله لطفلٍ، وإعادة بنائه لحائط من أساؤوا إليهم. لم يستطع ضبط عواطفه، رغم تحذير (الخضر) له، وأمره بالصبر على ما يراه، حتى يخبره عن دوافع الخير في أفعاله.

عندما اجتمعت هاتان الصفتان الجسمية والنفسية في موسى عليه السلام بتدبيرٍ من الله، واجه الطاغية الفرعون بشموخٍ لا يُقهَر، وبعزّةٍ لله وللمؤمنين، وبمنطقٍ لا يُهزَم. فمَن غير موسى بقوته وشجاعته وعاطفته المتفجرة يستطيع أن يجابه الفرعون ويفحمه؟ وينقل لنا القرآن الكريم هذا الحوار الطريف الذي دار بين الفرعون وموسى في سورة الشعراء في (الآيات من ١٨ إلى ٢٢). فقد أراد الفرعون أن يحرج موسى ويذلّه أمام الجمع، ويشعره بأنّه ناكر لجميل تربيته في قصره، بمخالفته لدين الفرعون ولقتله للمصري بقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ

(١) انظر ابن كثير في **البداية والنهاية**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٣٦.

فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨- ١٩] لاحظ قوله: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ لتهويل الأمر وتضخيمه. فيعترف موسىٰ بخطئه في قتل المصري ليقفل هذا الباب ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ثمّ يتبع ذلك بردٍّ مفحمٍ لم يجد الفرعون له تعقيباً غير تغيير موضوع النقاش. قال موسىٰ: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ؟﴾ فتربيتي في قصرك لم تكن بدوافع إحسانك لبني إسرائيل، بل بسبب ظلمك لهم وقتلك لأبنائهم. فعاطفة موسىٰ عليه السلام المتدفقة تفاعلت مع ذكائه الموروث لتلهمه هذا الرد المُسكِت.

وكما تحدثنا سابقاً عن الصفات الجسدية للأنبياء، يقصُّ علينا القرآن الكريم جميع هذه الصفات بوحيه الميسّر وبإعجازه البلاغي، فنقرأ في سورة القصص، في الآية رقم (١٥) أنّ موسىٰ عليه السلام لم يحتمل تَعَدِّي المصري علىٰ الإسرائيلي، فوكز المصري وكزةً واحدةً كانت هي القاضية علىٰ حياته. والوكزة كما شرحناها سابقاً وكما عرّفها المفسرون هي الضربة بجمع الكف كما يفعل الملاكمون في عصرنا الحديث. وفي عصرنا الحديث هذا لم نر أو نسمع بملاكم قضىٰ علىٰ خصمه بلكمةٍ واحدة في بداية لقائهما، حتىٰ لو كان ذلك محمد علي كلاي! فهذا يدلنا علىٰ قوة موسىٰ الخارقة.

ندم موسىٰ عليه السلام وسأل الله الغفران، ولكن في اليوم التالي استغاثه الإسرائيلي نفسه علىٰ مصريٍّ آخر، فاشتعلت عاطفته الموروثة حتىٰ نسي ما كان منه من ندمٍ بالأمس، وأراد أن يبطش بالمصري. ففي هذه الآيات من سورة القصص يحدثنا القرآن بوضوحٍ عن هاتين الخصلتين الموروثتين؛ القوة الخارقة والعاطفة الثرّة.

لنتفكّر ونتأمل في حكمة الله في منح موسىٰ عليه السلام هذه الجوانب الموروثة. إنّ البيئة المصرية في ذلك الزمان قد تأثرت بحكم الفراعنة، فتمخضت عن حضارةٍ لا ينجح في حكم أهلها إلا القوي المهاب الذي يردع المارقين ويخيفهم. وينطبق ذلك بشكلٍ خاص علىٰ بني إسرائيل. فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم في آيات كثيرة، شعباً اعتاد علىٰ الذل والمسكنة وطغيان الحكام، وأشربت قلوبُهم وثنية المصريين، وانحصر اهتمامهم علىٰ المطالب المادية من الطعام والشراب والدعة وإيثار السلامة.

أراد الله أن يطعمهم المَنَّ والسلوى والماء الغزير، بمعجزةٍ وهبها لموسى عليه السلام ليتفرغوا للعبادة، فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١]. وأراد موسى عليه السلام أن يحثهم على تحرير أرضهم المقدسة فقالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. لذلك عندما لبَّى موسى عليه السلام ميقات ربه أربعين ليلةً، وذلك بعد أن رأى الإسرائيليون بأمّ أعينهم معجزة الله العظيمة، بأن فلق البحر وأنقذهم عن بكرة أبيهم، وأغرق فرعون وجنوده، كلَّف أخاه النبي هارون بأن يخلفه، وأن يتَّبِع سبيل المصلحين. لكنّ هارون لم يكن كأخيه موسى. فيبدو أنّه لم يكن في ضخامة جسمه، ولا في قوته، ولم يكن ذا شخصية قيادية مهابة، قوية العاطفة، شديدةً في ردود انفعالاتها. فاستخف الإسرائيليون بهارون عليه السلام، وعندما نهاهم عن الانصياع لقائدهم السامري الذي دعاهم إلى الكفر وعبادة عجل صنعوه من حليِّ نسائهم، هددوه بالقتل.

إنّ آيات كريمة من سورة الأعراف وسورة طه قد فصّلت لنا هذه القصة ووضحت لنا بجلاءٍ الفرق بين موسى وأخيه هارون عليهما السلام، رغم أنهما من غير شكٍّ قد تشابها في تكوينهما البيولوجي كأشقاء. فقد ظهرت حكمة الله فيما ورثه موسى وما تأثر به في بيئته، حتى اشتَدّ بأسه وتفجرت عاطفتة وأصبح القائد المطاع في قومه.

يقصُّ علينا القرآن بأنّ الله تعالى قد كتب لموسى في الألواح المقدسة المواعظ التي وردت في التوراة، لكنّه تعالى أخبر موسى أيضاً بأنّ قومه قد أضلّهم السامري فعبدوا عجلاً. فلعل الله تعالى أراد أن يخفف الصدمة على موسى عليه السلام حتى لا يُفاجأ عندما يرجع إلى قومه، ويراهم قد عكفوا على عبادة العجل. ولكنْ هيهات، فعاطفة موسى القويّة قد تضافر في إثارتها انفعالان شديدان هما الغضب والأسف، فرغم توقعه لما قام به قومه بقيادة السامري عن طريق وحي الله تعالى، إلا أنّه فقد القدرة على التحكم بأقواله وأفعاله عندما رآهم رأي العين، فرمى الألواح المقدسة، وهجم على أخيه هارون مُحَّمِلاً إياه مسؤولية ما حدث، وأمسك بشعر رأسه ولحيته وجذبه بقوة، لم ينقذ هارون منها إلا استعطافه لأخيه بصلة رحمه، عند ذلك ترك موسى أخاه وأقبل على السامري بجسمٍ ضخمٍ وبوجهٍ مغضب مخيف، وصوتٍ مرعبٍ لا بدّ وأنّه

أرهب السامري، الذي كان قبل مجيء موسىٰ يَعدُّ نفسه الزعيم المطاع، فكان يحث الإسرائيليين علىٰ عبادة العجل، ويشجع علىٰ تهديد هارون بالقتل إن خالفهم. فهنا تتجلىٰ لنا حكمة الله في خلق صفات موسىٰ الجسمية والعاطفية.

رأىٰ الإسرائيليون زعيمهم في وضعٍ مهين، ورأوا موسىٰ يحرق ويحطِّم العجل الذي عكفوا علىٰ عبادته ويلقيه في اليمِّ، فبذلك انتهت فتنة السامري، وظهرت لنا حكمة الله تعالىٰ في اختيار الوراثة والبيئة اللازمة لموسىٰ حتىٰ يقوم بما تمليه عليه مسؤوليته كنبيٍّ قائدٍ اصطنعه الله لنفسه. اقرأ إن شئت القصة بتفاصيلها في سورتي الأعراف وطه.

إنّ تأملاتنا في توريث الله لرسولٍ معيّنٍ بصفةٍ معيّنةٍ ليقوم بمهمة الدعوة إليه تعالىٰ في قومه المخصوصين، لا يلزم أن تكون محمودة ومفيدة لهذا النبي في كل جوانب حياته البشرية. لذلك فربما أتت عاطفية موسىٰ عليه ببعض المشاكل في حياته اليومية كبشر. لكنّ الله تعالىٰ الذي اختار له هذه الخاصية لأمرٍ عظيم، قد وضحناه فيما سلف، قد غفر له ما يمكن أن يحدث له بسبب هذه الخصلة التي زرعها في كيانه البشري، بل ربما منحه أجراً عظيماً بسبب ما تعرض له في حياته البشرية من مشاكل بسبب ما قد زَرَعه الله في جِبِلَّتِه. لذلك غفر له قتل المصري قبل ابتعاثه، وتلطف معه بودٍّ ورحمةٍ وحنان كلما ضعف أمام اندفاع عاطفته.

قارن موسىٰ عليه السلام بالنسبة لهذا الأمر بسيّدنا محمد ﷺ. أُعطيَ موسىٰ عاطفة زائدة لأهميتها في تكوينه كقائدٍ مهاب لقومٍ يعلم الله ما يناسبهم في شخصية من يستطيع أن يقودهم. فحِكمة الله تقتضي اختيار البيئة والوراثة لكل نبيٍّ بما يناسب خصائص قومه المحدودة. أمّا رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ فقد أرسل لجميع أهل الأرض من إنسٍ وجنٍّ. فمنحه الله تعالىٰ مرتبةً لا يدانيها نبيٌّ مُقرّبٌ ولا مَلَكٌ مُكَرّمٌ، وأدّبه فأحسن تأديبه، وابتعثه ليتمم مكارم الأخلاق، ومنحه القدرة علىٰ مخاطبة جميع الناس والجن، رغم تباين حضاراتهم وأعرافهم، ثمّ يدعوهم فإذا هم يستجيبون ويدخلون في دين الله أفوجاً.

هذه المرتبة الفريدة التي لم يدن منها نبيٌّ ولا ملكٌ، تنزلت علىٰ محمد رسول الله، ومعها مسؤولياتها الشاقّة وابتلاءاتها العسيرة. لذلك نقرأ في القرآن الكريم أنّ الله تعالىٰ الذي رفعه فوق كل الأنبياء عاتبه في أمورٍ ربما تغاضىٰ عنها بالنسبة لغيره من الأنبياء -كما ذكرنا آنفاً- ذلك

بأنّ الله تعالىٰ قد فضّل الرسل بعضهم علىٰ بعض كما جاء في سورة البقرة... ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فهذا موسىٰ يُلقِي بالألواح المقدسة التي كتبها الحق سبحانه بنفسه، ويرفض الانصياع للخضر والصبر علىٰ أفعاله رغم تحذيره المتكرر، ورغم أمر الله تعالىٰ له بالتعلُّم منه، فلا نقرأ عتاباً ربّانياً له. ثمّ نقرأ في المقابل في سورة "عبس" أنّ الله عزّ وجلّ قد عاتب رسوله وخليله محمد فقط لأنّه عبس في وجه ابن أمّ مكتوم الأعمىٰ، الذي كرر إلحاحه علىٰ النبي طالباً منه أن يعلّمه مما علّمه الله، في الوقت الذي كان النبي يخاطب بعض صناديد قريش آملاً في هدايتهم للإسلام. فلم يراع ابن أم مكتوم الوقت المناسب ولا الظروف المناسبة لطلبه، بل ظلّ يقاطع ويلح إلحاحاً ضاق به رسول الله فأعرض عنه وعبس، فعاتبه الله علىٰ تغيير قسمات وجهه أمام رجل أعمىٰ لا يرىٰ هذه القسمات!

نكتفي بهذا القدر بما فصّلناه عن حكمة الله في تنشئة موسىٰ عليه السلام، سائلاً الله تعالىٰ أن يلهمنا حمده وشكره علىٰ ما أنعم به علينا بما ورثناه من آبائنا، وما استمتعنا به في بيئتنا، وأن يعيننا علىٰ تلمس حكمته تعالىٰ فيما ابتلينا به وكرهناه.

الفصل السابع

تأمُّلات حول دقائق حكمة الله في تدبير البيئة و الوراثة ليوسف عليه السلام

المتأمل في حكمة الله في تنشئة يوسف عليه السلام لا يحتاج إلى جمعها من سورٍ متفرقةٍ من القرآن الكريم، ذلك بأنّها قد جُمِعَت في سورةٍ واحدةٍ باسمه عليه السلام، وهي من أهم سور القرآن الكريم بالنسبة لدارسي علم النفس الإسلامي، وللباحثين في ميدان علم نفس ما وراء الحواس وعلم النفس الروحاني spiritual psychology بوجهٍ خاص. فقد ركزت هذه السورة العظيمة على موضوع الأحلام المنامية والرؤى وتفسيراتها الروحية والرمزية منها وغير الرمزية، كما أشارت السورة باختصار إلى جوانب روحية أخرى، مثل الإلهام والاتصال فيما وراء الحواس كالتخاطر Telepathy الذي تحدثنا عنه بالتفصيل في الفصل الثاني من الكتاب كما تحدثت السورة على أثر العين وعن الأمراض النفسجسمية Psychosomatic Disorders أي تلك الأمراض الجسمية التي تسببها حدة الانفعالات المكظومة.

ولنبدأ بالرؤى والأحلام المنامية وما اختُصَّ به يوسف عليه السلام من موهبة في تأويلها، فهذا موضوع السورة الأساسي؛ إذ إنَّ هذه السورة هي بحق سورة الأحلام والرؤى، كما سمّاها البعض. فقد بدأت السورة برؤيا يوسف وهو في سن الطفولة، وانتهت بتأويلها وهو في كهولته، بعد أن سردت أهم أحداث حياته. ولكن قبل أن نتطرق إلى بعض تأملاتنا النفسية والروحية حول هذه الرؤى، يجدر بنا أن نتحدث عن رؤية علم النفس الحديث للأحلام المنامية بشكل عام، وللرؤى التنبؤية بشكل خاص. وأستميح القارئ عذراً إن أطلت الحديث في هذه المقدمة لأهمية الموضوع لطلاب علم النفس الحديث ودارسيه، وخطورة ما تقدمه المراجع الغربية من أفكار وتصورات اختلط فيها العلم التجريبي الصحيح بالأفكار والتصورات التي لا يسندها عقل أو دين. سنحاول تبسيط عرضنا ليستفيد منه طلابنا وقرَّاؤنا غير المتخصصين في العلوم النفسية.

إسهامات الدراسات العصبية والنفسية التجريبية في ميدان الأحلام المنامية

لقد كشفت لنا الدراسات النفسية والعصبية الحديثة باستخدام تقنيّات المسح الدماغي كثيراً من الأنشطة العصبية التي تحدث أثناء النوم وعند حدوث الأحلام، فبالرغم من أنّ

العلم الحديث لا يعرف بالدقة لماذا ينام الناس ولماذا تتراءى لهم الأحلام إلا أنهم استطاعوا أن يسبروا أعماق ما يحدث لنا عند النوم وعند رؤيتنا للرؤى. كما استطاعوا أن يصنفوا أحلامنا إلى أشكالها المختلفة مثل الكوابيس Nightmares والرعب الليلي Night terror وتلك الأحلام الغريبة التي يعرف الشخص فيها أثناء حلمه، بأنّ ما يراه هو حلم وليس بحقيقة Lucid dreams.

بفضل هذه الدراسات تمكنّا من معرفة أنّه عندما يرى النائم حلماً تتحرك عيناه بشكلٍ سريعٍ Rapid Eye Movement وبذبذباتٍ خاصة تسجلها مقاييس النشاط الدماغي، ونعرف أيضاً أنّ ظاهرة الحركة السريعة للعيون هذه تتكرر كل ٩٠ دقيقة أثناء النوم، وأنّ الأحلام لها فائدة مهمة بالنسبة لصحة الإنسان والحيوان النفسية، فإذا حُرِم الشخص أو بعض الحيوانات كالقطط من الأحلام المنامية بإيقاظه كلما أظهر الكمبيوتر أنه يرى حلماً، فإنّه يصاب بالتوتر النفسي رغم طول وقت نومه.

فالأحلام والرؤى إذن نعمةٌ من الله على الإنسان لتخفف عنه مشاكل الحياة اليومية وتوتراتها. كذلك أظهرت الدراسات بأنّ للأحلام فائدة علاجية بالنسبة لمن يشكون من اضطرابات القلق والمخاوف المرضية والاضطرابات النفسية، التي تعقب من يتعرضون لأحداث هزت كيانهم النفسي كحوادث الطائرات والحرائق والاغتصاب Post-traumatic stress disorder. ففي جميع هذه الحالات تتكررالأحداث المؤلمة بشدّة في أحلام المضطرب النفسي لكي تساهم في علاجه بالتعود عليها، وكأنّ هذه الأحلام المتكررة تقوم بدور المعالج النفسي السلوكي الذي يطلب من المريض تكرار تخيُّلِهِ لما أصابه وهو في حالة استرخاءٍ نفسي وجسمي حتى يخفف من الانفعال الضّار بالتدريج.

بالإضافة لذلك فإنّ للنوم والأحلام دوراً مفيداً في حياتنا العقلية المعرفية. فالنوم بأحلامه يساعدنا في التخلص مما احتفظت به ذاكرتنا أثناء اليوم من أمور غير ذات فائدة، كما يساعدنا في تكميل وصقل أفكار ومفاهيم لم نستطع أن نجوّدها أثناء نشاطنا النهاري. هذا بالإضافة إلى تثبيت المعلومات التي نريد أن نحفظها أو المهارات الجديدة التي نريد أن نجوّدها. فقد وجد الدارسون أنّ الأشخاص الذين يخلدون إلى النوم مباشرةً بعد التدريب على الحفظ أو المهارات يحصلون على درجات أعلى من الذين لا يفعلون ذلك.

رفض علم النفس للجانب الروحي والتنبّؤي للأحلام والرؤى

ما عرضناه عن إسهامات علم النفس والأبحاث العصبية في ميدان النوم والأحلام يمثّل الجانب المشرق لهذه العلوم؛ لأنها تقوم على الدراسات المادية البحتة، لتخبرنا عن تلك التغيرات الجسمية والعصبية التي يمكن مشاهدتها بحواسنا، أو ندركها بعد استخدام بعض القياسات النفسية والعصبية. فهي تعتمد اعتماداً كليّاً على ما يمكن ملاحظته بالحواس، فهي بذلك قد تمرّست على الإجابة على الأسئلة البسيطة التي تدور حول كيفية أنشطة الظواهر. أما عندما تحاول هذه العلوم العلمانية وما حذا حذوها من العلوم الاجتماعية والنفسية الإجابة عن الأسئلة العميقة الكبرى التي تفسر وتشرح أهداف تلك الظواهر وفوائدها العميقة والحكمة من خلقها، فسوف تتضح لنا ضحالتها، بل وفكرها المتطرّف الموغل في رفض الجانب الرّوحي وكل ما لا تدركه الحواس من المعرفة إلى درجة التحامل الواضح.

فقد رفضوا الأدلة على صحة الأحلام التنبؤية والخبرات الروحية التي عرضت عليهم من مئات الأشخاص، الذين كشفت لهم أحلامهم عما سيحدث لهم في مستقبل حياتهم، ثمّ حدث ما رأوه بالتفصيل. وصفوا هذه الأحلام التنبؤية بأنها تدليس يمكن كشفه "بالتحقق العلمي". فأحد شروط هذا التحقق الذي يريدونه هو إعادة الأحداث نفسها بالطريقة ذاتها، لنرى هل تكون النتيجة هي نفسها التي ادّعاها المُدّعي أم لا Repeatability. أي أن نطلب من الشخص أن ينام تحت الظروف نفسها بمراقبة الفاحص لنرى هل سيرى الحلم نفسه! كأنّ رؤية الحلم المعيّن هي تحت تصرف النائم وإرادته الحُرّة. أمّا إن سرد راءٍ حلماً ما رآه لأفراد عديدين، ثمّ حدث بعد ذلك في الواقع كما رآه وشهدوا كلهم بذلك، لقالوا: إنّ ذلك قد حدث بالصدفة المحضة.

أمّا ما لم يستطيعوا نفيه لأنّه أتى من أناسٍ عظماء لا يمكن الطعن في روايتهم، فقد قاموا بإهماله حتى ينساه دارسو علم النفس. من ذلك الحلم الذي رآه أبراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة والعالم الألماني ليفي. فقد رأى لنكولن في منامه حادثة اغتياله ووضع جثته ملفوفةً بالعلم الأمريكي وعليها حراسة من الجنود في غرفة معينة في البيت الأبيض، فقصّ الحلم على بعض أحبابه، ثمّ ما لبث أن تحقق الحلم بحذافيره. أمّا العالم الألماني أوتو ليفي

Otto Loewi فقد كان يريد أن يبرهن على أنّ الاتصال بين الخلايا العصبية يتمّ عن طريق الوسائل الكيميائية. قام بعدة تجارب للتحقق من هذه الفرضية، لكنّ جميع محاولاته المختلفة رغم تكرارها بشتى الأساليب قد باءت بالفشل حتى فقد الأمل ونسي الموضوع. وبعد ١٧ سنة من يأسه فوجئ برؤيا في منامه تشرح له تفاصيل تجربة تحل مشكلته، فهبّ من نومه وسجل خطوات التجربة، وقام صباحاً بإجرائها كما رآها في نومه وبرهن على صحة افتراضه، ونال جائزة نوبل لعام ١٩٣٨م على هذا الاكتشاف. ولعل كثيراً من العلماء جاءته مثل هذه الرؤى ولكنه نسب الفضل لمجهوده الواعي![1] وقد سجل كثير من العلماء والأدباء والفنانين الأوروبيّين قصصاً مشابهة ليس في بحثنا مكانٌ لطرحها.

أرجو أن أكرر القول بأنّ هؤلاء العلمانيين -لا سيما غلاتهم- يعتقدون بأنّ التَحَقُّق الذي لا يخضع لمتطلبات العلوم التجريبية لا مصداقية ولا قيمة علمية له، كأنّ التحقق عن طريق الحواس هو السبيل الوحيد لاكتساب المعرفة. فهم يبدؤون بالزعم القائل: "إنّ ما لا يمكن الاستدلال على صحته عن طريق الحواس ليس بعلمي" ثمّ يتطور هذا الزعم إلى القول بأنّ "ما لا يمكن التثبت على وجوده بالحواس فلا وجود له في حقيقة الأمر". رغم ذلك نجد هؤلاء العلماء أنفسهم يتغاضون عن هذه الاشتراطات بالنسبة لنظريّات وأفكار لا يمكن التحقق من صحتها عن طريق الحواس، وبعضها لا يتحلّى بالتصور العقلي والمنطق الصحيح ولا الذوق السليم، فقط لأنها تشدّ من أزر الفكر الإلحادي من مثل نظريّات فرويد الجنسية في تفسير الأحلام التي سنفصلها فيما بعد، ونظريته عن السلوك الجنسي للأطفال والرُضّع.

من هذا المنطلق يرفض كبار الباحثين والعلماء التجريبيين ومن شايعهم من السلوكيين وجود أيّ جانب روحي أو تنبّؤي للأحلام. فالأحلام في زعمهم ما هي إلّا نبضات كيموكهربائية تحدث بالصدفة المحضة في أماكن مختلفة من دماغ النائم، فيحاول الدماغ إعطاءها صورة مقبولة تخرجه من حيرته التي أحدثتها هذه الذكريّات التي لا رابط بينها. فمثلاً إذا استثيرت نبضات عصبية في مكانٍ ما في دماغ النائم، له ارتباط في ذاكرته بأحد

(١) انتشرت هذه القصص والأحداث كثيراً في الكتابات والمواقع الإلكترونية، انظر على سبيل المثال لا الحصر:
- مقال بعنوان: "تفسير أحلام ومنامات العلماء خيراً رأيت، للأستاذ الدكتور أحمد بن حامد الغامدي (جامعة الملك سعود في الرياض)، موقع منظمة المجتمع العلمي العربي https://arsco.org/article-detail-688-8-0.

أصدقائه، وصادف ذلك نشاط عصبي آخر في الذاكرة عن حادثةٍ له مع كلبٍ عقور، فإنّ الدماغ يجمع بين الناحيتين، فيرى في منامه صديقه ينبح كالكلب! فالأحلام بالنسبة لهذه النظرية ما هي إلا حصيلة لعمليّات فسيولوجية في الدماغ، وكل ما يقال عن معنىً أو رسالةٍ لها فهو من الأوهام التي لا يوجد سند حقيقي لها. يرحب الماديّون بهذه النظرية التي أطلقوا عليها نظرية التفعيل التوليفي Activation-synthesis hypothesis،لأنها منحتهم تصوراً ينسجم مع عقيدتهم الفلسفية المادية، فبها لا حاجة لهم في بذل الجهد للإجابة على الأسئلة الكبرى عن ماهية الأحلام، أو دحض الأدلة المتعاظمة للجانب الروحي لها.

أما النظرية الأعظم تأثيراً على النفسانيين فقد جاءت من فرويد؛ لأنها بالرغم من ضلالها ومبالغتها في تفسيراتها الجنسية لكل نشاطات الإنسان من المهد إلى اللحد، فإنّها قد قدمت تصوراً يبدو للعامّيِ متكاملاً، يجيب على الأسئلة الكبرى عن ماهية الأحلام وأهدافها والمعاني الخفية والرمزية التي تحملها. لا أريد أن أفصّل القول عن نظريّات التحليل النفسي الفرويدي فليس هنا مجالٌ لذلك، ويمكن الرجوع إلى كتابه "تفسير الأحلام"، لكنني مع ذلك أجد في نفسي رغبةً لتبسيط فِكرِه عن الأحلام للقرّاء وللطلاب بشكل خاص، لأنهم يدرسون هذه النظريّات وكأنّها علم قد تُحُقِقَ منه.

وجدت هذه النظرية -عندما قال بها فرويد في أواخر القرن التاسع عشر وطبعت في ١٩٠٠م، في كتابه عن تفسير الأحلام- قبولاً من علماء النفس الغربيين ومن عامة الشعوب الأوروبية لسببين رئيسين. أولهما: أنّ نظريّات فرويد أتت في أنسب الأوقات لنصرة الفكر العلماني التحرري، وللثورة الجنسية بشكل خاص، فأوروبا قد خرجت لتوّها منتصرة بعد أن هزمت الكنيسة، وانقلبت على صرحها وسيطرتها المتزمتة على الرقاب، وقمعها للغريزة الجنسية. ففي تاريخ الكنيسة الذي شهدته أوروبا في القرون الوسطى كانت هناك محاكم التفتيش التي أزهقت بأحكامها أرواح مئات الآلاف من الضحايا، غالبيتهم من نساءٍ اتهمن بارتكاب الفاحشة مع الشيطان! فكانت أوروبا بحاجة إلى فكرٍ تحرري يملأ الفراغ الذي أحدثته هزيمة الكنيسة. كانوا بحاجة إلى فكرٍ تحرري جريء، يعمل وكأنّه دين إلحادي جديد. فجاء التحليل النفسي الفرويدي مدعوماً بفكر الفلاسفة الملحدين بملء هذا الفراغ.

أما السبب الثاني فيَكمُنُ في قدرة فرويد على تأسيس نظرياته على أفكار وتصورات تعارف عليها الناس وقبلوها، لكنّه يقوم بعد ذلك بتجريد هذه التصورات والمفاهيم من جوانبها الروحية والدينية والأخلاقية التي كانت عليها، وإعادة صياغتها بأفكاره العلمانية الموغلة في سيطرة الغريزة الجنسية اللاشعورية والشعورية على السلوك الإنساني. فوجود الدوافع التي تؤثر على سلوك الإنسان دون أن يعي بها أي ما نُطلِقُ عليه الآن اصطلاح "اللاشعور" أمر معروف تحدث عنه علماء وفلاسفة القرون الماضية ردحاً من الزمن قبل فرويد.

أظهر فرويد قبوله بهذا المفهوم وجعله ركيزة أساسية لنظرياته، ثمّ بعد ذلك جرّده من أيّ ناحية روحية أو أخلاقية، وبعدها صبغه بالغريزة الجنسية بشكلٍ كامل، حتى أصبح الدافع الجنسي النابع من اللاشعور في تصوره وراء كل نشاط يقوم به الإنسان من المهد إلى اللحد، حتى وإن لم يكن له علاقة من قريب أو بعيد بالنشاط الجنسي وتصوراته.

الأسلوب نفسه اتبعه فرويد بالنسبة للأحلام، فالاعتقاد بأنّ للأحلام المنامية معنى ورسالة للرائي، وأنّ هذه الرسائل قد تتخذ أشكالاً رمزية، هو من الأمور التي توافقت عليها الحضارات الإنسانية قديمها وحديثها. فجاء فرويد ليؤكد على صحة هذا الاعتقاد بأنّ للأحلام رسالةً رمزية للرائي، ليصبح هذا التأكيد وكأنّه منصة ينطلق منها إلى تصوراته الجنسية.

ففسّر جميع الرسائل الرمزية التي يراها النائم في حلمه بشيءٍ واحد فقط هو محاولة الحلم تحقيق الرغبات الجنسية والعدوانية المكبوتة في اللاشعور، لأنها لا تتسق مع أخلاق النائم ومثله العليا عندما يكون في كامل وعيه. يقول فرويد إنّه عندما ينام الفرد تضعف قوى "الذات الواعية" ego أي شعور الفرد بنفسه، وما يدور حوله، كما يفقد النائم شعوره بدوافعه الأخلاقية وبواعث تصوره عن ذاته المثالية وخوفه من تأنيب ضميره (الذات العليا) (superego)، أو تضعف هذه الدوافع بشكلٍ كبير فتجد النزوات المكبوتة في ذاته الحيوانية (id) الفرصة للتعبير عن دوافعها الجنسية والعدوانية، ولكن بما أنّ النائم لا يفقد رقابته بالكامل على ما يخالف أو يناقض أخلاقه ومعتقداته بل تضعف هذه الرقابة بشكل كبير، فإنّ التعبير عن هذه النزوات الجنسية يسلك سبيل حل وسط، بأن يظهر في الأحلام بشكلٍ رمزي لا يزعج النائم أو يقلق منامه.

وبما أنّ الهدف من جميع الأحلام هو هذا السبيل المتعرج للتعبير عن الدوافع الجنسية اللاشعورية، فإنّ كل ما يراه النائم في أحلامه حسب ادّعاء فرويد هو رمز من رموز هذه

الدوافع الجنسية، ولا شيء غيره، وبناءً على هذا التصور المنحرف وضع فرويد قائمةً بالأشياء العادية التي يراها الناس في الأحلام، وفصّل ما تمثله كرموز جنسية. فكل الأشياء الأسطوانية أو المدببة أو الانسيابية كالأقلام والسجاير والثعابين، أو تلك التي تستخدم لرمي قذيفة ما كالبنادق والمسدسات، أو تلك التي تثقب الأشياء أو تشقّها كالمحاريث هي رموز للذكر أو العضو الجنسي للرجل. وكل الأشياء المستديرة أو المجوّفة كالصناديق والغرف والأواني التي يراها النائم في حلمه هي رموز للعضو الجنسي للمرأة.

ولم يكتف فرويد بتدهين أحلامنا بصبغته الجنسية، بل تعدى ذلك لتلويث سلوك أطفالنا وصلاتنا المقدسة مع الوالدين بهذه الصبغة، فكل أطفال الدنيا كما يزعم فرويد يمرون بما يسميه "عقدة أوديب"، التي يتعلق فيها الطفل الذكر بأمه تعلقاً جنسياً، ويغار من والده ويكرهه. وعقدة إلكترا التي تقابلها بالنسبة للأنثى؛ إذ يقول بأنها تتعلق بأبيها، وتغار من أمّها وتكرهها. وقد أولى فرويد هذه العقدة التي استوحى اسمها من أساطير اليونانيين القدماء أهمية كبيرة، لا سيما في بدايات كتاباته؛ إذ عدّها السبب الأساسي لإصابة الناس بالأمراض النفسية، كما زعم بأنّ أحاسيسنا الجنسية الطفلية هذه تبقى مكبوتةً دون أن نعي بها، ولكنها لا تنسى ولا ينمحي أثرها. لذلك عندما ينام الشخص وتضعف رقابته تظهر هذه العقدة بشكلٍ رمزي في حلمه، وتزداد أهمية كبتها عندما تكون تعبيراً عن الأسباب الحقيقية للاضطراب النفسي.

يضرب أحد النفسانيين مثلاً لهذا الزعم بقوله: "إذا رأيت نفسك في منامك أنك تقدم قشّاً لبقرةٍ حلوبٍ فهذه البقرة ما هي إلا رمز لأمك، وإطعامك إيّاها القشَّ ما هو إلا تعبيرعن أحاسيسك الجنسية المكبوتة نحوها في طفولتك". وللقارئ الذي يريد الاستزادة مما كتبه فرويد أن يطلع على كتاباته وكتابات أتباعه الأُوَل، فهي مليئة بهذه التحليلات المناقضة للمنطق وللفطرة.

إنّ التعميم بأنّ كل أحلامنا رموز لما كبتناه في لاوعينا مما يتعارض مع أخلاقنا ومُثُلِنا، هو تعميم يكذبه ما نراه من أحلام جنسية صريحة تخالف أخلاقنا ومثلنا. لماذا نرى في نومنا من الأحلام الشيطانية التي نرتكب فيها أبشع المحرمات التي يأنف من فعلها أسوأ من نعرف من الناس. أين قوى الرقابة التي كان عليها أن تمنع مثل هذه الأحلام البذيئة الفاحشة أو حتى التعبير عنها رمزيّاً؟

بالإضافة إلى ذلك، إذا كانت كل أحلامنا رموزاً لما كبتناه في لاوعينا كما يزعم فرويد، فقد حُرِمنا من رؤية أيّ شيءٍ في حياتنا العادية بصورةٍ "بريئة"! مثلاً إذا رأى شخص بقرةً ترعى وهو في طريق عودته من عمله، ألا يحق له أن يرى بقرةً في منامه ليلاً دون أن يكون ذلك بسبب إحساسه الجنسي المكبوت نحو والدته؟! فقد ثبت بالأدلة العلمية أن كثيراً مما نراه في أحلام الليل هو تعبير لخبراتنا في نهار اليوم السابق. ولهذه الظاهرة فائدة عظيمة في نقل ذكريات أنشطة النهار وتصفيتها من الخبرات والأحداث غير المهمة، ثمّ نقلها من الذاكرة قصيرة المدى أو المؤقتة Short-term memory إلى الذاكرة المستديمة طويلة المدى Long-term memory. فهل يمكن من هذا المنطلق أن نطبق نظرية الجنس المكبوت على طبيب بيطري يعمل نهاراً في الإشراف على التأكد من صحة الأبقار قبل ذبحها أو على راعٍ يرعى الأبقار؟! وبمناسبة حديثنا هذا عن الأبقار نعيد هنا ما ذكرناه في فصل سابق عن أنّ عالم الفيزياء المشهور آينشتاين أُلْهِمَ تصوره لنظرية النسبية من حلم منامي رآه في شبابه عن أبقار تهرب من سلك مُكَهرَب وترجع القهقرى!

ليس هذا فحسب بل إنّ الناحية الرمزية الجنسية التي قال بها فرويد وصبغ فيها أشياء عادية بالجنس اللاشعوري قد نعطيها عمداً وبوعينا دلالات جنسية، لنتجنب التلفظ بذكر الأعضاء الجنسية باسمها المعروف أمام الناس، فقد نطلق على الأعضاء الجنسية أسماء حيوانات وأشياء لا تمت إلى الجنس بصلة، كاستخدام بعض الناس لكلمة "حمامة" كرمز للذكر خصوصاً بالنسبة لصغار الأطفال، واستخدام بعضهم لكلمة "جمل" لعضو الأنثى الجنسي. فإذا رأى الشخص تلك الحيوانات أو الأشياء في منامه فسوف يستنتج أنه ربما كان في الأمر ناحية جنسية دون الحاجة إلى تفسيرات التحليل النفسي المعقدة.

لقد أَطَلتُ في تبسيط نظرية فرويد في التحليل النفسي للأحلام؛ لأنها الوحيدة التي يركز عليها مؤلفو كتب علم النفس في الغرب، وينقلها النفسانيّون العرب والمسلمون دون نقد أو تمحيص، ثم يدرّسونها لطلابهم وكأنها فيزياء نفسية. فليس للنفسانيين الغربيين بعد أن نبذوا الدين وروحانياته خيار لتفسير الأحلام غير نظرية التفعيل التوليفي ونظرية فرويد. فالأولى -كما ذكرنا- ترفض أيّ معنى أو أهمية للأحلام؛ لأنها حسب زعمهم عبارة عن نشاطات عصبية في الدماغ تحدث بطريقةٍ عشوائية لا معنى لها. لكنّ هذه النظرية فقدت بريقها لتعاظم

الأدلة على حقيقة وجود الأحلام التنبّؤية وما شابهها من الظواهر والأحداث فوق الحاسيّة، فلم يبق لهم سوى نظرية فرويد. فكل ما عدا ذلك من النظريّات كتلك التي جاء بها يونج وغيره من المنظرين، لم تجد القبول ولا الشهرة التي منحت لنظرية فرويد.

لذلك تجد كتب علم النفس الأمريكية والأوروبية تنقل تصوُّر فرويد عن الأحلام من دون كثير نقد أو تجريح، ثمّ تراهم في فصول أخرى من الكتب نفسها يوجهون هجوماً لاهوادة فيه على فكره التحليلي في العلاج النفسي، لفشله الذريع في المجالات التطبيقية الأخرى، مع أنّها تقوم على التصور ذاته الذي اعتمد عليه في صياغة تصوره عن الأحلام.

فكما ذكرنا في فصل سالف لقد شهدت السنوات الأخيرة أفولاً متعاظماً لنجم فرويد وتحليله النفسي، بعد أن أظهرت عدة دراسات عدم جدواه كعلاج نفسي، مما دفع مؤرخي علم النفس لإعادة النظر في مزاعمه حول نجاحاته المزعومة، وعلى نظريّاته التي لا يسندها العلم التجريبي ولا المنطق السليم، حتى وصل الأمر إلى اتهامه بالكذب وبالتدليس، وبأنّه كان مدمناً على مخدر الكوكايين. فقد أثبتت الباحثة ثورنتون Thornton في كتابها المشهور بعنوان "فرويد ومخدر الكوكايين" Freud and Cocaine: The Freudian Fallacy أنّ كل ما كتبه من هوسٍ ومبالغات في نظرياته الجنسية كان من تأثير إدمانه على هذا المخدر.

ولكن بالرغم من كل ذلك فإن نظريته عن تفسير الأحلام بشكلٍ خاص تجد القبول أو على الأقل عدم التجريح من مؤلفي كتب علم النفس ومن عامة الأوروبيين؛ فنظريته تنسجم مع الذوق الغربي، ولها جاذبيتها وعمق تصورها وهوسها بالجنس في تفسيرأحلامهم. وبفشل يونج وأدلر وغيرهما من كبار النفسانيين في الإتيان بنظرية تنافسها، وجد الأوروبيّون أنفسهم أمام خيارين. إمّا القبول بفكر فرويد أو قبول التفاسير الروحية والتليباثية (التخاطر) للأحلام التي وجدت قبولاً متزايداً في الآونة الأخيرة، مما يمكن أن يعود بصغارهم بالتدريج إلى الفكر الديني، لذلك فضلوا التمسك بفرويد. ولعل هذه مثلبة من مثالب التفكير الأعمى المتعامي، الذي يُصرّ على اتّباع نظرية ما على عيوبها، والتمسك بها رغم عوارها، حتى لا يلجأ إلى الاعتراف بالنظريات الأخرى، ومن هنا تتوارد الصيحات التي تنادي بالتمسك بنظرية داروين رغم عيوبها الظاهرة؛ لأنّه لا بديل لها سوى الاعتراف بوجود إله خالق.

هذا إذن هو الاعتقاد الرافض للتأويل الروحي والديني للأحلام من أبناء الحضارة الغربية الحديثة، فهو اعتقاد تأصّل في قلوبهم كالدين العلماني الذي ورثوه من ثورة أجدادهم على كاثوليكية القرون الوسطى وممارسات الإكليروس، فصاغوا فكرهم وتصورهم للكون وللحياة من خلاله. هذه الظاهرة هي ردّة فِعلِ المجتمعات التي عانت من تطرف فكرٍ أوعقيدة تحَكّمت فيهم فانقلبوا عليها بانتهاج فكرٍ مضادٍ لها وبالأسلوب المتطرف نفسه.

هذا تفسير اجتماعي وحضاري لاشمئزاز الفكر الأوروبي من التفسيرات الروحية للأمور، وترحيبه بالنظريّات والممارسات المضادة لها. هذه هي الأسباب التاريخية والأيديولوجية، فما بال النفسانيين وأساتذة علم النفس المسلمين يقبلون هذه الأفكار الغربية من دون تفكير منطقي أو أخلاقي، وتاريخهم الإسلامي لم يشهد نزاعاً بين العلم والدين بل العكس؛ فالإسلام بتاريخه الناصع هو الذي فتح بصيرتهم وبصائرهم لجميع العلوم النظرية والتجريبية. والآن بنهاية هذه المقدمة ننتقل إلى صلب موضوعنا ولنبدأ بنظرة الإسلام للأحلام والرؤى المنامية.

تصور الإسلام للرؤى والأحلام وتصنيفها

للرؤى مكانة عالية في الإسلام. فالتصور الإسلامي لحقيقتها وأنواعها لم يأتنا من عالمٍ ولا من مدّعٍ للعلم، بل من أعظم مصادر الإسلام وأقدسها؛ مِنَ الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ. ففي الحديث الشريف الذي رواه البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة، يقول الرسول ﷺ: "الرُّؤْيَا ثَلاثٌ: فَبُشْرَى مِنَ اللهِ، وَحَدِيثُ النَّفْسِ، وَتَخْوِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ... ."[1] لنبدأ بالتعليق النفسي عن "حديث النفس" لأننا تحدثنا عنه من قبل باختصار.

في صيغة أخرى لهذ الحديث الشامل عن الرؤى، وهو أيضاً مما رواه ابن ماجه أنّ رسول الله ﷺ قال: "إن الرؤيا ثلاث: منها أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، ومنها ما يهم به الرجل في يقظته، فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة."[2] ففي هذا الحديث يشرح نبينا ﷺ حديث النفس بأنّه ما "يهمّ به الرجل في يقظته فيراه في منامه". ما

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب التعبير، باب القيد في المنام، حديث رقم (٧٠١٧) ص١٣٤١.

(٢) ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد (توفي ٢٧٣هـ). **سنن ابن ماجه**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٩م، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا ثلاث، حديث رقم (٣٩٠٧) ص٤١٩.

يهمّ الرجل في يقظته يشمل ذكرياته، وكل ما توسوس به نفسه من آماله ومخاوفه وما يحب وما يبغض، بالإضافة إلى الأحداث العادية الروتينية وغير العادية التي يعيشها في نهاره. فكما أكدنا آنفاً فإنَّ كثيراً من أحلام الليل تأتي متأثرةً بخبرات النهار وأحداثه، وهذا أمر يعرفه الجميع، وأثبتته الدراسات التجريبية كما ذكرنا. ومما يهم المرء في يقظته قد يكون أموراً شهوانية أو بيولوجية أو نفسيّة. فالشهوة الجنسية تأتي كواحدةٍ مما يهم المرء في يقظته، وليست الوحيدة المسيطرة على كل أحلامه كما يزعم فرويد.

أما الصنفان الثاني والثالث المتضادان، فيمثلان النواحي الروحية والرمزية في الرؤى والأحلام. ولتوضيح هذين الصنفين من الأحلام الرمزية والروحية نضرب للقارئ مثلاً من حياتنا الحاضرة. فعالمنا الذي نعيش فيه يموج بالذبذبات والأمواج التي ترسلها أجهزة الإرسال لتستقبلها تلفزيوناتنا وما نحمل من أجهزةٍ أخرى، فمنها رسائل وذبذبات خيرٍ تبث القراءات المختلفة للقرآن الكريم، وتحضُّ على فعل الصالح من الأعمال، ومنها ما ينقل أسوأ ما توصل إليه المجرمون من أفلام الفاحشة واللواط ونشر الأكاذيب، وهتك الأعراض. كذلك يعجُّ عالمنا الذي نعيش فيه بالملائكة والأرواح الخيّرة كما يعج بالجن والشياطين والأرواح الشريرة، وقد خلق الله تعالى لنا قلوباً وأفئدةً لها القدرة على استقبال الرسائل الروحية والأثيرية الخيّرة أو الشريرة أثناء وعينا وأحلامنا المنامية، وكأنّ هذه القلوب والأفئدة "رادار" روحي كما ذكرنا من قبل.

هذا الاختلاف والتعارض هو من بديع خلق الله، فالله قد خلق الليل ليقابله النهار، وكذا السعادة والشقاء، والخير والشر، والذكر والأنثى، والإنس والجن، والهدى والضلال. خلق الله من كل شيء صنفين متقابلين أو كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] فعندما ينام الإنسان ويتخفف من ثقل الوعي، يأذن الله لروحه بأن تسبح في ملكوته الروحي، فتتشكل أحلامه بتأثير الكائنات الروحية الخيّرة كالملائكة، أو الشريرة من جنٍّ وشياطين. فإن كان التأثير من أرواح شريرة رأى في حلمه ما يحزنه ويسوؤه، أو يرى ما يحرجه، كأن يمشي في الطريق أمام الناس من دون سروال أو يقوم أمامهم بأفعالٍ لا تليق به. هذا هو الصنف الذي عناه الرسول ﷺ بوصفه "بأهاويل الشيطان" أو "بتلاعب

الشيطان به". ففي حديثٍ رواه مسلم أنّ أعرابياً رأىٰ في حلمه أنّ رأسه قد قُطِع وأنّه رأىٰ جسمه بلا رأس يتبع الرأس المقطوع. فقصّ حلمه علىٰ الرسول الله ﷺ آملاً منه في أن يجد عنده تأويلاً، لكنّ الرسول زجره، وقال له: "لا تخبر بتلاعب الشيطان بك في المنام."[1]

فالأحلام والرؤىٰ إذن قد تكون بتأثير خبرات النائم وما يهتم به في نهاره، أو قد يكون بتأثير الشياطين والأرواح الشريرة، بقي النوع الثالث الذي نرىٰ فيه الرؤىٰ المُفرِحَة والبُشْريّات، كما نرىٰ فيه الرؤىٰ التنبؤية، نراها ونحن نيام في أَسِرَّتنا فتحدث بحذافيرها في مستقبل حياتنا. هذه هي الطائفة الثالثة من الأحلام والرؤىٰ المنامية التي وصفها النبي بأنها من الله أو بشرىٰ من الله. فعندما تلتقي النفوس الطاهرة والقلوب الخاشعة مع قدرة المؤمن العالية علىٰ تلقي الإشارات الروحية (الرادار الروحي)، فإن رؤاه المنامية قد تشابه في دقتها وبركتها وحي الأنبياء، مع أخذنا في الاعتبارالفرق العظيم بين الأنبياء والأولياء.

ولهذا فقد عدَّ النبي هذا الصنف من الرؤىٰ الصادقة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (الحديث رواه البخاري).[2] لذلك اتخذ الرسول ﷺ بعض قراراته الدينية بناءً علىٰ رؤيا صادقة رآها صحابي، ويزيد من اعتبارها إذا تواطأت مع رؤيا مشابهة لصحابي آخر.

من ذلك ما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه أنّ النبي ﷺ أراد أن تكون مناداة المسلمين لإقامة الصلوات الخمس في مسجده بناقوسٍ كناقوس النصارىٰ، لكن الصحابي الجليل عبد الله بن زيد بن عبد ربه رأىٰ في منامه رجلاً يحمل ناقوساً فأراد أن يشتريه ليدعو به المسلمين للصلاة، فقال له الرجل: "أفلا أدلك علىٰ خير من ذلك؟"[3] وسرد له كلمات الأذان التي استمرت كما هي إلىٰ يومنا الحاضر. ومما قوّىٰ من قبول النبي ﷺ لرؤيا عبدالله أنّ عمر بن الخطاب رأىٰ رؤيا مشابهة بنفس كلمات الأذان. فلولا هاتين الرؤيتين لكنا اليوم نتحرىٰ جَرَس الصبح وجرس الظهر وجرس الإمساك عن الطعام في رمضان!

---

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الرؤيا، باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام، حديث رقم (٢٢٦٨) ص٩٣٢.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب التعبير، باب القيد في المنام، حديث رقم (٧٠١٧) ص١٣٤١.

(٣) الترمذي، **جامع الترمذي**، مرجع سابق، كتاب الصلاة، باب ما جاء في بدء الأذان، حديث رقم (١٩٠) ص٥٠، وابن ماجه، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، كتاب الأذان والسنة فيه، باب بدء الأذان، حديث رقم (٧٠٦)، ص٨٦.

ومن أعظم الأدلة على مكانة الرؤى الصالحة في الإسلام، أنّ أمير المؤمنين أبا بكر الصديق نفذ وصية شهيد بناءً على رؤيا رآها له صحابي آخر من بعد موته. فكانت هذه أول وصيةٍ تنفذ اعتماداً على رؤيا منامية بعد موت صاحبها. فالصحابي المجاهد قيس بن ثابت قُتل شهيداً في حرب الردّة، فرآه أحد المجاهدين في منامه في الليلة التي أعقبت استشهاده، فقال له: إياك أن تظن أن ما تراه حلماً عاديّاً، بل هي وصية منّي تبلغها لخالد بن الوليد أمير جيش المسلمين. فقد مرّ بي رجل من المسلمين، وانتزع درعي من جثتي وخبأه تحت برمةٍ في منزله، ووصف له مكان المنزل، وأمره بأن يطلب من خالد إرسال من يأتي بالدرع، وأن يبلغ أمير المؤمنين أبا بكر الصديق بأن يُباع لسداد دين عليه. فوجد الصحابي الذي أرسله خالد بن الوليد الدرع في المكان الذي وُصِفَ له في الرؤيا، وأرسل خالد الدرع لأبي بكر الصديق، ونفذ الصدّيق وصية الشهيد.[1]

فإن كانت هذه هي رؤى المسلمين العاديين فما ظنك برؤى الأنبياء؟ إنّهم معصومون في وعيهم بالنهار، كما أنّهم معصومون في نومهم ورؤاهم في الليل، فلا تجرؤ الأرواح الشريرة من طمس معالم أحلامهم أو حتى الاقتراب منها. فرؤى الأنبياء محروسة بجند الله؛ لأنها إحدى وسائل تلقيهم لوحي السماء. أرجوأن يقارن القارئ بين تفسيرات فرويد الجنسية أو النظرية الفسيولوجية المُنْكِرة لأيّ معنىً للأحلام، والتصوّر النبوي الثلاثي للأحلام والمعاني السامية التي يحملها ما صدق منها. من هذا المنطلق نأتي لتفصيل الحديث عن سيدنا يوسف عليه السلام وعن تأويله للرؤى والأحاديث.

تأمُّلات نفسية في سيرة يوسف عليه السلام وحكمة الله في اختيار بيئته ووراثته

في تأملاتنا لهذه الفقرة نقف أمام نبيّ وصفه نبينا ﷺ بأنّه أكرم الناس. ففي حديث شريف عن ابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: "الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم."[2] وفي صيغةٍ أخرى

(١) انظر نحوه ما جاء عند الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (توفي ٧٤٨هـ). **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٢م، ج١، ص٣١١، ترجمة ثابت بن قيس بن شماس.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، حديث رقم (٣٣٨٢) ص٦٤٨.

قال: "أكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله."[1] فلعل الله قد وَرَّثَه من الجينات الروحية التي تحدثنا عنها آنفاً ما لم يورثها لكثير من الأنبياء، ولعل هذه المورثات الروحية التي وُهِبَت لأبيه وأجداده من الأنبياء قد تجمعت كلها في تكوينه، حتىٰ غدا كالملائكة في رقته وجماله، تصديقاً لقول النسوة اللائي فُتِنّ به إذ قلن عندما رأينه ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٞ﴾ [يوسف:٣١].

فانظر إلىٰ عظيم حكمة الله في تكوين شخصيّات الأنبياء وتنشئتهم حتىٰ يقوموا بالرسالة التي كلفوا بها، وبخوض الابتلاءات التي سيتعرضون لها. تُشعِرُنا سورة يوسف بأنّه كان رقيقاً صبوراً علىٰ كل من حاول إيذاءه أو قتله أو إحراجه أو ظلمه، فلا يؤذيه حتىٰ بكلمة تحرجه أو تضايقه. وهذا لعمري من أشقّ الابتلاءات التي يمكن أن يتعرض لها نبي من الأنبياء. فالإعجاز في خلق جمال وجهه تشابه بالإعجاز في رقة ولطف سلوكه.

تأمل لو كان موسىٰ عليه السلام في المواقف التي عاشها يوسف أمام ظلم إخوته له ومحاولة قتله والإساءة لسمعته، ثمّ جاؤوا إليه بعد سنين فقراءَ أذلاء يطلبون الصدقة ببضاعةٍ مزجاة وهو في مقام الملك؟ ماذا كان سيحدث لهم لو أنّ الذي جاؤوا إليه كان موسىٰ؟ وماذا كان موسىٰ عليه السلام سيفعل إذا غلقت امرأة العزيز الأبواب وقالت: "هيت لك". كان سيصفعها أو يعطيها وكزةً كَوَكزَتِه للمصري قد تنهي حياتها، مدفوعاً بما وهبه الله تعالىٰ من قوةٍ وسرعةٍ في الاستجابات العاطفية.

تأملات حول الرؤيا الأولىٰ ليوسف عليه السلام

فصّلت لنا السورة ثلاث رؤىٰ أو أربع، وأخبرتنا بأنّ هناك أحلاماً أخرىٰ أوّلها يوسف للسجينيْن، ولم تقصها علينا السورة. فالرؤيا الأولىٰ ليوسف كانت في طفولته حيث قال لأبيه: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. كيف كان هذا السجود الرمزي لجمادٍ حين يسجد لبشر. الرؤيا فيها رموز فَهِمهَا يوسف رغم صغر سنه، أو لعلها جاءت مصحوبة بكلماتٍ لم يفصلها لنا القرآن الكريم.

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، حديث رقم (٣٣٥٣) ص٦٤١.

ولنتساءل كم كان عمر يوسف لمّا رأى هذه الرؤيا؟ هناك من المفسرين من قال إنّه كان ابن اثنتي عشرة سنة أو أكثر، ومنهم من قال ابن تسع سنوات، ومنهم من قال ابن سبع سنين. فإذا تأملنا في بقية أحداث القصة التي قام فيها إخوته بإقناع والدهم بأخذه معهم "، ليرتع ويلعب"لأيقنّا بأنه كان طفلاً صغيراً لا يزيد عمره على الخامسة أو السادسة. تأمل الآيتين ١١ و١٢ من السورة: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١١-١٢].

الشاب الذي تخطى الثانية عشرة لا يقبل أن "يرتع ويلعب"، أو أن يجلس حارساً لمتاع إخوته ليستبقوا، بل كان سينافسهم في السباق. فلو كان في سن المراهقة لجاؤوا لوالدهم بفريةٍ غير التهام الذئب له. فالمراهق ابن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة لا يستطيع الذئب أن يأكله لقمة سائغة، فالشاب يستطيع أن يقاوم وأن يقذف الذئب بالحجارة أو يضربه بعصاه.

ثمّ يمضي القرآن ليخبرنا أنّ يعقوب عليه السلام أمر ابنه يوسف بألّا يقصص رؤياه على إخوته فيحقدوا عليه. تأملاتنا حول هذا التحذير النبوي يشعرنا بما للرؤى من أهمية في بيت النبوة. فإذا رأى طفل في منامه في بيتٍ عادي كواكب وأقماراً تسجد له، لضحك السامعون. لكنّ إخوة يوسف هم أحفاد إبراهيم عليه السلام الذي صدع لوحي السماء برؤيا تأمره بذبح ابنه.

فرؤيا يوسف هي بشرى من الله، وتأويلهم لها قد يملأ قلوبهم بالحقد فيكيدوا له. يزيد من هذا الكيد ما ذكرناه عن تصورنا للمورثات الروحية. فلعل إخوة يوسف رغم نواياهم الشريرة وأعمالهم السيئة هم أبناء وأحفاد الأنبياء، وربما ورثوا منهم من المورثات الروحية ما يجعلهم من المُحدَّثين. فهذه الهبة -كما ذكرنا- ليس لها بالضرورة ارتباط بالتديّن. فهذه الهبة الموروثة قد تمكّنهم من رؤية ما امتاز به يوسف عليهم وإن كان طفلاً.

نتابع تأملاتنا للطفل يوسف حين قرَّر إخوته إلقاءه في البئر. من الواضح أنّه كان طفلاً صغيراً لا يستطيع أن يقاومهم، أو أن يركض بأسرع ما يستطيع هرباً منهم، أو أن يحاول التسلق بقوة الشباب ليخرج من البئر. لعله كان يبكي ويستعطفهم، لكنهم حملوه بالقوة وألقوا به في ظلمات البئر، فكان في أمسّ الحاجة لمن يخفف عنه الخوف. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. كيف كان

هذا الوحي والفزع ويبشره بصدق رؤياه، وبأنّ الله سينصره عليهم وإن طال الزمن. فجاءته البشرىٰ بوحيٍ من الله لطفلٍ صغير؟ بعض المفسرين والمؤولين قالوا: كان الوحي برؤيا رآها وهو يغفو في ظلام البئر المخيف. فإن كانت رؤيا لكان في السورة أربعة أحلام، وإن لم تكن رؤيا بل وحياً فستكون هناك ثلاثة أحلام واضحة في السورة.

حكمة الله في نقل يوسف عليه السلام إلىٰ أمّ القرىٰ

عندما جاء وارد السيارة أو القافلة وأدلىٰ دلوه في البئر، تعلّق يوسف بالدلو، فصاح الرجل ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ [يوسف: ١٩] وأخرجه من البئر. وفي بعض الأقوال إنّ الرجل لم يتبيّن ما كان في دلوه لظلام البئر، فاستمر في سحب حبله ويوسف متعلق به، فلم يكتشف أن الوزن الثقيل كان لطفلٍ ولم يكن لماء! هذا أيضاً دليل علىٰ صغر سن يوسف في ذلك الوقت. يا ترىٰ ما هي حكمة الله في تعريض هذا الطفل المبارك لمثل هذه الصعوبات؟ بالطبع لأنه يُعِدُّه ليكون رسولاً نبيّاً. ولكن الله لا يرسل رسولاً لسكان قرية نائية في أرض كنعان، فالقرآن يخبرنا بأنّ الله تعالىٰ يرسل رسله إلىٰ أمهات القرىٰ أي إلىٰ أكبر المدن: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

لم تكن أم القرىٰ في عهد يوسف سوىٰ عاصمة مصر التي ربما كانت في ذلك الوقت عاصمة الدنيا بأجمعها. فاقتضت حكمة الله وتدبيره أن يغوي الشيطان إخوته فيلقوه في غيابت الجب، لينقذه من يحمله إلىٰ حيث أراد ألله تعالىٰ إلىٰ مصر، فحكمة الله تعالىٰ قد تستخدم المجرمين والشياطين التي تغويهم لأمرٍ خفي فيه خير عظيم. اقرأ إن شئت في سورة الكهف الآيات من رقم ٦٢ إلىٰ ٦٥ حين يأمر موسىٰ فتاه بإحضار طعام الغداء من لحم حوت كان يحمله الفتىٰ، ولكنّ الحوت عاد للحياة واتخذ سبيله في البحر سرباً. كان علىٰ الفتىٰ أن يخبر موسىٰ بذلك لكن الشيطان أنساه ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ [الكهف: ٦٣]. لكن ما فعله الحوت كان العلامة التي من أجلها كانت تلك الرحلة الطويلة ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾، فرجعا إلىٰ المكان ووجدا (الخضر) في انتظارهما. فالشيطان أنسىٰ الفتىٰ ليدرك موسىٰ ما أمر به، ويلتقي (بالخضر)، فالله هو المهيمن، وهو الذي يأتي بالخير مما نظنه شرّاً، ويأتي بغير ذلك لما نحسبه خيراً.

وصل الذين اشتروا الطفل يوسف بدراهم معدودة إلى مدينة بر رمسيس عاصمة الهكسوس في مصر، وعرضوا يوسف للبيع، فتنافس فيه تجار الرقيق، لكن وزير مصر الأول الملقب بعزيز مصر دخل المنافسة واشتراه. كان طفلاً فائق الجمال، ولم يكن للعزيز أطفالٌ فعطف عليه، وأحسّ نحوه بالأبوة التي حرم منها، مما يؤكد صغر سن يوسف حينذاك، وقال لزوجته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. فهنا نشاهد حكمة الله في اختيار البيئة المناسبة لنبيه. فعاش يوسف مكرّماً معزّزاً خلال سنين طفولته مثل موسى، فكما قيّض الله لموسى ملكةً حرمت من الأطفال، فجاء ليملأ لها هذا الفراغ وتعطه من المحبة والحنان اللازمين لنفسيّته كرسول، كذلك قيض الله ليوسف الظروف البيئية نفسها، هذا بالإضافة إلى تنشئتهما في بلاط حكام مصر وإحساسهما بالطمأنينة الاجتماعية التي تقوّيها معرفتهم بنبل محتدهم.

حكمة الله في حرمان يوسف من والديه في سنٍّ صغيرة

إنّ تأملاتي حول انتزاع يوسف وهو في الخامسة أو السادسة من عمره من حضن عاطفة أبيه المتدفقة، وحنان خالته المحبة التي ربّته، تحتاج إلى التفكُّر في حكمة الله حول هذا الأمر. إنّ الله تعالى قد اختار يوسف رسولاً إلى أهل مصر. ولا يمكن لرسول أن يبلغ عن الله دون أن يتقن لسان قومه. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]. فكان يوسف يتحدث العبرية التي كانت اللغة السائدة في بلاد كنعان، ولكنه احتاج إلى تعلم اللغة المصرية القديمة عندما أدخله عزيز مصر في بلاطه، وهذه اللغة هي التي أراد الله ليوسف أن يتقنها ليستخدمها من بعد في الدعوة إلى الله. ومن المعروف أنّ للأطفال قدرة هائلة في إتقان اللغة الجديدة ومخارجها الصحيحة. فإذا وصل الطفل إلى سن البلوغ أو إلى الثانية عشرة كما قال بعض المفسرين صَعُب بل ربما استحال عليه إتقان مخارج الكلمات، وما يصاحبها من حروف ساكنةٍ ومتحركةٍ. فأراد الله ليوسف أن يحسن اللغة فيحسن البلاغ.

فحتى في البلد الواحد تكون هناك لهجة أهل العاصمة التي يحترمها الناس ويصيغون بها أدبهم، وهناك لهجات الريف والبدو التي قد تتمايز عن لهجة المدينة. فاقتضت حكمة الله أن يكون يوسف صغيراً ليتقن اللغة المصرية الفصيحة كأهلها.

من حنان الأمومة إلى الاغتصاب الجنسي

نتنقل بتأمّلاتنا مع النبي يوسف وهو ينمو كزهرةٍ تتفتح من أكمامها؛ إذ ازداد جمالاً على جماله، ففُتنت به من كانت له أمّاً بديلة، وراودته عن نفسه فاستعصم استعصام الأنبياء المعصومين، وأبى إباء الرجال المؤتمنين على عرض من أحسن إليهم، وفوق ذلك كان إجلاله لله العزيز الكريم الذي نجّاه وقيّض له حياة الأمراء والملوك. يرسم لنا وحي الله صورة امرأة تملكتها الشهوة الجنسية حتى أنستها كبرها وكبرياءها، وما كان منها من إحساسٍ بالأمومة نحوه، عندما جاء به العزيز إليها لتتخذه ولداً. فلما أبى وهرع مسرعاً لفتح الباب اندفعت وراءه كالأهوس وتشبثت بقميصه حتى شقّته. وصف لنا القرآن الكريم هذه الحادثة كقمةٍ لما كان من محاولة امرأة العزيز لاغتصابه، وترك لنا القرآن تخيّل التفاصيل التي أدّت إلى هذا المشهد المثير.

تقول تأملاتي أنّ ما حدث لا بدّ أن تكون قد سبقته محاولات كثيرة منها لإغواء يوسف. لعلها كانت تتجمل وتحاول إغراءه بشتى وسائل الأنثى المترفة المتعطشة لإرواء عطشها الجنسي، ظنّاً منها بأنّ ذلك سوف يضعف إرادته فتجد التجاوب منه، فلما فقدت الأمل قررت أن تقوم بهذا الهجوم المباغت. فكان الأمر كله تنفيذاً للابتلاء الفريد الذي تعرض له نبي الله يوسف، الذي وهبه الله تعالى خلقاً رفيعاً وتهذيباً ورقةً تمنعه من انتهار من ظلمه، أو الانتقام منه بالقول أو باليد. فكان هذا من أصعب الابتلاءات التي امتُحِنَ بها نبي من الأنبياء.

السِّر "المغناطيسي"

لعلّ جمال يوسف ورقته كانا مصحوبين بسرٍّ إلهي يجذب قلوب من ينظر إليه وكأنه مُمَغنَط. فسورة يوسف عليه السلام تخبرنا بأنّ امرأة العزيز لمّا سمعت باستبشاع نساء الطبقة المصرية المترفة وانتقادهم لما قامت به نحو فتاها، دبرت لهنّ مكيدة تستخدم فيها جمال يوسف وتأثيره القوي على من ينظر إليه. ذلك بأنها قد أحسّت -ولو كان إحساساً مبهماً- من خبرتها الشخصية إلى ذلك السرّ الخفي الذي أودعه الله في شخصيته. فقد كانت تنظر إليه طفلاً نشأ في بيتها، واعتادت على رؤية وسامته التي كانت تراها كل يوم، فلمّا استوى تنزّل عليه فجأة ما لم تستطع مقاومته. لذلك دبرّت لهنّ مكيدة تبرر محاولتها اغتصاب فتاها.

أرسلت إليهنّ وجهّزت لهن وسائد للاتّكاء عليها، وآتت كل واحدة منهنّ سكيناً لأكل الفاكهة. وبينما هنّ في حالة استرخاء ودعة، وقد بدأن في تقطيع الفاكهة فاجأتهن بوقوف يوسف أمامهنّ ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ [الآية: ٣١]. فبجماله المعجز وتأثيره المُمَغنِط، ذهلت النسوة عن أنفسهن واستولت عليهن حالة تشبه حالة الشخص الذي فقد وعيه من تأثير التنويم المغناطيسي.

واصلن التقطيع دون وعيٍ وهنّ ينظرن إليه بعيون جاحظة ثابتة، ولكن الفواكه كانت قد انزلقت من الأطباق، فقطّعن أيديهن دون الإحساس بالألم. فالنفسانيّون المتخصصون في فن التنويم يمكنهم بسهولة أن يعرّضوا الشخص المنوّم لسطحٍ حار ويوحون إليه بأنه بارد، فلا يبدي ألماً ثمّ يعكسون الأمر فيشعر بألم الحرارة من ملامسته لشيءٍ باردٍ! فهذا أمر سهل بالنسبة لهم. فقبل اكتشاف العقاقير المُبَنِّجَة كان الجراحون يستخدمون التنويم المغناطيسي لإجراء عملياتهم الجراحية.

جمال وجه يوسف قد لا يأتي وحده بهذا التأثير، لكن يوسف أوتي هذا السر من الله لزيادة صعوبة ابتلائه؛ فلم يُبتلَ يوسف بقتال المشركين، ولم يُعَرّض للأذىٰ والأمراض كما حدث لكثير من الرُّسل، فابتلاؤه كان في مقاومة كيد النساء اللائي فُتِنّ به والعفو عمّن ظلمه. ونستشعر هنا بأنّ الله تعالىٰ قد وهبه هذا السرّ الملائكي ليرفع من مقامه كنبيٍ مرسل. وقد أُلهِمَ النسوة طرفاً من هذا السرّ حين قلن ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٞ﴾ [يوسف: ٣١].

عندما رأت امرأة العزيز ما فعل النسوة بأيديهنّ شعرت بردٍّ كرامتها، وجهرت بتبجحٍ بأنها هي التي راودته عن نفسه، وأنّها سوف تجبره علىٰ فعل الفاحشة، وإن رفض فسوف تعاقبه بالسجن والمهانة: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

عند ذلك تضافر النسوة علىٰ إغرائه بشتىٰ الوسائل لكنه استعصم. تأمل أيها القارئ في شدة هذا الابتلاء. فعن أبي هريرة أنّ رسول الله بشّر سبعةً بأنّ الله تعالىٰ يظلهم بظله يوم لا

ظل إلا ظله منهم: "رجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال إنّي أخاف الله."[1] فكيف بشابٍ دعته امرأة بل نساء ذوات حسن وجمال، فكانت امرأة العزيز من أجمل النساء، ومكانتها بالنسبة ليوسف لم تكن فقط امرأة ذات منصب، بل هي سيدته والمتحكمة في حياته، بل هي المتحكمة في زوجها، فهولا يجرؤ أن يعصي لها أمراً. فهي التي تهدد بالسجن وسوء المعاملة، وينصاع زوجها لأوامرها كما ينصاع له مرؤوسوه.

لا جرم أنّ يوسف عليه السلام كان من أشدّ الأنبياء بلاءً، فلا يقدر على هذا الإغواء إلا نبي. لكنّه لما طال عليه هذا الابتلاء وتهديد امرأة العزيز له بالسجن دعا ربّه قائلاً: ﴿.. رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فهيأ الله له بتدبيره المحكم الأسباب التي أدّت لاستجابة دعائه. فلا شك أنّ النسوة قد تحدثن في مجتمعاتهنّ عن صلابة يوسف أمام إغراء امرأة العزيز ومن معها من النساء المترفات، حتى شاع الخبر وتخوّف العزيز وأهله من فضيحةٍ قد يكون لها ما بعدها. عند ذلك تلاقى الرأي في سجنه حتى تهدأ الأصوات، وينسى المصريّون ما فعلت زوجة عزيزهم، فكان ذلك تدبيراً من الله لإنقاذ يوسف واستجابةً لدعائه بأن ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ بالسجن.

يوسف عليه السلام في السجن

إذا استثنينا الوحي أو الرؤيا التي تلقاها يوسف طفلاً وهو في غيابت الجب، فإنّ القرآن الكريم لم يحدثنا عن نبوته عليه السلام، ولا عن الخاصيّة المعجزة التي وهبها إياه بتأويل الأحاديث والأحلام المنامية، لم يحدثنا إلّا من بعد دخوله السجن. فالسجن لمن جرّبه مكان تُشحَذُ فيه الأحاسيس، وتُرَقَّق فيه العواطف، ويَمنَحُ المسجون وقت فراغ طويلاً ليتعمق في أفكاره الانفعالية، وما تصوّره من أحلامٍ منامية عمّا مضى وما سيأتي.

لذلك السجينان اللذان أدخلا مع يوسف السجن، وجدا فيه عليه السلام صديقاً مباركاً يؤوّل لهما أحلامهما الكثيرة، التي لم يخبرنا القرآن الكريم بكل تفاصيلها ولا بتأويلها لهما، بل أخبرنا بلسان يوسف أنّها كانت تحدث في واقع الحياة تماماً كما أوّلها لهما: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، حديث رقم (٦٦٠) ص١٤١.

تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

امتنّ عليهما يوسف عندما جاءاه له طالبين التأويل لحلمين لهما شأن عظيم على مستقبل حياتهما. فوجد الفرصة مناسبة ليدعوهما لتوحيد الله ونبذ آلهتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان. دعاهما برقته التي فطره الله عليها فخاطبهما "بصاحبي السجن" وهما كانا من الخدم في قصر الملك، ويوسف كان كالأمراء في قصر عزيز مصر. ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ؟﴾ وفي هذا درس عظيم لدعاة التوحيد في زمننا الحاضر. رأى أحدهما في حلمه أنّه يعصر العنب ليصنع خمراً للملك، ورأى الآخر أنّه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه. وكما هو منطوق في الآيات الكريمات بأن يوسف عليه السلام أوّل لهما رؤيتيهما. فقال للذي رأى نفسه يعصر خمراً إنّه سيكون ساقياً للملك، وأوّل حلم الذي رأى نفسه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه بأنّه سوف يصلب وتأكل الطير من رأسه. فتحقق الحلمان، وأُفرج عن الذي رأى نفسه يعصر خمراً وغدا ساقياً للملك، وأُعدم الآخر وصُلِبَ.

الرؤى الصادقة

ما يهمنا هنا هو أن ندرك بأنّ بعض الأحلام والرؤى تتحقق في المستقبل كما رآها النائم. ومثل هذه الرؤى قد تحتاج إلى تأويلٍ بسيط أو حتى قد لا تحتاج إلى تأويل. فضرب الله لنا مثلاً عن هذا النوع من الرؤى بتأويل يوسف لرؤيا السجين الذي رأى نفسه يعصر خمراً، ثمّ صدقت رؤياه فأُطلِقَ سراحه من السجن وأُرجِعَ إلى عمله ليعصر العنب خمراً لشراب الملك.

ونعلم من تاريخنا الإسلامي بأنّه كلما ازدادت روحانية المسلم، كثرت رؤاه الصادقة، فسيرة عبّادنا وعلمائنا تزخر بمثل هذه الرؤى، بل إنّ بعضهم قد تبدلت حياته بسبب رؤيا صادقة رآها أو رؤيت له. لكن كما ذكرنا من قبل يمكن حدوث مثل هذه الرؤى لغير المتدينين، بل لغير المسلمين لكنها نادرة الحصول. وفي بعض الأحيان قد يراها غير المسلم لأمر مستتر فيه خير عظيم للإنسانية قدّره الله تعالى.

من ذلك الحلم المتكرر الذي رآه عبد المطلب جد رسول الله ﷺ يأمره بحفر بئر زمزم في مكان صحراوي حُدّد له في الحلم، فحفرها وتدفق الماء الذي أضحى يتفجّر الى يومنا هذا ليرتوي منه ملايين الحجاج والمعتمرين وأهل مكة وغيرها، ويُعبّأ ويرسل إلى شتى بقاع الأرض، فزمزم معجزة باقية من معجزات الحرم المكّي. أمّا الأنبياء فيصدق كل ما يرونه في منامهم كبشرى لهم بالنبوة التي تصبح الأحلام بعدها إحدى وسائل الوحي. فعن سيدتنا وأمّنا عائشة أَنَّهَا قَالَتْ: "كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ. فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ."[1]

الرؤى والأحلام التي تأتي بشكل رمزي: أهي أحلام أم أحاديث؟

أنبأنا القرآن الكريم أنّ ما أنعم الله به على يوسف هي موهبته في تأويل الأحاديث، لكنّ السورة ركزت لنا فقط على تأويل الأحلام والرؤى. فلماذا عبّر القرآن بتسمية هذه المعجزة بتأويل الأحاديث ولم يسمّها بتأويل الأحلام والرؤى؟ إنّ الأحلام والرؤى التي تأتي بشكلٍ رمزي كحلم الفتى الذي رأى نفسه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه تحتاج إلى شخصٍ أنعم الله عليه ببصيرةٍ يفرق بها بين ما يمثله الرمز وبين حديث النفس وتهاويل الشيطان والبُشريّات الإلهيّة.

ذلك لأن مكوّنات الأحلام الثلاثة قد يختلط بعضها ببعض. هذا بالإضافة إلى أنّ الأبحاث التجريبية الحديثة في ميدان الأحلام، قد أثبتت بالبراهين العملية أنّ الشخص إذا لم يسجل حلمه بمجرد استيقاظه من النوم، فإنّ ذاكرته وما تحمله من أحداث لها ارتباط بحلمه سوف تتدخل حتماً مع مرور الوقت -تدخلاً بسيطاً أو كبيراً- في إعادة تشكيل ما سوف يتذكره عن أحداث حلمه. كذلك فإنّ بعض الأشخاص قد تخونه ذاكرته الضعيفة أو قد تتداخل خبرات اليوم الذي سبق الحلم في تعديله. فالأحلام في جملتها إذن قد لا تخلو من أحاديث النفس والذكريات المرتبطة بها، فهي إذن في جملتها أحاديث في المنام قد تختلط بأحاديث تمليها تجارب الحياة، فهي أقرب إلى الأحاديث منها إلى الحقيقة المجرّدة للرؤيا.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (٣) ص٢١.

ومما يزيد من صعوبة التأويل ويجعل الحلم كالأحاديث، أنّ بعض ما نراه في أحلامنا قد يكون بسبب تدخل أرواح تسبح حول أنفسنا التي توفاها الله عند نومنا. فالله تعالىٰ ينبئنا في قرآنه الكريم بأنّ النوم حالة تشبه الوفاة فقد أُطلِقَ عليها اصطلاح «الوفاة الصغرىٰ» بالمقارنة إلىٰ الوفاة الكبرىٰ أو الموت، لأنها وفاة مؤقتة وفيها تتشكل أحلامنا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

فعالم الأرواح الذي تدخله نفس النائم هو عالم مزدحم، يموج بشتىٰ المخلوقات الروحية، فهناك الملائكة وأرواح الأنبياء وأرواح من ماتوا من الخيّرين والشريرين والشياطين وغيرهم مما لا يعلمهم إلا الله. فتتلاقىٰ أرواح النائمين بغيرهم من الأرواح كما ورد في كتاب السنن الكبرىٰ للنسائي "أَخْبَرَنَا أَبُو دَاوُدَ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ، أَنَّ أَبَاهُ، قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنِّي أَسْجُدُ عَلَىٰ جَبْهَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّ الرُّوحَ لَيَلْقَىٰ الرُّوحَ وَاقْتَبَعَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ."[1] ويؤكد ابن القيّم في كتابه القيّم "الروح" أنّ الأحلام قد تتشكل عن طريق هذا التفاعل الروحي بين النائم والأرواح والكائنات الأثيرية الأخرىٰ.[2] فإذا استيقظ النائم رُدّت إليه نفسه في أقلّ من لمح البصر، أمّا إذا مات فستذهب روحه إلىٰ البرزخ.

يوسف عليه السلام قد أوتي موهبةً روحيةً عظيمة في التأويل مكّنته بفضل الله من التفريق بين الرمز، وبين ما اقترن به من ذكرياتٍ وأحاديث وما لحقه من تعديلات في عالم الأرواح وما تأثرت به نفسية من رأىٰ الرؤيا أثناء سرده لما رأىٰ، وتأثير ما أخفاه عنه حياءً أو خوفاً من هول ما رآه. فالحالة النفسية والروحية لرائي الحلم أثناء سرد حلمه، والإحساس الذي يعتري المؤوّل عند سماع الرؤيا، لهما دور مهم في عملية تأويل الرؤىٰ وفكِّ رموزها. ذلك بأنّ الأحلام المنامية عادةً ما يراها الإنسان مقترنةً حالة انفعالية شديدة، فإذا استيقظ ذهب الانفعال الذي

---

(١) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (توفي ٣٠٣هـ). **السنن الكبرىٰ**، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، إشراف شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م، كتاب التعبير، باب من رأىٰ النبي، حديث ٧٥٨٤.

(٢) ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر (توفي٧٥١هـ). **الروح**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٧٥م، ص١٨٠.

أثار خوفه أو أثار فرحه، وبقيت رؤياه قصةً أو أحاديث تُروىٰ. ينطبق ذلك بشكلٍ خاص علىٰ الأحلام المفزعة التي يستيقظ النائم بعدها ليهدئ نفسه مما لحق بها بسبب الانفعال الشديد، ثمّ يصبح الحلم بعد ذلك كالأحاديث والقصص.

أتصوّر أنّ الرؤيا الرمزية عندما تتشكل بتفاعلها مع الأرواح والكائنات الأثيرية الأخرىٰ، فإنّها تخوض صراعاً روحيّاً، فبعضها يحاول الدخول في حماها رغم أنفها، وبعضها ينسجم معها فتشجعه وتفتح له أبوابها، فتتشكل الرؤيا نتيجة لهذا الصراع المُتَأجّج. وأرىٰ في تعميم حديث: (الأرواح جنود مجندة) تأييداً لهذا التصوّر. فقد روىٰ الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ."[1]

إنّ هذا الصراع قد يغيّر الرؤيا العادية من بساطتها الواضحة إلىٰ رموز معقدة، حتىٰ وإن كانت تحمل أموراً خيّرة، أما إن كانت الغلبة لأرواح شريرة أو لشياطين، فإنَّ الرؤيا تنقلب إلىٰ حلم يحمل التهاويل والأخبار المزعجة والمحزنة والمفزعة والمحرجة. لكن إن كانت الرؤيا مِنَ الله وأراد الله أن يحفظها، فلا يجرؤ شيطان أو أيّ روحٍ من الأرواح الشريرة من الاقتراب منها. فمثلاً إن كانت الرؤيا تحمل رسالةً للنائم عن أمرٍ سيحدث في المستقبل، فسوف يرىٰ ذلك بوضوح كأنه فيديو دقيق التصوير. فإذا أذن الله للأحداث التي رآها في منامه أن ترىٰ النور، فإنّها تتحقق كما رآها في الرؤيا.

إذن إذا لم تستطع الرؤيا حماية نفسها من تغوّل أرواح أخرىٰ، فسوف يخترقن حماها ويصبغن الرؤيا ببعض خصائصهنّ، فتصبح الرؤيا رمزية تحتاج إلىٰ من يؤوّلها. فإن كنّا قد شبهنا الرؤيا الصادقة من الله بالفيديو الواضح، فلنشبه مثل هذه الرؤىٰ الرمزية باللوحة الفنّيه السيريالية، كالتي اخترعها الفنان المشهور بيكاسو، فهي تقدم فنّها كرموز تحتاج إلىٰ من يستخرج معانيها.

فالمؤوّل الموهوب هو الذي يستطيع بروحانيته أن يميز بين ما جاء في الرؤيا الأم، وما لحقها من تأثيرات روحية أخرىٰ. الرؤيا الأخيرة في سورة يوسف كانت من هذا النوع. كانت

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم (٣٣٣٦) ص٦٣٦.

رؤيا متكررة رآها الملك. رأى سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان، وسبع سنابل خضر وأخر يابسات. فكانت رؤيا صادقة أوّلها يوسف من سجنه، لتنقذ شعب مصر بأكمله من مجاعةٍ قادمة لا تبقي ولا تذر.

لم يستطع العلماء والسحرة تأويلها للملك، وعدُّوها أضغاث أحلام. ولكنّ ساقي الملك الذي بشّره يوسف من قبل بالخروج من السجن ورجوعه لوظيفته السابقة، تذكّر موهبة يوسف في التأويل، فقصّ على الملك كيف كان يؤوّل أحلامهم في السجن تأويلاً لا يخطئ أبداً. قـُصّت الرؤيا على يوسف في سجنه، فلم يتوان أو يتباطأ في تأويلها لإنقاذ شعب مصر من المجاعة القادمة، رغم ما تعرض له من سجن ومشقّة وظلم من حكامها، فقد غلبت رحمته وشفقته على إحساسه بالمرارة مما تعرّض له. فأوّل البقرات بالسنين، والسبع سنبلات الخضر بسبع سنين من الرّي، تعقبهنّ سبع سنوات من الجفاف والقحط ترمز إليهنّ السنبلات اليابسات، ثمّ تأتي بعدهنّ سنةٌ يُغاث الناس فيها بالغيث والرّي.

أعجب الملك بتأويل يوسف، ولا بدّ أن يكون ساقيه الذي دلّه عليه قد أخبره بعد ذلك عمَّا قامت به زوجة العزيز ومَن معها من النسوة على إغوائه، كما أخبره عن استعصامه وعن أخلاقه الكريمة وزهده، وما أنعم الله عليه من وسامةٍ أذهلت النسوة حتى قطّعن أيديهنّ وهنّ لا يشعرن بألم التقطيع. فلهذا لم يغضب الملك على يوسف لمّا رفض استدعاءه والخروج من السجن حتى تُبَرَّأ ساحته. فخاطب الملك النسوة بهيبة الملوك وبمعرفته بما فعلن معه: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١]. فلم تجد النسوة وعلى رأسهنّ زوجة العزيز مناصاً من الاعتراف بما فعلن، والتأكيد على براءة يوسف واستعصامه.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

إنّ تفسير يوسف الرمزي للرؤى كتأويله للبقرة بأنّها سنة، قد أغرى كثيراً ممّن احترفوا تأويل الأحلام فيما مضى، وفي حاضرنا، على وضع جداول وقوائم ثابتة، لما ترمز إليه الأشياء التي يراها النائم في حلمه، وكأنّ ما يراه النائم في حلمه أعراض لأمراض محددة، وكأنّ المؤوّل طبيب تيقن من نوع المرض من أعراضه الخاصة به.

فتقرأ في كتب التأويل أنّ من رأىٰ في حلمه أنّه تاجر، وأنّ دكانه قد انهار فسوف يطلّق زوجته، وإن كان مريضاً فسوف يموت عاجلاً. أما إن كان الدكان جميلاً مليئاً بالبضائع كان ذلك بشرىٰ له. فإن كان أعزباً تزوّج ورزق مالاً كثيراً، أمّا إذا رأىٰ أنّه يعرس ولم ير عروساً في الحفل، فإنه سيموت، وإن رأىٰ عقرباً فإن أحد أقاربه يدبر له أمر سوء يؤذيه، وإذا رأىٰ أحد أسنانه قد سقطت، فإنّ أحد أقاربه سيموت، وهكذا نقرأ في هذه الكتب تأويلات للأحلام ما أنزل الله بها من سلطان لكل ما يخطر علىٰ بالنا من أشياء وأحاسيس.

ذلك بأنَّ التأويل الصحيح من شخصٍ موهوب لما يراه الرائي في منامه، يعتمد علىٰ أمورٍ مختلفة كشخصية صاحب الرؤيا، وقد يُلهَم المؤوّل تفسيراً مختلفاً لشخصين رأيا الرؤيا نفسها، كما فعل ابن سيرين عندما سأله رجل رأىٰ نفسه يرفع صوته بالأذان، فقال له: "إن شاء الله ستذهب إلىٰ الحج". ثمّ جاءه رجل آخر بالرؤيا نفسها فقال له: سوف تسرق وتُقطَع يدُك! وعلىٰ مستوىٰ رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين نقرأ في سورة يوسف أنّه في تأويله لرؤيا الملك عدَّ البقرة رمزاً للعام، لكنّ رسولنا ﷺ عندما رأىٰ في منامه قبيل معركة أُحُد بقرة تذبح، أوَّلها بأنّ أناساً من أصحابه سيقتلون في المعركة، وقد حدث ذلك. فكأنّ الله تعالىٰ أراد أن يخبره في منامه عن قتل أصحابه بأسلوب رمزي، حتىٰ لا يفاجأ بفاجعة استشهاد سبعين منهم في المعركة.[1] فنرىٰ هنا أنّ الرمز نفسه أي "البقرة" أُوّلت بأسلوبين مختلفين. نكتفي بهذا القدر من تأملاتنا عن الأحلام والرؤىٰ في سورة يوسف، لننتقل إلىٰ ما ورد في هذه السورة العظيمة من موضوعات مشابهة أخرىٰ يدرسها النفسانيّون في ميدان الإلهام وعلم نفس ما وراء الحواس.

لماذا أخّر يوسف عليه السلام الكشف عن هويته لإخوانه وأبيه؟

نحن مع يوسف عليه السلام وقد أُطلِقَ سراحه، واستخلصه الملك لنفسه وأكرمه الله بأن أصبح عزيز مصر. استيقن يوسف من أنّ السنين السبع القادمة سوف تكون سنين ريٍّ وبركة، يحصد فيها القمح ويخزّن ليطعم أهل مصر في سنوات القحط التي سوف تعقب تلك السنين

(١) انظر الحديث عن هذا في

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب التعبير، باب إذا رأىٰ بقراً تنحر، حديث رقم (٧٠٣٥) ص١٣٤٤.

الخصبة، لكنّه استيقن أيضاً من خبراته خلال السنين التي عاشها في مصر الهكسوسية، من أنّ الفساد وسوء الإدارة والمحسوبية، كانت ستفشل في حفظ القمح وتوزيعه بالعدل والمساواة خلال سنوات القحط القادمة، مما قد يعرّض الأمة لمجاعة لا تبقي ولا تذر. فكان لزاماً عليه أن يتولى هذا الأمر بنفسه، فطلب من الملك أن يعيّنه المشرف على تخزين المحاصيل وتوزيعها خلال سنوات الجفاف وشح الأمطار، فهو الأمين على تخزين القمح والعادل في توزيعه: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

تمضي السنون وتنقضي أعوام الخصب لتعقبها سنوات الجفاف والجوع والقحط، فجاء إخوته الذين ألقوه في البئر ببضاعتهم، ليأخذوا حصتهم من الغلّة، فعرفهم رغم ما فعله الزمان وشظف الحياة في البادية بتغيير في ملامح وجوههم التي اسمرّت من طول السفر في الصحراء. أما يوسف فقد صار رجلاً وازداد جمالاً على جماله، واكتملت صحته بما كان يتلقاه من طعام الملوك وحياة القصور رغم زهده في متاع الدنيا وتعلقه بالآخرة. هذا بالإضافة إلى هيبته ومكانته عزيزاً لمصر. فكان من المستحيل أن يربطوا بينه وبين ذلك الطفل الذي رفضوا استجداءه واسترحامه ودموعه فألقوا به في غيابت الجب. استطاع يوسف عليه السلام بحنكته وذكائه أن يرغمهم على إحضار أخيه الصغير، وأن يبقيه معه بالرغم من موثقهم لأبيهم المكلوم بأنهم سيرجعونه إليه.

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [يوسف: ٦٦]، كنت أسأل نفسي عندما أقرأ أو أستمع لسورة يوسف، لماذا أخّر يوسف عليه السلام إخبار والده وإخوته بأنّه حي وبصحة جيدة، وأنه يعيش في قصر عزيز مصر، ثمّ إنّ الله، قد أنعم عليه بعد ذلك حتى أصبح عزيز مصر، وأنّه هو المسؤول عن توزيع الغلّة للمصريين ولمن جاورهم من أهل البوادي. فإن كانت هناك صعوبة في الاتصال بهم وهو في قصر العزيز وهم في باديةٍ من بوادي الكنعانيين أو حرّان، فكيف نفسر إحجامه عن إخبار إخوته الذين جاؤوه للحصول على نصيبهم من القمح، فعرفهم وهم له منكرون. لماذا لم يكشف عن حقيقته لينقذ أباه الشيخ الكبير الذي أضناه الألم على فراقه وابيضّت عيناه؟ ما الحكمة من هذا التأجيل؟

إنّ يوسف عليه السلام رسول لا يُقدِمُ على أمرٍ إلا بإذنٍ من الله تعالى. فما كان له أن يخبرهم بحقيقته حتى يأذن الله له. فلنتفكّر إذن في حكمة الله على هذا التأجيل. لقد أُثِرَ عن الإمام الشافعي أنّه قال: كلما تعلق المؤمن بشخص تعلقاً شديداً أذاقه الله مرّهذا التعلق؛ لأنّ الله يغار على قلبٍ تعلق بغيره، فيصدُّه عن ذاك ليرُّده إليه.(١) فإن كان قول الشافعي هذا لعامة المؤمنين، فكيف يكون الأمر بالنسبة للأنبياء والمرسلين؟

لقد كانت محبة يعقوب ليوسف وتعلقه به محبةً وتعلقاً فاق كل ما قرأناه عن حبّ أبٍ لولده. حباً ما زاده تعاقب السنين إلّا تمكناً. انظر كيف استجاب يعقوب لبنيه عندما فجعوه بنبأ استيلاء عزيز مصر على أصغر أبنائه بنيامين، الذي أخذه يوسف بحيلةِ سرقةِ صواعَه. أجابهم بالكلمات نفسها التي قالها لهم عندما جاؤوه يبكون أو يتباكون عن أكل الذئب ليوسف، وبالدم الكذب الذي لطخوا به قميصه. ردّد الكلمات عينها: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨] لكنه بعد ذلك لم يفصح عن تأثره بما حدث لبنيامين رغم احتمال أن يكون قد تآمر عليه إخوته كما فعلوا بيوسف؛ إذ يبدو أنّه لم يعد يصدق لهم قولاً، لم يعبّر عن ألمه لما حدث لبنيامين، رغم أنّ كبار السن يتعلقون في العادة بأصغر أبنائهم، بل تولى عنهم ليعيد بثّ ألمه وحسرته على يوسف رغم مرور السنوات الطويلة منذ اختفائه، وكأنّ ما حدث لبنيامين ما زاد ألمه على فراق يوسف إلا ألَماً وحسرة: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يوسف: ٨٤ و٨٥].

فهذا نبي قد استولى حبّ ابنه على قلبه، حتى غار الحق سبحانه وتعالى غيرةً تليق بجلال قدره وعظيم سلطانه، فحرمه منه لكي لا تُعكِّرعاطفةٌ تخالطها دنيا بقلب نبي كريم. فجدّه إبراهيم عليه السلام كما يقول ابن عجيبة في كتابه "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" قد

(١) تُنسب هذه المقولة إلى الإمام الشافعي ولكننا لم نقف عليها، وقد عثرنا على شواهد كثيرة تؤدي المعانى نفسه، منها قول ابن الجوزي: "إذا أراد الله بعبده خيراً سلط على قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحب غيره، أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه. وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته، ابتلاها بأنواع البلاء، وهذا من غيرته سبحانه وتعالى على عبده" - ابن قيم الجوزية، **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، مرجع سابق، ص٢١٦.

امتحن بأعظم من ذلك، إذ أُمِر بذبح ابنه الذي وهبه له الله من بعد أن بلغ من العمر عِتِيّا فاستولت محبته على قلبه.[1].

إذن فلله الحكمة في تأجيل الكشف عن هوية يوسف. فإن كان ابتلاء يوسف بجماله وتعلق النساء به وبصبره وحسن معاملته لمن أساء إليه مهما اشتدت عليه القسوة وسوء المعاملة، فإن من بين ابتلاءات يعقوب هذا الحرمان الطويل مِنْ أحبّ الناس إليه. فكان لا بدّ من استمرار هذا الحرمان حتى يوفّ هذا النبي الكريم ما حكم الله عليه به من مشقّة فيستحق المكانة السامية التي أعدّها له. ثمّ كان استرقاق أصغر أبنائه واحتجاب ابنه الأكبر قد وصل به إلى أشدّ حالات الابتلاء التي عادةً ما يعقبها الفرج.

من ناحيةٍ ثانية كان لهذا التأجيل حكمة إلهية تكشف عن رحمة الله المتدفقة على إخوة يوسف، رغم ما اقترفوه من ظلمٍ وعملٍ شائن. فكان لا بدّ أن يسبق العفو عمّا اقترفوه أن يندموا على فعلهم ويشعروا بالخجل والحياء من الله ومن يوسف ومن أبيهم. فبدأ التدبير الإلهي بعد الحيلة التي استخدمها يوسف لأخذ أخيه بنيامين، حاولوا بشتى الطرق أن يقنعوا يوسف -ظناً منهم أنّه العزيز- أن يعفو عن بنيامين، فعندما لم يستجب لهم عرضوا عليه أن يأخذ أحدهم مكانه، لأنّ أباه شيخ كبير ومريض. لاحظ كيف أجبرهم الله تعالى على تبديل أحاسيسهم وسلوكهم وتذكيرهم شعوريّاً ولا شعوريّاً بما فعلوه مع يوسف، حتى يندموا فيغفر لهم. فعندما أرادوا أن يحرموا أباهم من يوسف لِيَخْلُ لهم وجهه ألقوا به في غيابت الجب، وادّعوا كذباً أنّ الذئب قد أكله. والآن نراهم يلحّون على العزيز أن يعفو عن بنيامين، وعند رفضه يعرضون عليه أن يأخذ أحدهم مكانه حتى يرجعوه سالماً إلى أبيهم. هذا الانقلاب لا بدّ أن يكون قد أورثهم الندم على ما فعلوه مع يوسف، فبالرغم مما اقترفوه، فهم قد تربوا في بيت النبوة، ويعلمون أنّ لسوء الأعمال ما يعقبها من العقاب في الدنيا والآخرة.

عندما يئسوا من استرحام العزيز خرجوا من عنده ليتشاوروا فيما هم فاعلوه، وفي ذلك يحدثنا القرآن الكريم بأنّ ما اقترفوه في حق يوسف قد انجلى ماثلاً أمام جمعهم رغم تقادم

(١) ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة (توفي١٢٢٢هـ). **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق: أحمد عبدالله القرشي، القاهرة، طبع على نفقة حسن عباس زكي، ط١، ١٩٩٩م، الآية ٨٤ من تفسير سورة يوسف.

السنين. فمنهم من أحسّ بالندم على ما قدمت يداه وكتمه في نفسه، ومنهم من جهر به مثل كبيرهم الذي اشتدّ عليه الأمر حتى أنبهم جهراً على ما فعلوه مع يوسف، ورفض الرجوع معهم حياءً من مجابهة أبيه بفجيعةٍ جديدة.

تفكر أيها القارئ في عظيم ودقيق التدبير الإلهي. فعندما وقفوا أمام أبيهم بقميصٍ مُلَطَّخٍ بدمٍ كَذِبٍ وهم يخفون سرورهم باختفاء يوسف من حياتهم، جاء بهم الله هذه المرّة ليقفوا في المكان نفسه ليفجعوا الأب المكلوم بما حدث لابنه بنيامين، ولأكبر أبنائه الذي رفض الحضور معهم. كانوا صادقين هذه المرّة في حسرتهم، وفي ندمهم، لكنّ الأب لم يصدقهم. ذلك بأنّه لم يصدقهم عندما ادّعوا بأنّ يوسف أكله الذئب، فكيف يصدقهم عن سرقة ابنه المزعومة واسترقاقه؟ فطفقوا يحلفون له ويستشهدون بمن كان معهم من أهل مصر ومن أهل البادية الذين أتوا معهم في قوافلهم، بعد أن تزوّدوا باستحقاقهم من القمح: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢]. فأراد الله أن يشعرهم بالندم على كل صغيرة وكبيرة فيما فعلوه مع يوسف.

كانت بعد ذلك الأيام التي قضوها مع أبيهم فيما بين الرحلتين لمصر من أتعس أيّامهم. الأب الحزين الذي فقد بصره، والفقر وشظف العيش الذي أظلهم، وخلو المنزل من صيحات بنيامين وتوجيهات أخيهم الكبير. جاء موعد السفر إلى مصر للتزود بالغلّة ولكن بسبب ما أصابهم من ضيق ذات اليد كانت بضاعتهم هذه المرة رديئة كاسدة وكانت وجوههم كبضاعتهم تعكس بصدقٍ ما أصابهم نفسيّاً وروحيّاً وجسميّاً، من حسرة وحزن وإحساسٍ بالندم على ما اقترفوه. جاؤوا ليوسف هذه المرّة ببضاعةٍ مزجاة.... جاؤوا أذلاء فقراء يطلبون منه الصدقة وقد نحلت أبدانهم، وظهر عليهم أثر الجوع والتعب والفقر والحزن. رقّ يوسف لحالهم وأحسّ برغبةٍ شديدة، أن يكشف لهم عن حقيقته، ولعل هذه الرغبة قد أيدها الوحي الإلهي بأنّ قيل له بأنّهم ندموا وتحمّلوا من الآلام النفسية والروحية ما يؤهلهم للعفو الربّاني، وأنّ الوقت قد حان للكشف عن هويته فكشفها برفق. ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]. انظر إلى هذا الرفق على من ألقى به طفلاً في بئر مظلمة واتهمه بالسرقة. ختم كلماته الرقيقة بقوله: "إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ". فألقى اللوم على جهلهم وصغر سنّهم. أمّا إذا واجههم شخص عادي بحقيقة موقفهم آنذاك لقال: "وأنتم

مجرمون" أو: "وأنتم سفّاحون"...أو "وأنتم كذابون". لكنّ ابتلاء يوسف كان في مقابلة الظلم والعدوان بالحلم واللين. فاستمع كذلك إلى مناجاته وحمده لله على ما أنعم به عليه من بعد أن جمعه بأبيه وأهله، وأصلح بينه وبين إخوته؛ إذ قال في مناجاته: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

ألقى يوسف اللوم على الشيطان وبدأ بنفسه، ووضعها معهم في موقفٍ واحد...﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ﴾. سبحان الله! لا يقدر على ذلك إلا نبي مرسل كمحمدٍ ﷺ سيد الإنس والجن؛ إذ وصفه الحق جلّ وعلا بقوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصّلت: ٣٤].

وبالكشف عن هويّته فقد أُسدِلَ الستار على عدة ابتلاءات. أولاً عن إخوة يوسف الذين بُشّروا بغفران ما اقترفوه في حق يوسف بعد أن ذاقوا مرارة ما فعلوه، واعترفوا بخطئهم فقالوا ليوسف بعد أن علموا بأنّه عزيز مصر: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩١-٩٢].

ثانياً: أُسدِلَ الستار على ابتلاءات نبي الله يعقوب عليه السلام. فقد كانت آخر أيام الابتلاء أشدّها أَلَمَاً؛ إذ اجتمع عليه ألم فراقه ليوسف وبنيامين وأكبر أبنائه، بالإضافة إلى مرضه وفقدان بصره وكبر سنه وشظف عيش البادية وفقرها. فردّ الله بصره بمعجزةٍ من عنده تعالى، وردّ عليه جميع أبنائه بما فيهم يوسف عزيز مصر، الذي دعاه وجميع أهله ليدخلوا مصر آمنين، ويرتاحوا من بؤس البادية وضيقها.

ثالثاً: أسدل الستار على ابتلاء يوسف الذي تحمّل لسنين طويلة ألم حرمانه من أهله، ومن أبيه بشكلٍ خاص، ولعل محبة يوسف لأبيه وشوقه إلى لقائه لم يكن أقلّ من أحاسيس يعقوب له، ولكنه كان أصغر سناً وأكثر احتمالاً. قليلٌ من المفسرين من تحدث عن ابتلاء يوسف هذا لأنّه لم يصرح به، ولم يذكره القرآن الكريم بتفاصيله.

لا أشك في أنّ الألم كان يعصر قلب يوسف، وهو يستمع إلى إخوته، وهم يستعطفونه -ظناً منهم أنّه العزيز- بالعفو عن بنيامين، لأن له أباً شيخاً كبيراً. ولعل القرآن الكريم اكتفى

بقول: "شيخ كبير" ولكنهم في الحقيقة أسهبوا في وصف حالة أبيهم المؤسفة، وفقدان بصره ومرضه، لكي يستثيروا شفقة "العزيز"، على أنّ كلماتهم هذه كانت تعصر قلبه حزناً وشوقاً إلى لقاء أبيه. فلو لم يكن يمنعه أمر ربّاني بعدم الإفصاح عن هويّته لمّا كتمها عنهم، بل لعله كان سيسافر إلى أبيه بمجرد خروجه من السجن وتعيين الملك له. ولكنه صبر اتباعاً لحكمة الله التي أتت عليه وعلى أهله بخير لم يخطر على باله.

كيف كانت ستسير الأمور لو أنّ يوسف تبع أحاسيسه وكشف عن نفسه عند أول لقاءٍ له مع إخوته؟ كان ذلك في أوائل أيام القحط. كان إخوته أشدّاء ومعتزّين بأنفسهم. فإذا أخبرهم وهم على تلك الحالة بأنّه هو عزيز مصر لازدادوا له حسداً، لا سيما عندما يرون أن أباهم قد ازداد له تفضيلاً عليهم، وسكب عليه فائض محبته، واعتز به كعزيزٍ لمصر. لكنّ التدبير الإلهي حكم بأن يبتلى يوسف، وأن يقوم بحيلة سرقة أخيه، حتى تسير الأقدار بما هو أفضل له ولإخوته ولأبيهم، فسبحان الله وجلّت حكمته. وخُتِمَت هذه السورة العظيمة بتأويل الرؤيا التي رآها يوسف طفلاً. رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين. فكانت الكواكب رموزاً لإخوته والشمس لأبيه والقمر لأمه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ...﴾ [يوسف: ١٠٠]. إذن فقد بدأت هذه السورة العظيمة برؤيا وختمت بتأويلها.

بنهاية هذه السورة قد أكملت تأملاتي عن سيدنا يوسف، وبها فقد وصلت إلى نهاية كتابي، غير أني لا أريد أن أضع قلمي قبل أن أتطرق باختصار إلى ثلاث ظواهر نفسية وروحية وردت في هذه السورة، لها أهميتها في ميدان الطب النفسجسمي والباراسيكولوجي أو علم نفس ما وراء الحواس من منظور علم النفس الإسلامي بشكل خاص.

التخاطُر والمرض النفسجسمي والعين في سورة يوسف

عندما درست أول مقرر لي في علم النفس العام، وأنا في عامِيَ الأول في الجامعة الأمريكية في بيروت في أوائل الخمسينات من القرن الماضي، كان في الكتاب الأمريكي المقرر -مثل غيره من كتب علم النفس في ذلك التاريخ- فصلٌ يقارن بين العلم التجريبي الذي يقوم على الملاحظة الدقيقة، والأفكار التي لا سند لها سوى تصورات المجتمعات المتخلفة وخرافاتها

الدينية. وكان من بين هذه الأفكار التي زعم مؤلف الكتاب كغيره من المؤلفين أنّها لا يسندها العلم، جميع العلوم التي تنضوي اليوم تحت مسمّىٰ علم نفس ما وراء الحواس المعروف بالباراسيكولوجي كالتَّخاطُر Telepathy والاستبصار Clairvoiance والعين Evil eye. كما شملت قائمة ما أطلقوا عليه مسمىٰ "الخرافات" جميع المعتقدات الدينية والغيبية كخلود الروح والبعث. وأذكر أنّ المؤلف قد ذكر بأنّه أجرىٰ بحثاً علىٰ أساتذة علم النفس الأمريكيين اتضح له فيه أن فقط ١٪ منهم من كان يؤمن بمصداقية ما وراء الحواس من تصورات.

والآن بعد أكثر من ستين سنة، نرىٰ أغلب الجامعات الأوروبية والأمريكية تقدم لطلابها مقرراتٍ في علم نفس ما وراء الحواس، بل إنّ بعضها يرحب بأساتذة لهم تخصص دقيق في أحد فروع هذا التخصص، بالرغم من صلته القوية بغيبيّات الدين مثل الخبرات الروحية لمن اقترب من الموت أو قدرة الأفراد علىٰ تحريك الأشياء بتركيزهم النفسي. كذلك نرىٰ اليوم أنّ بعض الجامعات الغربيّة تمنح أرفع الدرجات الجامعية في هذا التخصص. فسبحان الله مغيّر الأحوال، ونحمد الله علىٰ ديننا الذي زودنا بالإيمان بالغيب مع التصور الصحيح لما وراء المحسوس في إطار المنطق والفكر السليم. وفي ذلك تمثل سورة يوسف أبلغ الأمثلة علىٰ أهم جوانب هذا العلم، فجمعت بين التخاطر والأحلام التنبؤية والعين والاضطرابات النفسجسمية.

التَّخاطُر

التخاطر أو التليباثي كما أسلفنا، هو القدرة النفسية والروحية التي ينقل بها الإنسان مشاعره أو أفكاره وتصوراته إلىٰ شخص آخر، من دون أيّ وسيلة من وسائل الاتصال عن طريق الحواس. وقد فصلنا القول عن هذه الظاهرة عند تناولنا لقصة عمر بن الخطاب مع سارية بن زنيم، عندما صاح عمر وهو في المدينة المنورة: "يا سارية الجبل"، فسمعه سارية وهو يقاتل الفرس علىٰ بعد أكثر من ١٥٠٠ ميل، فلجأ سارية إلىٰ الجبل وانتصر علىٰ المجوس. وقد أثبتت الدراسات أنّ هناك أشخاصاً موهوبين يمكنهم إرسال الرسائل الذهنية إلىٰ المستقبلين، كما ثبت أنّ التخاطر يكون أكثر قوةً بين الأفراد عندما تربطهم عاطفة الحب كعاطفة الوالدين لأبنائهم، وعاطفة العشاق لبعضهم البعض.

أما ما يشبه التخاطر في سورة يوسف فقد كانت من قِبَلِ يعقوب. فقد وصل الحزن والأسى أشُدّه عليه بعد أن تراكمت عليه المصائب والابتلاءات، فأعادت من جديد شدة حزنه على فراق يوسف بصورةٍ أشدّ من ذي قبل، فكانت مصيبته الجديدة بحرمانه من أصغر أبنائه بنيامين بمثابة من يُنكَأ جرحُهُ بعد أن بدأ في الاندمال. اشتدّ عليه هذا الأسى حتى ابيضت عيناه من هذا الحزن المكظوم فتضايق أهله، أو لعلهم أشفقوا عليه من شدّة حزنه وولهه بيوسف، وعبّروا عن ذلك بقولهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]. عند ذلك أذن الله تعالى بكشف الابتلاء عنه، كما أذن ليوسف بالكشف عن حقيقته لإخوته وأعطاهم قميصه ليلقوه على وجه أبيهم، فيعود مبصراً بمعجزةٍ وهبها الله ليوسف. فتحركت الإبل بالبشارتين السارّتين من عاصمة مصر إلى باديتهم. وما أن بدأت السير في رحلة عودتهم التي تأخذ أكثر من ثمانية أيام، إلا وقد استحوذ على الشيخ المبتلى إحساس قوي بأنّ يوسف بخير وأنّه قريبٌ منه: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]. فصدق توقعه عن تفنيدهم له؛ إذ قالوا له: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥].

كيف أحسّ يعقوب عليه السلام بريح يوسف؟ كتب التفسير القديمة تمسكت بتفسير "الريح" برائحة القميص التي حملتها الرياح ليعقوب. فمن الأمثلة على ذلك قول ابن كثير في تفسيره بأنّ ريحاً عاتية قد هاجت فجاءت ليعقوب بريح القميص، وحتى بعض المفسرين في عصرنا الحاضر قد قبلوا التفسير نفسه بأنّ يعقوب وجد ريح القميص إلا أنهم استبعدوا المسافة بين مصر وأرض كنعان. فالأستاذ سيد قطب في ظلاله ذكر بأنّ ريح القميص قد وصلت إلى يعقوب من مسافةٍ قصيرة من داخل أرض كنعان. كل هؤلاء المفسرين قد حاولوا أن يجدوا تفسيراً حِسيّاً لأمرٍ نفسي روحي فوق الحواس؛ إذ كيف تنتقل رائحةٌ خلال المسافة الطويلة بين مصر وأرض كنعان أو حتى داخل أرض كنعان. فلو انتقلت ريح مسافة ميلٍ واحد لجاز أن يعتبر ذلك من المعجزات فكيف بهذه المسافات! لو اكتفوا بالقول بأنها معجزة لنبي كما فعل بعضهم لارتاحوا وأراحوا.

أمّا بالنسبة لتأملاتنا فنقول بأنّ يعقوب عليه السلام عندما قال بأنّه وجد ريح يوسف، فلربما قالها من باب المجاز أو من خلال المعاني الأخرى لكلمة "الريح"، ولم يقصد بقوله رائحة

القميص. فلكلمة "الريح" معانٍ مختلفة كالنصر والغَلَبَة، وفي معجم المعاني الجامع (وهو على الشابكة)، إذا قلت إنّ فلاناً هبت ريحُهُ فمعناها أنّه قد جرى أمره على ما يريد. فلعل يعقوب أراد أن يقول لقد تَمَلكنِي إحساسٌ بوجود يوسف، وكأنّي أشعربقربه منّي، وكأني أحس بجسمه وأنفاسه. ولكن كيف استحوذ عليه هذا الإحساس في الوقت نفسه الذي تحركت فيه الإبل من مصر؟ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ ربما كان هذا الإحساس بسبب رسالة نفسية روحيّة أرسلها له يوسف عن بعد كالرسالة التلباثية التي بعثها عمر بن الخطاب لسارية. أي إنّها نوع من التخاطر.

يبدو لي أنّ يوسف بعد أن كشف عن حقيقته لإخوته وأعطاهم قميصه وودّعهم، قد سيطرت عليه عاطفة الشوق الشديد للقاء أبيه، فكان مثله كمثل الذي يصبر على فراق محبوبه لظروف قاهرة أجبرته على الحياة بعيداً عنه، فإذا تغيّرت الظروف وهرع إلى لقائه تفجّر بركان عاطفته وأسرع الخطى للتلاقي. فإذا كان هذا الإحساس القوي الذي استحوذ على يعقوب ليس بتخاطر روحي نفسي من يوسف أو منه ليوسف فماذا يكون؟ يكون معجزة ربّانية ليوسف أو لأبيه. لكنها إن كانت وحياً من الله لما ذكرها يعقوب بهذه الصيغة الضعيفة ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، بل كان سيقول لأهله بصورة جازمة: "إنّي أوحِيَ إليّ أن يوسف على قيد الحياة وإنّي سوف أراه بعد أيام".

الاضطرابات السيكوسوماتية

إنّ استعادة يعقوب لبصره بإلقاء قميص يوسف على وجهه هي بلا شك من معجزات النبوة التي لا نجرؤ على تفسيرها نفسيّاً. لكن لنا وقفة قصيرة مع ما بيّنه لنا التنزيل الحكيم عن سبب إصابته بفقدان بصره بآية واحدة شرح لنا بها كيف تتم إصابة جسمية بتأثير توتر عاطفيٍّ نفسي: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

إنّ دور العامل النفسي والعاطفي في إحداث مرضٍ أو اضطرابٍ عضويٍّ في الجسم هو عمود الأمر الذي يقوم عليه الطب النفسجسمي السيكوسوماتي الحديث. يحدثنا تاريخ الطب بأنّ ألأطباء لقرون عديدة كانوا يهملون هذا الدور المهم للجانب النفسي في تكوين

الأمراض العضوية، بل قد يرفضونه ويستهزئون به، ويؤكد لنا أساطين الطب السيكوسوماتي الحديث من أمثال بينسون Benson في كتابه Timeless Healing أنّ أطباء اليوم ما زالوا يهملون الناحية النفسية، ويولون جلّ اهتمامهم في تشخيصهم للأعراض العضوية وطريقة علاجها بالعقاقير والجراحة، وما شابهها من الأساليب المادّية. وفي هذا يتلاقى تبرير بينسون لهذه الظاهرة بما ذكره الطبيب والعالم المسلم أبو زيد البلخي، منذ أكثر من ١٢ قرناً في مخطوطته القيّمة التي ألّفها بعنوان "مصالح الأبدان والأنفس". يقول هذان العالمان إن طرق تدريس الطب وأساليب اختبار طلاب الطب يعتمد على التعرف على الأمراض العضوية وتشخيصها وما يعالجها من عقاقير وجراحة، وكأنّ الإنسان كما يقول البلخي في مخطوطته "جسم بلا روح أو نفس".

وحتى عندما بدأ الأطباء في عصرنا الحديث الاهتمام بدور الجانب النفسي والعاطفي في تكوين الأمراض حصروا تأثيره في أمراض محددة. فحتى الستينات من القرن الماضي كانت كتب علم نفس المَرَضِي التي درسناها تتحدث فقط عن القرحة في المعدة والأمعاء، أو عن ارتفاع ضغط الدم والاضطرابات الهضمية وما شابهها من الأمراض. أما الآن فكل الأمراض العضوية قد يكون لها جوانب أو مسببات نفسية، كما اتضح أنّ أثر العوامل النفسية والعاطفية لها آثار أكثر شمولاً، مثل ضعف قدرة الجسم على مقاومة ما يتعرض له من جراثيم أو يعرضه إلى الإصابة بأمراضٍ أخرى كالسرطان، وقد وُصِفَ هذا التعميم بالثورة الثالثة في الطب، حيث كانت الثورة الأولى في اختراع العلاج بالجراحة، والثانية في اكتشاف المضادات الحيوية كالبنسلين، وثالثتها عن أثر النفس والعقل على الجسم.

لذلك كان هذا التشخيص من معجزات القرآن الكريم. فانفعال الحزن هو الذي أصاب عيني يعقوب بالابيضاض. ليس هذا فحسب، بل إنّ الدراسات العلمية الحديثة قد كشفت عن العوامل التي تُسرّع أو تقوّي من إصابة الشخص بمرضٍ نفسجسمي. من أهمها شدّة الانفعال وكظمه أو عدم التنفيس عنه بالجزع أو الغضب أو بعاطفةٍ أخرى، وعدم وجود مخرج له منه. تأمل في هذه العوامل الثلاثة التي لخصها القرآن الكريم في كلماتٍ قليلة: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤]. لقد انطبقت هذه العوامل الثلاث على يعقوب عليه

السلام. كان حزنه وأسفه على يوسف من أشدّ ما يمكن أن يحتمله عجوزٌ مريض قد فقد بصره، ومع ذلك كان دأبه الصبر الجميل، وكظم الأسى دون جزعٍ أو تعبيرٍ يخفف من ألمه. وثالثهما أنّه لا يملك قدرةً على تخفيف هذا الضيق لكبر سنه وابيضاض عينيه، فهو كالسجين بين أولاده الذين حرموه من يوسف، فقال لهم قولته المؤثرة: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]. لذلك مهّدت جميع هذه العوامل لإصابة عينيه بالابيضاض وفقدان البصر.

العين

نقرأ في سورة يوسف أنّ نبي الله يعقوب أوصى بنيه لما أرادو السفر إلى مصر ليمتاروا الغلّة ألّا يدخلوا من بابٍ واحد، بل أن يتفرّقوا ويدخلوا من أبوابٍ متفرّقة، وقال المفسرون إنّه خاف عليهم من العين؛ إذ كانوا أحد عشر رجلاً من أبٍ واحد، ولهم هيبةٌ وجمال وقوة، فخاف عليهم العين لو دخلوا من بابٍ واحد. يحدثنا رسولنا ﷺ فيما أخرجه لنا مسلم بأنّ "العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين."[1] فلنحاول التعرف باختصار وتبسيط على ماهية العين وصلتها بالحسد والسحر. فقد جمع الله تعالى بينها في سورة الفلق.

الحسد هو انفعال نفسي شرّير خبيث تشتد فيه رغبة الحاسد وتمنيه زوال ما استحسنه من نعمةٍ أنعمها الله على المحسود، سواءٌ كانت هذه النعمة مادية محسوسة كالثراء والرفاهية، أو صحة الجسم وجماله، أو قد تكون معنوية كغزارة العلم والمعرفة أو الذكاء الحاد. فالحاسد إذن شخص استولى عليه انفعاله الشرّير، لكنّ الله قد كفّ أذاه عن المحسود. أمّا إذا استقوى هذا الانفعال الشرّير بالطاقة الروحية والنفسية التي وهبها الله للعائن، فسوف تتجسد أمنياته الخبيثة لتُحدِثَ ضرراً على المحسود، أو تتلف ما أنعم الله به عليه. ولا يتمّ ذلك بالطبع إلا بإذنٍ من الله القاهر فوق عباده، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فالذي يصيب الناس بالعين شخص له موهبة روحية ونفسية قد يعرفها في نفسه، أو قد لا يعلم بوجودها، لذلك ربما أصاب بعينه بغير قصدٍ أناساً من أقاربه وأحبابه. أمّا إن علم بقدراته النفسية، وعلم بتعاون أرواح شيطانية في تنفيذ ما تمنى من زوال نعمة المعيون أو

(١) مسلم، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، حديث رقم (٢١٨٨) ص٩٠٠.

إصابته بالضرر، وتعاون معهم في ذلك، فقد ترقّى من رتبة العائنين إلى رتبة المشتغلين بالسحر. هذا ملخص عن ماهية العين وصلتها بالحسد والسحر، بسّطتُه لطلاب علم النفس وللقارئ غير المتخصص، قبل أن ننتقل إلى دراسة موضوع العين في سورة يوسف، بتفصيلٍ أكبر من ناحية العلوم والدراسات النفسية الحديثة.

إنّ السؤال المحوري حول هذا المبحث هو: هل يمكن للقوة النفسية أن تؤثر عن بُعد على المادة الحية أو الجامدة؟ في حديثنا عن تشكيل الأحلام المنامية، ذكرنا بأنّ للنفس الإنسانية طاقة نفسية وروحية يُطلَقُ سراحُها وتزداد قوّتها عندما ينام الجسد، لتتفاعل مع الكائنات الروحيّة الخيّرة والشريرة التي تزحم عالمنا، فتتشكل أحلامنا المناميّة الرمزية والشيطانية والرحمانيّة من هذا التفاعل.

ونؤكد هنا بأنّ هذا التفاعل بين النفس الإنسانية والأرواح الخيّرة والشريرة التي تتجاذبها، تحدث بشكلٍ أقلّ حدة في أثناء ساعات الوعي الإنساني. نشعر بها عند وسوسة الشيطان وشهوات أنفسنا الأمارة بالسوء، كما نستشعر أثرها الطيّب عندما تسيطر علينا النفس اللوامة أو حين ينتابنا السرور الروحي الذي تقويه الأرواح الخيّرة والملائكية. ولا تنحصر فاعلية هذا النشاط المتبادل على الجوانب النفسية والروحيّة فحسب، بل تتعداها إلى النواحي المادية. ذلك بأنّ التفريق المُتَحَجِّر بين النفس والجسم، قد أمسى من الأمور التي تختطها العلوم الفيزيائية والطبية والسيكولوجية.

إنّ تأثير الانفعالات والحالة النفسية على الجسم -كما ذكرنا من قبل- يؤدي إلى الاضطرابات والأمراض النفسجسمية. هذا التفاعل بين النفس والجسم الذي أصبح من مسلّمات الطب، يبرهن على أثر الناحية النفسية على الأعضاء الماديّة؛ أي إنّه يؤكد على إمكانية قوى النفس غير المادية على إحداث تغيّرٍ في الأجسام الحيّة والجمادات، لكنّه لا يبرهن على أثر الطاقة النفسية على الغير كما يحدث في العين.

على أنّ هذا التأثير للنفس على الجسم يظهر بشكل أكثر إقناعاً عندما نتصفح الإنترنت، لنقرأ كيف استطاع الباحثون من مثل رتشارد بينسون Benson الذي كان مشرفاً على معهد العقل والجسم Mind and Body Institute في جامعة هارفارد الأمريكية أن يبرهن على قدرة

ممارسي اليوغا في جبال الهمالايا في أن يتحكّموا على الأنشطة اللاإرادية لأجسامهم، فكانوا يرفعون من درجة حرارة أقدامهم، ويقللون من سرعة ضربات قلوبهم، فهم بذلك قد تمكنوا من تسخير طاقتهم النفسية والروحية، ليتحكموا على هذه الأنشطة التي كان العلم وما زال يعتقد بأنّها لا إرادية، وأنّها لا تخضع لرغبة الإنسان. كانوا يقومون بذلك عن طريق التركيز النفسي والروحي والاسترخاء. فهل يمكنهم أن يوجهوا هذه الطاقة الروحية والنفسية القويّة؛ ليحدثوا تغيّراً يمكن قياسه على أجسام الغير كما يحدث في ظاهرة العين؟

إن كانت العين تقوم على تأثير الطاقة النفسية والروحية على الأجسام الحية وعلى المادة، فسوف نجد بعض التأييد غير المباشر من علم الفيزياء الحديث، فقد حطم آينشتاين بنظريته النسبية وما أعقبها من التفجير الذرّي أنّ الطاقة والمادة أو الكتلة، ما هما إلا وجهان لعملةٍ واحدة. هذا بالإضافة إلى أنّ فيزياء ما دون الذرية subatomic physics قد أثبت أنّ وجود شخص ما أمام أجهزة قياس حركات الجسيمات التي تكوّن الذرات سوف يغيّر من حركتها. أي إنّ الوعي البشري consciousness يمكنه حتى من بُعد أن يُعَدّل من حركة الإلكترونات وغيرها من مكوّنات الذرة.[1] كل هذه الدراسات تثبت أنّ الناحية النفسية والروحية وتركيز الوعي الإنساني على شيءٍ ما سوف يحدث فيه نوعاً من التغيير سواءٌ كان هذا التأثير من الشخص على نفسه أو على غيره.

أمّا في علم النفس فإنّ الأدلة الدامغة تأتينا من ميدان الباراسيكولوجي وبشكل خاص من أبحاث تحريك الأشياء عن طريق الطاقة النفسية البحتة Psychokinesis أو Telekinesis. فتؤكد لنا هذه الدراسات بأنّ لبعض الأشخاص الموهوبين قدرة على التأثير على المادة بتركيز إرادتهم على تحريكها فتتحرّك. وبالرغم مما قاله بعض المشككين في مصداقية هذه الأبحاث، إلا أنّ كثيراً من التجارب المُحَكّمَة التي أجريت حديثاً قد أثبتت صحة هذه الظاهرة، وأهمها أبحاث جامعة برنستون Princeton بقيادة الدكتور روبرت جان Robert Jahn رئيس مختبر الدراسات فوق الحاسية. لقد كانت أبحاثه بمثابة جهيزة التي قطعت قول كل خطيب، أي

(1) Capra, Fritjof, *The Tao of physics* (1992). In his Forward to Valle, R. S. & Eckartsberg, R. (1981).The metaphors of consciousness. New York: Plenum Press.

(كابرا فريتيوف: تاو الفيزياء: استكشاف أوجه التشابه بين الفيزياء الحديثة والتصوف الشرقي)

أنها جاءت بالأدلة على صحة قدرة بعض الأشخاص على تحريك الأشياء بطاقاتهم النفسية، ونقول بطاقاتهم النفسية والروحية. وقد اشترك في أبحاثه التجريبية مئات الأشخاص، وطبقت عليهم آلاف التجارب، وثبتت صحة افتراضه بالتأكيد الإحصائي. ولكن لا سبيل إلى إقناع العلمانيين وأولئك الذين اتخذوا الإلحاد ديناً لهم؛ لأنهم يرون في هذه التجارب تشابهاً بالفكر الديني والروحي وتناقضاً مع تصوراتهم المادية.

بعد هذه العجالة العلمية نعود إلى موضوع العين لنقول بأنّها حق كما قال رسولنا ﷺ، بل هي حق تسنده الوقائع والدراسات الحديثة. فإذا كان هناك أشخاص ركزوا نظرهم وطاقتهم النفسية على تحريك الأشياء، فإذا هي تتحرك، فما العجب في قدرة مثل هؤلاء الأشخاص في تركيز نظرهم وقواهم النفسية والروحية في إحداث تغيّرٍ في الأجسام والأشياء فتتغيّر؟ وإنّي لأعجب من نفساني مسلم إذا ذُكِرَت عنده العين وآثارها في الحديث النبوي تبسّم ساخراً، وعدّها من خرافات العرب والأقدمين، وإذا استمع إلى أبحاث روبرت جان Jahn عن دراساته عن القوى النفسية الخارقة التي تُحَرِكُ الأشياء عن بُعد، وعن دراساته في التخاطر وميدان علم نفس ما وراء الحواس، هزّ رأسه موافقاً ومُعجَباً.

لعلّي أختتم هذه التأملات بخبرةٍ شخصية وثّقت إيماني المطلق بوجود هذه القوى النفسية والروحية كالعين والتخاطر والجلاء البصري، ليس فقط بسبب ما ورد لنا عن بعضها من أحاديث نبوية، كأحاديث العين وما جاء في القرآن الكريم من آياتٍ عن السحر والسحرة، بل لأنني والله قد رأيت هذه الظواهر رأي العين في أبحاثي التي كُلِّفْتُ بها من قبل هيئة الصحة العالمية عن العلاج النفسي التقليدي في إثيوبيا والسودان في الثمانيّات من القرن الماضي؛ إذ رأيت رأي العين ما يقوم به المعالجون والشيوخ والسحرة والمتعاونون مع الأرواح الشيطانية، من أفعال لا يصدقها من أغلق عقله في سجن الفكر المادّي.

فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين

والحمد لله رب العالمين

خاتمة

فرَّق الإنسانُ منذ عهوده الأولىٰ بين الفكر الذي يقوم علىٰ المنطق والتروّي العقلي من جهة، والعاطفة والانفعال الجامح من جهة أخرىٰ. فبينما يدعونا العقل إلىٰ التروّي والعقلانية، يدفعنا الانفعال عادة إلىٰ سرعة القيام بعمل يشفي الغليل. ولكن رغم الاختلاف الظاهر بين هذين الجانبين اللذيْن يُشار إليهما بما يصدر عن العقل وما يمليه القلب بمعناه اللغوي العام، إلّا أنّ سعادة الإنسان وكمال خلقه لا تتم إلّا بالتوازن والتعاون فيما بينهما. فلا طعم للحياة من دون المشاعر العاطفية من حبٍ وشفقةٍ وسرورٍ. ومن دون الإحساس بالخوف والقلق لا ينجو الإنسان من المهالك والمخاطر؛ ومن دون الغضب لا يحمي حماه.

لكنّ المرء قد يفقد إنسانيته ويـُمْسي كالحيوان إذا لم يكن لانفعالاته وازعٌ من عقل يكبح جماح إفراطه ولجامٍ أخلاقيٍّ يمنعه من الانحراف عن جادّة الطريق، بالمغالاة في الغضب والانتقام أو الانسياق وراء الشهوات والملذات، حتىٰ يقسوَ قلبه وتجف من كيانه النفسي منابع الرحمة والحب والشفقة. وفي الحقيقة فإنّ من اتصف من البشر بسيطرة هذه الانفعالات والعواطف المستقبحة عليه هو أسوَأ من الحيوان الذي فُطِر علىٰ اتباع شهواته، وينطبق عليه قول الحق سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

إنّ الباحث النفسي الذي يخوض في مثل هذه القضايا الإسلامية من منظور تخصصه، يجد نفسه أمام اتجاهين متطرفين؛ فهناك تصور لا ينظر إلىٰ علم النفس الغربي الحديث إلا علىٰ أنه تخصص علماني لاديني، تأسس علىٰ أنقاض حضارة يهودية مسيحية معادية للإسلام، فلا يجوز اعتماد فكره في الحديث عن أيّ موضوع إسلامي، دع عنك الحديث عن سيرة الأنبياء وشمائلهم. أصحاب هذا التصور هم في غالبيّتهم من المتدينين غير المتخصصين في علم النفس، وكثير منهم قد أسّس توهّمه هذا علىٰ ما سمعه عن أفكار فرويد ونظريّاته الجنسية الشاذة، فاعتقد خطأً بأنّ التحليل النفسي الفرويدي هو المسيطر علىٰ علم النفس بجميع فروعه، بل إنّ علم النفس ما هو إلّا التحليل النفسي بأشكالٍ مختلفة.

من هذا المنطلق يعتقد هؤلاء بأنّ أيّ محاولة للتفسير النفسي للجوانب الإسلامية ضرب من التجرُّؤ على قدسية الدين. أمّا أصحاب التطرف المقابل، فتمثله طائفة من المتخصصين في علم النفس الذين بنوا أمجادهم العلمية على تصور سطحي علماني لعلم النفس. يؤكد هذا التصور بأنّ علم النفس الحديث قد ترك الفلسفة والفكر الديني وراء ظهره، وأصبح في علميته كالعلوم الدقيقة، مثل الأحياء والفيزياء أو -على الأقل- هو في طريقه إلى هذه المكانة. واستناداً على هذا الوهم الذي تخلّى عنه الآن أكثر علماء الغرب، قاموا بإدخال هذا التخصص بكل نظريّاته وممارساته الصالحة منها والطالحة تحت مظلّة العلوم التجريبية الوارفة. وبناءً على ذلك فإنه لا غضاضة بالنسبة لهم في تطبيق نظريّاته، بما فيها من أفكار ليس لها سند علمي أو فكر سليم في دراسة المسائل الدينية والروحية وسيرة الأنبياء.

لذلك كان لزاماً علينا في هذا البحث أن نوضح للقارئ -لا سيما القارئ غير المتخصص في علم النفس- الفروق بين تخصصات علم النفس التي تعتمد على أسسٍ علميةٍ صحيحة، وكيف يمكن الاستفادة منها في دراسة حياة الأنبياء، وإظهار حكمة الله تعالى في اختيارهم وتربيتهم، وتلك التي تقوم على جُرُفٍ هارٍ انهار بهم في درك العلمانية. ولزيادة إيضاح هذه الفروق قمنا بضرب أمثلةٍ لمؤلفين كتبوا عن حياة الأنبياء النفسية بإصداراتٍ اعتمدوا فيها على علمٍ نفسيٍ مُمَحّص، وعلى أدبٍ جمٍّ في دراستهم لسيرة الأنبياء، وتلك التي قامت على نظريّاتٍ أثبت علماء الغرب بطلانها، وعلى أسلوب في الكتابة لا يوقّر أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، فبيّنا بذلك الفروق بين ما يصلح وما لا يصلح استخدامه في الحديث عن سيرة الأنبياء وعواطفهم النبيلة.

وبما أنّ هذا الكتاب يركز على الجانب النفسي والعاطفي لسيرة الأنبياء وشمائلهم، فقد أفردنا فصلاً كاملاً عن الانفعال بالعاطفة من منظور الدراسات النفسية والعصبية الحديثة؛ إذ لا يمكننا التصدي لهذه الدراسة دون تعريف القارئ على ما توصل إليه العلم في هذا الميدان، ثمّ ميّزنا بين ما أثبته العلم التجريبي في هذا الميدان، وبين ما هو مبني على التنظير وادعاءات النفسانيين العلمانيين الذين لم يدَّخروا وسعاً في ليّ أذرع نتائج الدراسات البيولوجية والتجريبية، حتى يقنعوا البسطاء بفكرهم المادي الذي ينكر وجود الناحية الروحية في تكوين الإنسان، ويزعم بأنّ الدماغ هو الآمر والناهي الوحيد في تشكيل سلوك البشر. حاولنا في هذا

الفصل تبسيط هذه المعلومات البيولوجية حتى يستطيع من لم يتخصص في مجالها أن يتعرف على نتائج أبحاثها، ويتفكّر في خلق الله تعالى في عملها. فهذا الفصل وما سبقه يمثلان القاعدة العلمية النفسية للفصول الأربعة التالية، التي تناولت صلب موضوع الكتاب.

ثمّ انتقلنا بتسلسل منطقي إلى الفصل الثالث عن تأملاتنا عن دور الجانب العاطفي في العبادة، بل وفي تكميل الإيمان وتعميقه، إذ من دونه قد يذوي الإيمان ويضعف، فالإيمان الذي يقوم على المعرفة "الباردة" قد لا يأتي أُكُلَه حتى يتم "تسخينه" بعاطفة الحب والخشية والرجاء، فيلين القلب، وتنهمر الدموع، ويُكتَبُ لصاحبها القبول والمحبة الإلهية. فمن الناحية النفسية البحتة تمثل العاطفة الركن الثالث للسلوك البشري من جميع جوانبه، فهناك الجانب المعرفي الذي يُكسِبُ الفرد المعلومات المهمة لموضوع اهتمامه، ثمّ يليه الركن العملي، أيّ الأعمال التي يقوم بها الفرد بناءً على المعلومات التي اكتسبها، ثم يتبعه الجانب العاطفي الوجداني، كأن يشعر بالابتهاج والفرح والثقة بالنفس، بسبب ما أحرزه من نجاح.

ناقشنا هذا التصور النفسي من المنظور الإسلامي، وحاولنا كشف ما خفي من ارتباط وثيق بين العاطفة والناحية الروحية، هذا الارتباط المبارك قد أهمله علم النفس الحديث، كما أهمله أولئك الذين حاولوا تجريد الإسلام من روحانيته وأشواقه العاطفية.

بعد حديثنا وتأملاتنا عن الدور المهم للعاطفة في تكميل الإيمان انتقلنا إلى الفصل الرابع، الذي تقودنا تأملاتنا فيه إلى الحديث عن عواطف الأنبياء، من حيث إنَّهم بشرٌ لهم أجهزة عصبية، كالتي فصّلنا فيها القول في الفصل الثاني، مقارنةً باستجاباتهم العاطفية من منظور شأوهم العظيم كأنبياء ورسل يتلقون الوحي من السماء. فقد هداني تأمّلي واستقرائي إلى تصنيف المثيرات لعواطفنا إلى أصناف:

أولها: المثيرات التي نستجيب لها لا إراديّاً، لأنها مركوزة في جهازنا العصبي، ولا نملك خياراً في إيقافها، كخوفنا من الحيوانات المفترسة، أو الزلازل وكل ما هو مفزع للطبيعة البشرية، ويشمل ذلك أيضاً المواقف المحرجة التي تباغتنا وتجبرنا على الاستجابة السريعة من دون تفكير واع، كالتي يزعم علماء الجهاز العصبي -كما ذكرنا- بأنها تأتي من لوزة الدماغ حيث يجد الفرد نفسه في مأزقٍ يتطلب تدخلاً سريعاً. جميع هذه الاستجابات اللاإرادية ربما تذكّرنا

بردود الأفعال المنعكسة Reflexes المركوزة في جهازنا العصبي، كسحب اليد من سطح شديد الحرارة، أو قفل العينين إذا تعرضتا لنفخةٍ هوائيةٍ مفاجئةٍ، أو لضوء شديدٍ جهرهما.

أما الطائفة الثانية من مثيرات الانفعال فهي التي نستجيب لها بكامل إرادتنا، ونتحمل فيها نتائج قراراتنا، حيث يكون الشخص المستثار واعياً بطبيعة الموقف المثير للانفعال الذي يجابهه، فيتخذ قراره بناءً على تقويمه للموقف. فالاستجابة لمثل هذه المثيرات تعتمد على عوامل متعددة؛ مثل حدّة المثير وخطورته مع حالة الشخص المُستثار النفسية عند الاستثارة، وعلى خطورة ما يعقب تصرّفه، وعلى ما يؤمن به من معتقداتٍ روحيّةٍ ودينية. فهنا نرى الاختلاف الكبير بين استجابات الأنبياء واستجابة عامّة المسلمين، كما نرى الاختلاف البيِّن بين مسؤولية الأنبياء الربّانية، ومسؤولية عامة الناس على ما اتخذوه من استجابات.

لقد ساقنا ذلك إلى تفصيل التأمُّل في الصفات العاطفية والنفسية والروحيّة التي أهّلت رجالاً اصطفاهم الله تعالى ليكونوا أنبياء ومرسلين، وهذا ما قدمناه في الفصل الخامس؛ إذ بذلنا جهدنا لنتأمل في حكمة الله تعالى في اصطفائهم وتكوين شخصيّاتهم، وفي اختيار البيئة والوراثة والتربية الروحية المناسبة التي ساهمت في تفتّح ما وهبهم الله من ميزات، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

ثمّ كتبنا الفصل السادس والسابع بخاتمة نجسّد فيها هذه الصفات بتفصيلٍ أعمق، نتحدث فيه عن حكمة الله تعالى في تقديره لكل صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياة رسولين، هما موسى ويوسف عليهما السلام، لما ورد عن حياتهما من تفصيلٍ في القرآن الكريم.

وبهذا أكون قد وصلت إلى نهاية كتابي، فإن كان في تأمُّلاتي ما يفيد أبنائي طلاب علم النفس والقرّاء بشكلٍ عام، فالحمد والشكر لله تعالى وإن كان فيه غير ذلك، فإني أستغفر الله وأتوب إليه مما جرى به قلمي، فما هي إلا تأملات عسى الله أن يتجاوز عنها... وما هي إلا حديثي مع نفسي. أسأل الله تعالى إن مدّ في العمر أن يُيَسّر لي إنجاز كتابي الثاني الذي سوف أكرسه لتأمُّلاتي عن الجانب العاطفي في حياة الرسول ﷺ بعنوان "العاطفة والحنين في حياة سيد المرسلين ".

مالك بدري

المراجع

أوّلاً: المراجع العربية

١- القرآن الكريم

٢- إبراهيم، عبد الستار. **الإنسان وعلم النفس**، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٨٦، فبراير ١٩٨٥.

٣- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار (توفي ١٥١هـ). **سيرة ابن إسحاق**، تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، ١٩٧٦م.

٤- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (توفي ٢٥٦هـ). **صحيح البخاري**، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٨م.

٥- بدري، مالك. **التفكر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية**، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٤، ١٩٩٥م.

٦- بدري، مالك. من قضايا التأصيل الإسلامي لمناهج علم النفس في الجامعات الإسلامية ووقفات مع أبي زيد البلخي، **مجلة التجديد**، المجلد العشرون، العدد التاسع والثلاثون، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.

٧- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (توفي ٤٥٨هـ). **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية ودار الريان، ط١، ١٩٨٨م.

٨- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (توفي ٤٥٨هـ). **السنن الكبرى**، تحقيق عبدالله عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ٢٠١١م.

٩- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (توفي ٢٧٩هـ). **جامع الترمذي**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٩م.

١٠- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم الحراني (توفي٧٢٨هـ). **مجموع الفتاوى**، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، ط٣، ٢٠٠٥م، دار الوفاء.

١١- الحاكم النيسابوري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (توفي ٤٠٥هـ). **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م.

١٢- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (توفي٨٥٢هـ). **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ.

١٣- الحكيم الترمذي، أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن بن بشر (توفي٣٢٠هـ). **أدب النفس**، تحقيق: أحمد عبدالرحيم السائح، مصر: الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٣م.

١٤- ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد (توفي ٢٤١هـ). **مسند الإمام أحمد**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م.

١٥- الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (توفي ٤٦٣هـ). **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٩م.

١٦- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (توفي ٢٧٥هـ). **سنن أبي داود**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٩م.

١٧- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (توفي ٧٤٨هـ). **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٢م.

١٨- سليمان، السر أحمد. **الأبعاد النفسية للتعبير بالوجه في القرآن الكريم**، الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠١٧م.

١٩- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد(توفي ٣٦٠هـ). **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق عوض الله، القاهرة: دار الحرمين.

٢٠- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد(توفي ٣٦٠هـ). **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، القاهرة: مكتبة ابن تيمية.

٢١- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (توفي ٣١٠هـ). **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار المعارف.

٢٢- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (توفي ٣١٠هـ). **جامع البيان في تفسير القرآن**، دار هجر، ط١.

٢٣- ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة (توفي١٢٢٢هـ). **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق: أحمد عبدالله القرشي، القاهرة، طبع على نفقة حسن عباس زكي، ط١، ١٩٩٩م.

٢٤- ابن العربي، القاضي أبو بكر محمد بن عبدالله العربي المعافري الإشبيلي المالكي (توفي٥٤٣هـ). **أحكام القرآن**، علّق عليه: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

٢٥- الغامدي، أحمد بن محمد. "تفسير أحلام ومنامات العلماء خيراً رأيت"، موقع منظمة المجتمع العلمي العربي https//:arsco.org/article-detail0-8-688- .

٢٦- الغزالي، محمد. **الجانب العاطفي من الإسلام، بحث في الخلق والسلوك والتصوف**، ط١، ١٩٩٠م.

٢٧- الفقير، عبد الهادي. "التحليل النفسي والذات العربية: من التنظير إلى الممارسات"، المجلة الإلكترونية للشبكة النفسية العربية في عددها التاسع عشر، في عام ٢٠٠٨م.
http//:elfakir-arab-nafs.blogspot.com/p/blog-page.25_html

٢٨- فلوجل، جون كارل. **الإنسان والأخلاق والمجتمع: دراسة نفسية تحليلية**، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٦٦م.

٢٩- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد (توفي ٦٧١هـ). **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق سمير البخاري، الرياض: دار عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٣م.

٣٠- قطب، سيد. **خصائص التصور الإسلامي**، بيروت: دار الشروق، ط١٩، ٢٠٠٠م.

٣١- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، د.ت.

٣٢- ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر (توفي٧٥١هـ). **الروح**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٧٥م.

٣٣- ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الدمشقي (توفي: ٧٥١هـ). **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.

٣٤- ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الدمشقي (توفي ٧٥١هـ). **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط١، ١٤٠٣هـ.

٣٥- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (توفي ٧٧٤هـ). **البداية والنهاية**، بيروت، دار المعرفة، ١٩٩٧م.

٣٦- ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن كثير القرشي (توفي٧٧٤هـ). **السيرة النبوية**، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٦م.

٣٧- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني (توفي ١٠٩٣هـ). **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م.

٣٨- كمال، عبد الله. **التحليل النفسي للأنبياء**، مطبوعات دار الخيال، ١٩٩٦م.

٣٩- ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد (توفي ٢٧٣هـ). **سنن ابن ماجه**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٩م.

٤٠- المستعصمي، محمد بن أيدمر (توفي٧١٠هـ). **الدر الفريد وبيت القصيد**، تحقيق :كامل سلمان الجبوري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠١٥م.

٤١- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (توفي٢٦١هـ). **صحيح مسلم**، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط١، ١٩٩٨م.

٤٢- مصطفى، إبراهيم عبد الرحيم. **الانفعالات النفسية عند الأنبياء في القرآن الكريم**، رسالة دكتوراه، قدمت لجامعة النجاح الوطنية، نابلس/ فلسطين، عام ٢٠٠٩م.

٤٣- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (توفي ٧١١هـ). **لسان العرب**، بيروت: دار صادر. (د.ت).

٤٤- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (توفي ٣٠٣هـ). **السنن الكبرى**، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، إشراف شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م.

ثانياً: المراجع الأجنبية

1- Benson, H. *Timeless Healing.* London: Simon & and Schuster, 1996.

2- Brown, S.C. (ed.). *Philosophy of psychology.* London: The Macmillan Press Ltd., 1979.

3- Capra, Fritjof. *The Tao of physics*. Boulder CO: Shambhala Publications, 5th edition 2010.

4- Darwin, Charles. *The Expression of the Emotions in Man and Animals.* Oxford: Oxford University Press, 2013.

5- Driscoll, David Matthew. *The effects of prefrontal cortex damage on the regulation of emotion,* Iowa City, IA: University of Iowa, 2009.

6- Eagleman, David. *Incognito: The secret lives of the brain*. Amazon.com, 2012.

7- Eccles, J. *Evolution of the brain: Creation of the self*. London: Routledge Publishers,1991.

8- Eysenck, H. J. "The effects of psychotherapy: an evaluation", Jou*rnal of Consult,* Psychol, 1952.

9- James ,William. *The Varieties of Religious Experience: a study in Human Nature*, London: Penguin Classics, 1982.

10- Ottoson, David & Others. *Challenges and Perspectives in Neuroscience*. Oxford: Pergamon Press, 1st edition, 1995.

11- Schmiderberg, Melitta. "Psychotherapy with failures of psychoanalysis". *British Journal of psychiatry*, 1970.

12- Thornton, Elizabeth M. *Freud and Cocaine: The Freudian Fallacy.* London: Blond & Briggs Publishers, 1983.

13- Valle, R. S. & Eckartsberg, R. *The metaphors of consciousness*. New York: Plenum Press, 1992.

14- Vitz, P. *Psychology as a religion: The cult of self worship*. London: William Eerdmans Publishing, 1977.

15- Watson, J. B. *Behaviorism*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1930 .

16- Wolpe, J. *Psychotherapy by reciprocal inhibition*. Stanford: Stanford Univ. Press, 1958.

هذا الكتاب

تأمُّلٌ وكشفٌ في الحياة العاطفية للأنبياء، وتفحّصٌ لحكمة الله تعالى في تكوينهم العضوي والنفسي والروحي منذ طفولتهم، بالشكل الذي يناسب ما سوف يلقيه تعالى عليهم من ابتلاءات النبوة. وهو درسٌ معرفي في كيفية الولوج إلى عالم الأنبياء بمزيج من الفهم العلمي الدقيق لعلم النفس واختباره بناء على المعايير والرؤية القرآنية، والإيمان القائم على عاطفة الحبّ والخشية والرجاء، ليتكامل الجانب المعرفي مع العملي مع الوجداني.

مناقشةٌ هادئة وبحث في بِنيات التفكير النفسي الغربي وتفكيك علمي رصين للنظريات النفسية الغربية، التي انغمست في ماديتها وفي تعاملها مع الإنسان بوصفه حالة مادية بحتة تعتريها وتسيطر عليها الغرائز المكبوتة. فعلم النفس الغربي يزخر بتصورات ساذجة مختلفة عن طبيعة الإنسان، تنسج حولها كثير من النظريّات ومناهج البحث التي تسعى جاهدةً لتأكيد صحتها.

إعادةُ اعتبار لجوانية الإنسان في التعامل مع الظواهر؛ فالكتاب يتطرق إلى مفردة وفكرة مهمة قلّما يتناولها الباحثون في الدائرة الإسلامية، وهي التأمُّل. ونحن نعني ما لهذه المفردة من سَبْرٍ عميق في النفس الإنسانية، لتنتقل من مرحلة الكمون والقوة إلى مرحلة التجلي والفعل، فالتأمُّل في المفهوم البَدْريّ مرحلة متقدمة جداً في النظر إلى مجريات الأحداث بالوصول إلى النتائج متجاوزين سؤال (كيف ولماذا وما إلخ) من تلكم الأسئلة التي تحتاج إلى حفر معرفي؛ ذلك لأن التأمُّل كيمياءٌ من العلم والخبرة والعطاء الرباني.

مالك بدري

أستاذ جامعي سوداني، حاصل على دكتوراه في علم النفس من جامعة ليستر عام ١٩٦١م ببريطانيا، وشهادة التخصص في علم النفس السريري عام١٩٦٧م. نال زمالة الجمعية البريطانية لعلماء النفس، وزمالة جمعية أبحاث وعلاج السلوك بجامعة تمبل بالولايات المتحدة الأمريكية. أسهم في تأسيس عدد من الجمعيات النفسية وترأس بعضها، ومنها: الجمعية النفسية السودانية، والجمعية الدولية لعلماء النفس المسلمين. درّس في عدد من الجامعات العربية والإسلامية مثل: الجامعة الأمريكية في بيروت، والجامعة الأردنية، وجامعة الإمام محمد بن سعود، وجامعة الخرطوم وأم درمان، والجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، وجامعة إسطنبول صباح الدين الزعيم. يُعدّخبيراً دولياً في مجال علم النفس التربوي وعلم النفس العلاجي. شارك في هيئات تحرير العديد من المجلات العلمية العربية والإنجليزية.صدر له عدد من الكتب باللغتين العربية والإنجليزية أهمها: علم النفس التربوي، وعلم النفس من المنظور الإسلامي، والإسلام وإدمان الكحول، والإسلام والتحليل النفسي، أزمة علماء النفس المسلمين، والتفكُّر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية، ونكبة الإيدز: نتيجة طبيعية لثورة الحداثة الجنسية، وحكمة الإسلام في تحريم الخمر. توفي رحمه الله في ٨/ ٢/ ٢٠٢١م.

9 786050 667561